آية الله
السيد محمد حسين فضل الله

في رحاب
دعاء الافتتاح

ودعاءي استقبال ووداع
شهر رمضان المبارك

دار الملاك
للطباعة والنشر والتوزيع

في رحاب دعاء الافتتاح

آية الله السيد محمد حسين فضل الله

في رحـــاب

دعـــاء الافتتـــاح

ودعاءي استقبال ووداع شهر رمضان المبارك

دار الملاك

تقديم

دعاء الافتتاح، بوابة العبور المشرعة للسائلين رحمة الله إلى رحاب نعمه السابغة، فمنه يعرج المؤمنون إلى بارئهم، ويكلمونه عن همومهم وشجونهم، ويُلقون من خلاله أثقالهم تخفيفاً لأعباء أحنت ظهورهم لكثرة ما تراكم عليها من آثام.

وهو أداء الشكر لمضيف كريم في شهر كريم غُلّت لأجله شياطين الأرض، وفُتِحت ببركته أبواب السماء، فاستحقّ مَن لجأ إليه غفران الباري ومنحته الكريمة بالعفو والرحمة.

وحتى تكتمل فائدته وتعم القانتين، تناوله سماحة آية الله السيد محمد حسين فضل الله بأسلوب خاص، شرحاً وتفسيراً، في حلقات مسجدية مباركة مع جموع المؤمنين، فجاءت عروضه وشروحه منسجمة مع طبيعة المقام ومتناغمة في سجيتها مع روحية اللقاء الحيّ.

وفيه تتناسل المعاني من المباني، وتتراصف التعابير نسيجاً متراصاً يشدُّ بعضه بعضاً، ويحاكي البيان متن الدعاء فيغتني به ويستضيء، فيضحي للسامع سلسبيلاً يتعشق الروح وينقلها شجيّةً إلى آفاق النصّ المتسامي دائماً بمعانيه الخالدة.

لقد تناول سماحته النص الإمامي المسبوك دروساً وعِبَر، وسيّل مفرداته مشاعلَ نورٍ وهداية، تضيء للسالكين دروب الهدى، وتقشع عن شفافية الروح ما ران عليها وأثقلها بهموم الدأب اليومي المشوب بأدران الحياة.

ويتضمن هذا الإصدار نصين لسماحته؛ الأول حول دعاء استقبال شهر رمضان المبارك والثاني حول وداع شهر رمضان المبارك. وهما نصان سبق أن نشرا في مجلة الثقافة الإسلامية ونعيد نشرهما ليكونا بين يدي الداعي في شهر الله، لما لهما من صلة وثيقة بدعاء الافتتاح الذي تستحب قراءته في كل ليلة من ليالي شهر رمضان المبارك.

وإذ يُصدِر المركز الإسلامي الثقافي هذا الكتاب، يأمل في الوقت عينه أن يكون حلقة من سلسلة حلقات «في رحاب الدعاء» التي ستصدر تباعاً عن المركز.

﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أُجيب دعوة الداعي إذا دعانِ فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون﴾.

شهر رمضان
في حركة الشخصية الإسلاميّة

اعتاد المسلمـون أن يحتفلوا في كل عام بقـدوم شهر رمضـان، وبطريقة مميّـزة، لأنه شهر الصـوم في ما يمثلـه الصوم من معنـى الفريضة العبـادية، التـي تستلزم تغييراً في النظام الغذائي اليومي، وفي الممارسات العملية التـي يستجيب فيها لشهواته وملذاته في ما يفعلـه وفي ما يتركه منها، وفي الاجـواء الروحية الداخليـة التي يمكن أن يعيشها من خلال هذه الفريضـة. . وإذا كانت التقاليد الشعبية تتحرّك في حيـاة الناس من حدثٍ طارىء أو موقف معين، فإن هذه الفريضة قد تحركت في الطريق إلى خلق تقاليد شعبية جديدة في أسلوب ممـارساتهم للحياة الاجتماعية الخاصة والعامـة. . حتى صارت جزءاً من شخصية هذا الشهر في ما تتميز به الأزمنة من الملامح الشخصية. .

ولا نـريد أن نفيض في هـذا الحديث عن طبيعـة هذه التقـاليـد في نطاقهـا السلبي والإيجابي في ما استطـاعت معه أن تغني التجربة، أو تُفقـدها معناها، لأننـا نعرف أن للتقاليد في حياة الأمم، وفي حركة القضايا، سلبياتها التي تجمد المعنى في عمق الواقع، وإيجابياتها التي تركّز الرّمز في امتـداد الزمن. . ولسنا هنا في بحثٍ عن ذلك كلّه لأنه لا يتصل بالغاية التي نريد أن نثير فيها الحديث. .

إنّ ما نحـاول إثارتـه هنا هـو الجـواب عن سؤالٍ محدّد؛ كيف يمكـن تحريك الدور الفاعل لهذا الشهـر في حركـة الشخصية الإسـلامية. . لأننا في هـذه اليقظة الإسـلامية الجديدة التي تطفو على سطح التيار، نحاول تعميق المشاعر الروحية، والأفكار الواقعية

لها . . حتى لا تتحوَّل إلى ظاهرة عابرة في حركة الواقع ، بل تبقى عنصراً ثابتاً من عناصر الدفع المستقبلي نحو النموّ والتقدّم والتجدّد المستمر . .

أمّا الإجابة على هذا السؤال فقد تتحدّد في العمل على تحريك نقاط ثلاث :

النقطة الأولى: دور الصوم في تنمية الشخصية الإسلامية

فقد نستطيع التوقف أمام هذه الفريضة لنجد أنها تمثّل في تكوينها المادي ـ إن صحّ التعبير ـ الإمساك عن الطعام والشراب وبعض الملذّات الخاصة . . وتمثّل في مدلولها الروحي ، العمل الذي يأتي به الإنسان متقرباً إلى الله ، في ما تعنيه عباديّة العمل من انطلاقة من معنى التقرب به إلى الله . . . فإذا وحّدنا بين الجانب المادّي والرّوحي ، كانت النتائج الحاسمة ؛ يقظةً روحيّةً متحرّكةً في داخل الارادة ، وإرادة ثابتةً قويّةً في حركة الروح ، مما يوحي للإنسان بالمراقبة الدائمة لخطواته العملية ، ومشاعره الذاتية وأفكاره الخاصة ، من خلال ما تحقّقه المراقبة اليوميّة في مسألة الملذّات العادية التي يريد أن يحفظ نفسه من ممارستها . . . فإن الالتزام بالكفّ عنها على أساس هدف القرب من الله ، يعمِّق في الذات ـ بشكل متحرِّك ـ معنى القرب من الله كعنصر أساس من العناصر الحية من غايات الإنسان في الحياة ، وهو ما ينعكس إيجابياً على كل جوانب شخصيته الأخرى في الفكر والشعور والعمل . . لأن القاعدة الثابتة واحدة في ذلك كله . . لأن الإنسان لا يمكن أن يحقِّق القرب من الله في حياته إلا إذا تحوَّل كيانه إلى حركة دائبة شاملة في هذا الاتجاه في جميع المجالات العملية التي يستهدفها في الحياة . . . وهذا ما تعمل التربية الإسلامية الهادفة على تحقيقه في عملية تدريب الإنسان المسلم ، عندما توجّه كل اهتماماته نحو الله ، باعتبار أنه غاية الغايات ، فلا يتحرّك الإنسان إلا من خلاله على أساس الشعور الحميم العميق بالخوف منه أو المحبة له . . وهذا هو معنى العبودية في ما تعنيه من الخضوع المطلق لله ، في كل منطلقاته وتطلّعاته ، وذلك هو سرّ التوحيد الإسلامي الذي يمثل وحدة الدرب والهدف من خلال وحدة الخالق في ما توحيه لنا الآية الكريمة . .

﴿إنّ الذين قالوا ربُّنا اللهُ ثُمَّ استقاموا تَتَنَزَّلُ عليهُم الملائكةُ ألاّ تخافوا ولا تحزنُوا وأبشروا بالجنة التي كُنتُم توعدون﴾[1].

والآية الكريمة:

﴿قل إن صلاتي ونُسكي ومحيايَ ومماتي لله ربّ العالمين* لا شريك له وبذلكَ أُمِرتُ وأنا أولُ المسلمين﴾[2].

وقد يستطيع الصوم، في مدلوله الإنساني، أن يحرّك الجانب الإجتماعي في شخصية الإنسان المسلم.. وذلك من خلال بعض المشاعر الذاتية التي يعيش فيها الشعور بالجوع والحرمان فيلتفت في ومضة روحية سريعة، إلى الفئات المحرومة التي تعيش الجوع والحرمان في ظروف اقتصادية صعبة، لتثير في نفسه الإحساس بالمسؤولية في الخروج من هذا الواقع الذي يفرض مثل هذه المشكلات والآلام، فيتحرك، تبعاً لذلك، من أجل المواجهة العملية للواقع، بالجهد الفردي تارة، أو بالجهد الجماعي أخرى، أو بالتحرك السياسي الزاحف نحو تغيير النظام في حالة ثالثة..

وقد يثير الصوم مشاعر الإنسان في الأجواء الروحية نحو أفقٍ أبعد، فينتقل من الشعور بالجوع والحرمان إلى ما ينتظره في يوم القيامة من جوع وعطشٍ عندما يطول وقوفه بين يدي الله على أساس الأعمال المنحرفة التي تنتظر من خلالها الحسابات الدقيقة الطويلة.. فيعمل في الدنيا ليخفّف عن نفسه هذا الموقف الطويل، بما يتراجع فيه من خطوات، وما يصحِّح من أخطاء.. وما يتحرَّك نحوه من مشاريع وأهداف... وهذا ما عالجه رسول الله (ص) في بداية خطبته التي استقبل بها شهر رمضان:

«واذكروا بجوعكم وعطشكم جوعَ يوم القيامة وعطشه..».

.. وهكذا نجد في الصوم مجالاً واسعاً للإنطلاق إلى آفاق متنوعةٍ واسعة في ما يريد الله للإنسان أن يعيشه من آفاق الخير والتقوى والصلاح.

---

(١) فصّلت؛ ٣٠.

(٢) الأنعام؛ ١٦٢، ١٦٣.

النقطة الثانية: دور قراءة القرآن..

حيث ان النصوص الدينية تؤكد استحباب قراءة القرآن الكريم في هذا الشهر، فيمكن للإنسان أن يستفيد من الجو الروحي المتحرك مع الجو القرآني، وأن يحرّك في داخله الحيوية والإنفتاح والامتداد، لأن قراءة القرآن قد تختلف في تأثيرها على النفس، تبعاً لاختلاف الجو الذي تعيش فيه القراءة.. فإذا كانت القراءة في جوّ فكريّ ينطلق من موقع استيحاء المفاهيم الفكرية منه فإنّها توحي بالتأمّل الهادىء والمناقشة العلمية بعيداً عن أيّ انفعال بشيء آخر، وإذا كانت القراءة في الجو الروحي الذي يعرج بالمؤمن في روحه إلى الله، كانت تأثيراتها انطلاقةً روحية إلى الله في ما تستوحيه من أفكار ومشاعر وتأملات، فلا تتحرّك بالفكر المجرّد ولا بالتأمل الشارد.. بل تلتقي بالفكر في حركة الروح في جوّ إيمانيّ رائع.. ولعلّ هذا الهدف هو الذي أراده الإسلام في ما استحبّه من تلاوة القرآن بعد الصلاة وفي أجواء الصوم، لأن الإيحاءات الروحية التي تبعثها هذه القراءة في شخصية المسلم تختلف كثيراً عمّا تولّده في نفسه إذا كانت بعيدة عن هذه الأجواء.. بل نستطيع أن نقرّر أن القرآن لا يُفهم جيداً إلا إذا عاشه الإنسانُ قراءة وسماعاً وتأملاً في داخل الأجواء الروحية.. لأنه انطلق من خلال ذلك كله.. وذلك هو جوّ قراءة القرآن في شهر رمضان في لياليه وأيامه، حيث يرتفع بالإنسان إلى أجواء روحية عالية.. فإذا أضفنا إلى ذلك الثقافة الإسلامية التي تتمثَّل في القرآن في ما تحمله آياته من مفاهيم الإسلام وأفكاره وشريعته، عرفنا كيف يساعد ذلك على نمو الشخصية الإسلامية التي ينبغي لها أن تعيش فكرها في أجواء روحية هادئة، لتتمكن من خلال ذلك من الانطلاق من قاعدة فكرية روحية عميقة في داخل النفس والفكر والوجدان.. وقد لا نحتاج إلى التنبيه كثيراً إلى ما يفرضه الوصول إلى هذا الهدف من التدّبر والتأمّل في قراءة القرآن، لأن ذلك هو السبيل الوحيد للحصول على النتيجة المرجوّة من الانطلاق في وضوح الرؤية في ما يحمله الإنسان من فكر وفي ما يختزنه من مشاعر..

أمّا الطريقة التقليدية التي ترتكز على أساس ملاحظة الكمّ دون الكيف في قراءة القرآن فإنها لا تستطيع أن تضيف إلى الإنسان شيئاً في مشاعره وأفكاره، بل كلُّ ما هناك

أنها تمنح القرآن سمة جمودٍ في الكلمة وتجميد في الوعي، في الأساليب التي تركتها لنا عهود التخلّف. . وربما كان بعض السبب في ذلك هو هذا التسابق في عدد «الختمات» التي تُهدى إلى الموتى في هذا الشهر، ، تكريماً لهم أو تحبّباً إليهم من خلال جلب الثواب لأرواحهم بتلك الوسيلة. . فإنّ تحقيق هذا الهدف يفرض على القارىء السرعة التي تبتعد به عن الوعي للفكرة والإستيحاء لمعاني الروح.

النقطة الثالثة: دور الدعاء في شهر رمضان..

قد يكون الدعاء من أبرز الأعمال العبادية الظاهرة في شهر رمضان، في ما يمارسه المؤمنون في سائر أوقات الشهر، حتى يشعر الإنسان بأنّ هناك شمولاً في ما ينبغي للمرء أن يدعو به، فهناك دعاء للأيام، ويقابله دعاء لليالي، وهناك أدعية للصباح وللسحر ولأوقات الصلاة والفطور والسحور ، ولغير ذلك. . وقد تنوّعت أساليب الدعاء ومضامينه في ما حفلت به الأحاديث المأثورة من نوعيّات الأدعية، وفي ما وضعه المؤلّفون والعلماء من ذلك كلّه. . فهناك الأدعية التي يستغرق فيها الإنسان في المشاعر الذاتية التي يواجه فيها ذنوبه بين يدي الله، ويعبّر فيها عن محبّته لله، وخوفه منه، ويلتقي فيها بحساباته في ما يفعله وفي ما يتركه في عمله تصفيةً للنفس، ويثير أمام نفسه الكثير الكثير من تفاصيل العقيدة في ما يعتقده من توحيد الله ورسالة رسوله والإيمان باليوم الآخر ليؤكّد معانيها التفصيلية في نفسه. . وهكذا يجد الإنسان نفسه في جولة واسعة في رحاب الله وفي آفاق النفس، وفي أوضاع الحياة المحيطة به، في أُسلوب روحي لذيذ يرتفع بالنفس إلى سماوات الروح والإيمان والإبداع ليصنع الإنسان المسلم الجديد. . كما نواجهه في دعاء السحر الذي رواه أبو حمزة الثمالي عن الإمام علي بن الحسين زين العابدين (ع). . وهناك الأدعية الاجتماعية الإنسانية التي تثير في داخل الإنسان الشعور بمشاكل الناس من حوله، إضافة إلى مشاكله الخاصة في عملية إيحاء روحية بأن عليه أن لا يبتعد عن الحياة في نطاق مسؤوليته عندما يلتقي بالله ويجلس بين يديه، بل يحاول الاقتراب من ذلك كلّه، ليعرف أنّ الحياة كلها، في مشاكلها وحلولها، مشدودة إلى الله في عمليّة البقاء والإمتداد، كما هي مشدودة إليه في عملية الخَلق، وتحرّك في

داخله الشعور بأن العبادة لا تعزل الإنسان عن الحياة بل تربطه بها بطريقة واسعة مثيرة. . وهناك الأدعية التي تخلق في وعيه الوعي السياسي في ما يلتقي به من المشاكل الإسلامية العامة في الحكم والحاكمين وقضايا العدل والظلم والحق والباطل لتتحول إلى دعوات ورغبات وأمنيات يطرحها بين يدي الله سبحانه و تعالى. . ليكون ذلك سبيلاً من سبل الوعي الذي يختزنه الإنسان في أجواء العبادة.

الإنفتاح على القضايا الكبرى

وهكذا يجد الإنسان في هذه الادعية سبيلاً من سبل تكوين الشخصية الإسلامية، في ما يريد الإنسان أن يركزه منها، فيلتقي فيه الجانب الروحي الفردّي بالجانب الإجتماعي والسياسي، وتتحرّك المفاهيم الصغيرة والكبيرة في ما يحمله الإنسان من عقائد ومشاعر وأفكار. . حتى يدخل الإنسان في دورة تربوية روحيةٍ تثقيفية يعيش فيها آفاق مسؤوليته الواسعة بين يدي الله، ليغترف من هذا الينبوع ما شاء له الجو أن يغترف. . وبذلك يمكن للمسلم أن يعيش تكامل الشخصية الروحية والفكرية بطريقة إيحائية رائعة. . ولا بدّ في ذلك كلّه من الانطلاق بالدعاء في فكره وشعوره قبل الإنطلاق به في لسانه حتى تكتمل له هذه النتائج الحاسمة. . . وربما كان من الضروري للعاملين في حقل الدعوة إلى الله أن يستثيروا كل هذه المعاني في آفاق الداعين، في مجال الموعظة والدعوة والتبليغ والتربية ليؤكدوا ذلك كلّه في نفوسهم، وليخرجوهم من الآفاق التقليدية الجامدة إلى الآفاق المتحرّكة الواسعة. . وربّما استطاعوا أن ينفذوا إلى داخل النفس الإنسانية المسلمة، بهذا السبيل الذي يلتقي بتقاليدهم الروحية كما يلتقي بعبادتهم التي يتقربون بها إلى الله. . لأن النفس تتأثر بالكثير من أجواء الروح، بما لا تتأثر به من أجواء الفكر المجّرد. . وبذلك يمكن لشهر رمضان أن ينطلق من القاعدة الروحّية الذاتيّة إلى تنمية القاعدة الفكرية السياسية والإجتماعية، لتتكامل للإنسان المسلم شخصيته، وتتحقق له من خلال ذلك كلّه الفكرة الواسعة والروحية النابضة، والمشاعر المرهفة والإرادة القوية، والمواقف الثابتة

الصامـدة التي تتقدم المواكب الصـاعدة في سبيل إعلاء كلمـة الله في الأرض، والهاتفة أبداً مع دعاء الافتتاح:

«أَللَّهُمّ إِنّـا نَرْغَبُ إِلَيْـكَ في دولةٍ كـريمـةٍ تُعزّ بها الإسـلامَ وأَهْلَـه، وَتُذِلُّ بِهَا النفـاق وأهله، وَتَجْعَلنا فيها مِن الدُّعاة إلى طاعتكَ والقادةِ إلى سَبيلك، وَتَرْزُقُنا فيهاَ كرامةَ الدُّنيا والآخرة».

***

وربما كـان من المفيد لنـا ـ ونحن نعالــج هـذا الجانب من دور الدعـاء في تكـامل الشخصيـة الإسلاميـة ـ أن نـواجه المسألـة من خلال متـابعة بعض النماذج الحّيـة التي يلتقي فيها الإنســان المؤمن بالله، في ابتهالات الـدعاء الخاشعة التي تتفـايض بها روحه إيماناً وخشوعاً وخضوعاً.. فيعيش من خلالها الشعور العميق بعبوديّته لله، التي تتأكد من خلالها حريته أمام المخلوقين، ويتنامى في داخله الإحساس بالمعاني الروحية الكبيرة المنطلقة من الله فيلتقي معهـا بالمبـادىء الإجتماعية الإنسانيـة التي تدفعـه إلى الشعور بمسؤوليته تجاه عبـاد الله.. وبذلك لن يكون الدعـاء ـ في ما يوحيـه من أجواء روحية ـ عاملاً سلبياً في حـركة الإنسان الداخلية ليكون عنصراً سلبيـاً في حركته الخارجية.. بل يتحوّل إلى عـامل إيجابّي يغني التجربـة العملية بالعـوامل الروحيـة، ويزاوج بين الإيمان والعمل في عمليـة حركـة وامتداد.. وربّما يكـون من الخير لهذا الإتجاه في فهمنا للـدور الذي يثيره في أعماق النفس، أن نقف أمام بعض هذه النماذج التي يتلوها المؤمن في هذا الشهر المبارك.. لنعـرف من خلالها الطبيعة الإيجابيـة للدعاء في إثارة المعـاني الإنسانية في اعماق النفس بشكل مميز بارز.. فنلتقي في البـداية، بالدعاء الـذي تستحب تلاوته بعد كل صلاة:

«أَللّهُمَّ أدخِلْ عَلى أهل القُبُور السُّرور، أَللَّهُمَّ أَغْنِ كلّ فَقير، أَللّهمّ أَشبع كل جائِعٍ، أَللّهُمَّ اكسُ كلّ عـريان، أَللّهمَّ اقضِ دين كل مَـدين، أَللّهمَّ فرِّجْ عن كـلّ مكروبٍ، أَللّهمّ رُدّ كُلّ غريب، أَللّهمّ فُكَّ كُلّ أسير، أَللّهمَّ أصلحْ كُلّ فاسدٍ من أمور المسلمين،

أَللَّهمَّ اشفِ كُلّ مـريض، أَللَّهمَّ سُـدَّ فَقْـرنـا بِغنـاك، أللهم غيّر سُـوءَ حَـالِنـا بحسنِ حالِك، أَللَّهمُ اقضِ عَنا الدَّين وأغنِنا من الفقر إنَّك على كلّ شيءٍ قدير».

استحضار الآلام الإنسانية

ما الذي يوحيه لنا هذا الدعاء؟

ربما يخيّـل ـ بـادىء ذي بـدء ـ أن الإنسان في هـذا الدعـاء يـريد أن يتخفَّـف من مسؤوليتـه تجاه المشاكل العامة لـلآخرين، ويلقيها على الله ليتكفّل بحلّها فتكـون بادرة سلبية تعزل الإنسان عن المشاركة في الحل لتترك الأمر لله في اتكاليةٍ هروبيةٍ واضحة..

ولكن القضية ليست كذلك، بل هي على العكس من ذلك.. فإن الدعاء يريد أن يقتحم على الإنسان أجـواءه الروحية فيثير أمامه التفكير والاهتمام بكـل الآلام الإنسانية من حوله.. ليستحضرها أمامه كما لو كانت هماً ذاتياً من همومه الشخصية.. فإذا شعر بالحاجة إلى أن ينقل آلامه الخاصـة لله ليستعيـن بـه على التخفيـف منها.. فإنه يشعـر ـ بالقوة نفسها ـ بالحاجة إلى أن ينقل الآلام التي يعاني منها الآخرون؛ ليستغيث بالله في تخفيفها عن الآخرين.. وبذلك يعيش عُمْق الإحساس بإنسـانيته في امتدادها الروحي والعملي في حياة الآخرين..

إنّ الـدعـاء هنـا يثير التفكير بأهل القبـور، كيف واجهـوا الله بـذنـوبهم وأعمالهم، فيطلب من الله أن يُدخل عليهم السرور بالمغفرة والرحمة والرضوان.. ويدفع إلى التفكير بمشكلة الفقراء والجائعين والعـراة والغارمين والمكروبين والغربـاء والأسارى.. ليعيش الإنسـان مع المشكلة بمسـؤوليتـه فيستنفر طـاقـاته التي يحاول من خـلالها بعض الحلّ للمشكلـة.. ويطلب من الله بعـد ذلك أن يُكمل الحل من خـلال قدرتـه على تـوفير الأسباب الطبيعية وغير الطبيعيـة للحلول العملية لكلّ ذلك.. وبذلك يكـون الدعاء انطلاقـة في إيجاد التفاعل الداخلي مع المشكلة بـدلاً من أن يكون هروبـاً سلبياً من حمل مسؤوليتها، لأن اعتبار المشكلة هماً من هموم العبادة الروحيّة التي يقدِّم فيها ابتهالاته إلى الله يعني ارتباطها بالمشاعر العميقة لحياة الإنسان في العمق والإمتداد..

ثم تقفز ـ أمام الإنسان في دعائه ـ مشاكل الواقع الفاسد للمسلمين سواء ما يتعلق منها بالفساد الإجتماعي والسياسي والأخلاقي والإقتصادي والعسكري وغير ذلك . . فيعيش الإنسان مع ذلك كلّه في عملية استحضارٍ تفصيلي يدفع الفكر إلى أن لا ينفصل عن قضايا الواقع في أجواء اللامبالاة، بل يحاول أن يتمثلها في إحساس بالاهتمام والجدية والمعاناة لتتصاعد صلواته إلى الله تدعوه إلى أن يصلح كل هذا الفساد . . وإذا كان إصلاح الله للواقع لا يتحقّق إلا من خلال الأسباب الطبيعية للأشياء، فإن ذلك يوحي للإنسان بالتفكير في الوسائل الواقعية التي يمكن أن يحقّقها بجهده وجهد الآخرين في سبيل الوصول إلى ذلك الهدف . . وهكذا ينتقل الدعاء إلى التفكير بالمرضى ليطلب من الله الشفاء لهم . . وليعيش الإنسان مع ذلك مشكلة القدرات الإنسانية في توفير الأجواء الطبيعية للشفاء من خلال المؤسسات الصحّية أو الأعمال الخيرية التي تنطلق في هذا الإتجاه . . وعندما ينطلق الدعاء إلى التفكير بالفقر وأسبابه، فإن الفكر قد يتحرّك في اتجاه الطلب إلى عباد الله كأسلوب من أساليب حل المشكلة . . ممّا يوحي بالإنسحاق أمام الأغنياء في شعور عميق بالحاجة المذُلّة . . فيتحرّك الدعاء ليطلب من الله أن يجنّب المؤمن هذه التجربة الصعبة فيحفظ له عزّته وكرامته عندما يسدّ فقره بغناه في ما يمنحه من ظروفٍ وأوضاع تتحرك في هذا الإتجاه . .

وهكذا نجد في هذا الدعاء واجهة تطلّ على المعاني الإنسانية الواسعة . . وتدفع الإنسان إلى أن يعيش الحياة بكل آلامها ومشاكلها وتحدّياتها ليحملها إلى الله هماً من هموم مسؤوليته التي يفكر كيف يمكن أن يعمل لها من جهة، وكيف يمكن أن يثيرها أمام الله في ما لا يستطيع أن يعمله من جهة أخرى . . .

باختصار، للدعاء في التربية الإسلامية معنى العبادة المتحركة المفتوحة على كل الأوضاع، فلا يحدّها زمان، كما هي الصلاة المفروضة والصوم الواجب، ولا يحتويها مكان، كما هو الحج، فللإنسان أن يدعو في الصباح وفي المساء في كل آن من آناء الليل والنهار، وله أن يدعو الله قائماً وقاعداً أو مستلقياً على جنبه، وله أن ينفتح على الله في ذلك في كل يوم وفي كل شهر وفي كل سنة . . . ليعيش الحضور الدائم معه سبحانه

حيث يحس بوجوده إحساس اللقاء المباشر، تماماً كما لو كان يحس به ويتطلع إليه، وقد يحدث للتوجيه الإسلامي في الدعاء أن يطلب من الإنسان المؤمن أن يدعو الله في زمانٍ معينٍ مما يريد الله فيه له أن يتفرغ إليه في ليله ونهاره، من أجل الوصول به إلى بعض النتائج الإيمانية الكبيرة، أو تحقيق التعبئة الروحية التي تلتقي بفريضة معينة مما فرضه الله على الإنسان للحصول على بعض الأهداف الإسلامية في بناء الشخصية الإسلامية.

وذلك كما هي الحال في شهر رمضان الذي وردت فيه النصوص الكثيرة التي تستحب للإنسان أن يأخذ بأسباب الدعاء في ليله ونهاره وسحوره، بحيث كان لكل وقتٍ من هذه الأوقات دعاءٌ مميزٌ يختص به ويتناسب مع طبيعة الأجواء المحيطة به، ليكون ذلك مكمّلاً للنتائج التي يحصل عليها الصائم من صومه في بناء إرادته على أساس التقوى، إضافةً إلى قراءة القرآن التي تمنح الإرادة مضمونها الإسلامي، وتعطي التقوى حركتها الروحية... ليتحقق للصائم بالصوم والدعاء وتلاوة القرآن القاعدة الصلبة للبناء الروحي القوي المنفتح على فكر الإسلام في طبيعة الشخصية الإسلامية.

إن أجواء شهر رمضان هي أجواء الدعاء، إضافة إلى كونها أجواء الصوم وقراءة القرآن. وقد اعتبر الله سبحانه وتعالى في كتابه المجيد الدعاء مظهراً من مظاهر العبادة، واعتبر الذين لا يمارسون الدعاء مستكبرين عن عبادته: ﴿**وقال ربكم ادعوني أستجب لكم ان الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين**﴾[1] وفُسِّر قوله تعالى (عبادتي) بـ (دعائي).

ان الله يريد من الإنسان أن يدعوه في كل ما أهمه، من صغائر الأمور وكبائرها، بحيث تكون جلسات الإنسان مع ربه أكثر من جلساته مع أقرب الناس إليه. فنحن نتحدث مع أزواجنا وأولادنا وآبائنا وامهاتنا وأصدقائنا، ولكن الله يريد أن يكون حديثنا معه أكثر من حديثنا مع هؤلاء أو مع غيرهم، انطلاقاً من حقيقة هي ان صلتنا بالله أكبر من صلتنا بأي أحد سواه.. فصلتنا بآبائنا وامهاتنا هي انهم كانوا الوسيلة لوجودنا، وانهم قاموا بتربيتنا ورعايتنا، في ما قدّرهم الله على ذلك، وهكذا صلاتنا بأولادنا،

(١) غافر؛ ٦٠.

الذين هم فلـذات أكبادنا، لأننا كنّـا الاداة لوجودهم ونتحمل مسؤوليـاتهم. . وهكذا الأمر مع الناس الآخرين كلّهم.

أمّا صلتنا بالله، فهي انه (تعالى) يملك وجـودنا، لأنه أساس الوجود، ويملك كل ما يتصل بهذا الوجود. . وفي القرآن نقرأ: **﴿قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليلَ سرمداً إلى يوم القيـامة، مَنْ إلـه غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعـون * قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهـار سرمدا إلى يـوم القيامـة، مَنْ إلهٌ غير الله يأتيكم بليل تسكنـون فيه افـلا تبصرون﴾**[1] **﴿قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماءٍ معين﴾**[2].

وهكذا، فإن علاقتنـا بالله تتصل بكل عنصر من عناصر وجودنـا، وهي تمتد إلى ما بعد وفاتنا، من خلال إيماننا بالله وباليوم الآخر. . فهو الذي يرعانا في القبر، وهو الذي يرعانا في الحشر، وهو الذي يرعـانا في جنّته وفي رضوانه. . بل ان رحمته لا تنقطع عنّا في أيـة لحظـة، ومن ثمَّ يقول بعض العلماء ان خشيـة النـاس من القبر هي أكثـر من الحد اللازم، لأن الإنسان الذي ينفتح على رحمة الله يشعر ان الله هو الرحمن الرحيم في الدنيا، وهو الرحمـن الرحيـم في الآخـرة. . فدخـول الإنسـان إلى قبـره لا يعني انقطاع رحمة الله ـ سبحانه ـ عنه؛ بل ان لله رحمة يوم القيامة يتطاول لها عنق ابليس.

من هنا، فقيمة هـذه الأدعية هي انها تعطي الإنسان حالـة من حالات الإحساس والشعور الوجـداني بالعلاقة مع الله؛ فعلاقتنـا مع الله سبحانه وتعالى، غالبـاً ما تكون عـلاقة عقليـة، لكن لـو رجعنـا إلى أنفسنا هل نتحسس الله في قلـوبنـا، كما نتحسس الناس في قلوبنا؟

أنت تحس بحضور الإنسـان أمامك فتخجل منـه ولا تستطيع أن تخرج عاريـاً أمام طفلٍ صغير يبلغ من العمر سنتين لأنك تشعر بحضوره، ولكن أنت تذنب وتعمل كل شيء أمام الله، سبحانه وتعالى، لأنك لا تشعر بحضوره.

---

(١) القصص؛ ٧١، ٧٢.

(٢) الملك؛ ٣٠.

قراءة القرآن، الأدعية، الصلاة، الفكر، هذه كلها وسائل لأن تتعمق مشاعرك بالله بحيث تشعر كما لو كنت تراه «**خف الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**».

الدعاء انفتاح على الحياة

ونحن عندما ندرس الأدعية المأثورة في هذا الشهر، فإننا نجد فيها تنوّعاً في الأغراض والمضامين والأساليب، ووحدةً في الجو الروحي الذي يثير في الإنسان المشاعر والأحاسيس التي يتطلع فيها إلى الله وإلى الحياة المسؤولة في علاقات الناس بعضهم ببعض وبالواقع من حولهم، في ما يريد الله لهم أن يأخذوا به من أوضاع وعلاقات...

وقد نحتاج إلى نوع من الدراسة التحليلية التي تتعمق في تحليل العناصر المتنوعة في البناء الروحي للشخصية الإسلامية، وفي الطريقة التي تتحرك فيها التربية الإسلامية في إقامة العلاقات بين الإنسان وبين الله... على الأساس الذي يحافظ فيه الإنسان على إثارة كل مفردات العقيدة بالله في صفاته وفي أفعاله لينطلق منها إلى تحريك كل جوانب الحق والخير في حياته، فلا يكون الدعاء مجرد استغراق ذاتيّ في الذات الإلهية... بل يكون، إلى جانب ذلك، انفتاحاً على كل الحياة الخيّرة في آفاقها الفكرية والعملية، من خلال الانفتاح على الله، وحركةً من أجل الحديث عن نقاط الضعف الذاتية في الإنسان، للوصول من خلال الجو الروحي الخاشع لله في دائرة الاعتراف، إلى تحويلها إلى نقاط قوةٍ للشخصية الإنسانية على أساس استمداد القوة من الله...

وهكذا تمثل الأدعية المأثورة في شهر رمضان ـ كما في غيره ـ برنامجاً حياً متحركاً للتعبئة الروحية المتداخلة مع التعبئة الفكرية، إضافةً إلى العنصر التربوي الذي يملك المضمون والأسلوب في ما بين هذا وذاك.

ولسنا هنا بصدد دراسة شاملة لأدعية شهر رمضان، ولكننا نريد أن ندرس ثلاثة نماذج من هذه الأدعية، هي:

أ ـ دعاء الإمام علي بن الحسين زين العابدين (ع) في استقبال شهر رمضان.

ب ـ الدعاء المنسوب للإمام الحجة (عج)، والذي رواه عنه أحد نوابه محمد بن عثمان السمري العمري والمعروف بدعاء الإفتتاح.

ج ـ دعاء الإمام زين العابدين في وداع شهر رمضان.

وسوف نتصدى لهذه الأدعية من خلال التصور الواسع للفكرة الإسلامية حول هذا الشهر، في ما هي طبيعته في العناوين الكبيرة التي يمنحها الإسلام له، وفي التصور العام والتفصيلي للدور الذي يراد له أن يحقّقه في المسيرة الإسلامية من خلال نشاط المسلمين فيه، ومن خلال الأجواء التي يختزن أبعادها داخل الأعمال المفروضة أو المستحبة فيه... وفي العلاقة الشعورية بين الإنسان المسلم وبين هذا الشهر على أساس ما يريده الإسلام من العلاقة بين المسلم وبين الزمن، لما يمثله الزمن من الحركة التي تستوعب كل نشاطاته وتقوده إلى رحاب الله في ساحات قدسه، وفي آفاق نعيم رضوانه في جنته.

ولعل هذا النوع من التفكير الإسلامي في تعميق الإحساس الديني بالزمن في دائرة المسؤولية، هو الذي يفسر لنا التعاليم الدينية التي تجعل لهذا الزمن أو ذاك خصوصيةً في عمل واجب أو مستحب أو في حركةٍ معينةٍ، للإيحاء الدائم بالفهم الروحي الداخلي للقيمة التي يملكها الزمن في وجود الإنسان، مما يجعل انتظار الزمن من أجل انتظار العمل الذي يحتويه، وسيلةً من وسائل الشعور بحركة الواجب في الحياة، وبقلق المسؤولية في معنى المستقبل... الأمر الذي يجعل الحالة الشعورية، في ما هو قلق الانتظار، منطلقاً للحالة الفكرية والروحية التي تنمّي للإنسان طاقته الإسلامية في تعميق الإحساس الكبير بالواجب.... حيث ينتظره الإنسان كما ينتظر أيّ شيء يحبه.

وإذا كنا نريد أن نحصل على التصور الإسلامي في معنى هذا الشهر المبارك من خلال الأدعية المروية عن أئمتنا (ع)، فإننا نعمل على الخروج من الدائرة التقليدية التي أصبح المسلمون يعيشون فيها في تصورهم وانتظارهم له، كأيّ واجبٍ ميتٍ في الدائرة

الشعورية التي ابتعدوا عنها في ممارساتهم العملية، لينفتحوا على العمق الروحي والفكري في مضمونه.

وقد نلاحظ في أدعية الإمام زين العابدين (ع) ميزةً بارزةً في الجانب التحليلي الذي يلاحق خصائص الموضوع الذي يدور حوله الدعاء، مما ينفذ فيه الداعي إلى العناصر الدقيقة التي تلامس أدق المشاعر حتى تساعده على فهم طبيعتها بحيث تنفتح على آفاق الله من أوسع المجالات.

وهذا ما نلاحظه في دعائه (ع) عند دخول شهر رمضان وفي وداعه، حيث نجد فيهما عناصر المعاني الحية للشهر المبارك في المفهوم الإسلامي الروحي والأخلاقي والشعوري والتشريعي...

وأما دعاء الافتتاح للإمام الحجة (عج) فهو من الأدعية المهمة التي يستطيع الإنسان من خلالها أن يخرج بثقافة في صفات الله التي تتحرك في حركة الحياة من حولنا، بمعنى أنَّ هناك صفات تجريدية لله لا يبلغها فكرنا، ولا نتحسسها في حياتنا، ولكن نلاحظ أن الصفات التي يتحدث بها هذا الدعاء هي صفات تتصل بالواقع الحي في حياتنا ـ من حيث الواقع العملي ـ بحيث أنك تشعر بأن الله معك من خلال صفاته التي يمسح الإنسان فيها رعايته.

كما أن في هذا الدعاء لفتات روحية تعطي الإنسان الفكرة حول كثيرٍ من القضايا التي يتمناها أو يدعو الله بها ولا تحصل، فيشعر بالإحباط، أو يشعر بالأسى فيتساءل: لماذا لم يعطني الله هذه الحاجة؟! لماذا لم يقضِ لي هذه الحاجة؟! لماذا أبقاني الله في حالة مرض؟!.. لماذا أخذ الله مني من أحبه؟!.. ويحس بالإنكماش النفسي، ويشعر بأن الله ساخطٌ وغاضب عليه، ويحتار في تساؤلاته:

كيف لم يعطني الله هذا الشيء ولم يقضِ لي هذه الحاجة؟

كيف ابتلاني بهذا الإبتلاء وأنا مؤمن أصلي وأصوم، وسائر على الخط؟ لماذا ابتلاني الله؟..

ما هي المسألة؟

هذا الـدعاء يفسر هذه القضية، كما تتضمن ثنـاياه لفتات في طريقـة الإنفتاح على الله، وفي كيفية تأكيـد خط الرسـالة من خلال خط القيـادة، وفي الإنفتاح على حـالة الغيبة ـ غيبة الإمـام الحجة (ع) ـ التي نعيشها الآن، والأفكار التي ينبغي لنا أن نعيشها في هذه المرحلة الطويلة، كما يبين لنا الأسلوب الذي يجب أن نعتمده في صياغة أنفسنا في حالـة الإنتظار، في معالجة قضـايانا، فضـلاً عن القواعد التي يجب مـراعاتها. ومن هنا، نجد أن هذا الدعاء يمثل ثروة فكرية، وروحية، وحركية، كبيرة جداً.

بعض الأدعية فيها ثـروة روحية، وثروة فكريـة، ولكن قيمة هذا لدعـاء أنَّ فيه ثروة حركية، وخطاً حركياً، ينفتح على مسؤوليتنا في حالة غياب إمامنا، وعلى طريقة حركتنا في هذا الإتجاه.

ويخلص الدعاء إلى ابراز أهمية اللجوء إلى الله سبحانه وتعالى، لاستمداد القوة والأمل منه لبلوغ النتائج الحاسمـة والنوعية، وذلك عندما يشعر الإنسـان انه يكاد يسقط أمام قوة الأقوياء واستكبار المستكبرين.

ونبدأ بـالدعـاء الأول في استقبال شهـر رمضان على أن يليـه دعاء الافتتـاح فدعـاء الوداع، وعلى أن نعالج كلاً من هذه الأدعية في فصول عدة.

دعـــاء
الإمام زين العابدين
في دخول
شهر رمضان المبارك

الحَمْدُ للهِ الّـذي هدانا لحمدِه وجَعَلَنـا من أهلِه لنكونَ لإحسـانِه من الشـاكرين، ولِيجـزيَنـا على ذلكَ جـزاءَ المحسنين، والحمدُ لله الـذي حبانا بدينِه، واخْتَصَّنا بملّتـه، وسَبَّلَنا في سُبُلِ إحسانِه، لِنَسْلُكَها بمنِّهِ إلى رضوانِه، حمداً يتَقَبَّلُهُ منّا ويرضى به عنّا.

والحمدُ للهِ الذي جعلَ من تلكَ السبلِ شهـرَهُ، شهرَ رمضان، شهرَ الصيـام، وشهرَ الإسـلام، وشهـرَ الطَّهـور وشهرَ التمحيص، وشهـرَ القيام، الذي أُنزلَ فيهِ القرآنُ هُدىً للناسِ وبيِّناتٍ من الهدى والفرقان. فـأبانَ فضيلتَـهُ على سـائرِ الشهـورِ بما جعلَ له مـن الحُرُماتِ الموفـورةِ والفضائلِ المشهـورة، فحرَّم فيـه ما أَحلّ في غيرِهِ إعظـاماً، وحجـر فيه المطاعمَ والمشاربَ إكـراماً، وجعل له وقتاً بيّناً لا يجيـزُ جلّ وعزّ أن يُقدَّمَ قبلَهُ ولا يقبلُ أن يُؤخَّرَ عنه...

ثم فضَّلَ ليلـةً واحدةً من ليـاليـه على ليالي ألفِ شهـر وسمّاها ليلـةَ القدرِ تَنَـزَّلُ الروحُ فيهـا بإذنِ ربِّهم من كلِّ أمر، سـلامٌ دائمُ البركةِ حتى طلوعِ الفجرِ على مَن يشاءُ من عبادِهِ بما أَحْكَمَ من قضائِه.

اللهم صلِّ على محمـد وآله، وألهمنـا معرفـةَ فضلِه وإجـلالَ حُرمتـه والتحفظَ مما حظرت فيه، وأعِنّا على صيامه بكفِّ الجوارح واستعمالها بما يرضيك، حتى لا نصغيَ بـأسماعنا إلى لغوٍ ولا نسرعَ بأبصـارنا إلى لهو، وحتى لا نبسطَ أيدينَا إلى محظور، ولا نخطوَ بأقدامنا إلى محجور، وحتى لا تعيَ بطـونُنـا إلا مـا أَحْلَلْـتَ، ولا نَنْطِقَ بألسنتنـا إلا بما مثَّلت، ولا نتكلفَ إلا ما يُدني من ثوابك، ولا نتعـاطى إلا الذي يَقي من عقابك، ثم خلّصْ ذلك كلَّه من رِيـاءِ المرائين، وسمعةِ المُسمِعين، لا نُشركُ فيه أحداً دونَك، ولا نبتغي به مراداً سواك...

اللهم صل على محمد وآل محمد، وقِفْنا فيه على مواقيت الصَّلواتِ الخمسِ بحدودها التي حدَّدت، وفروضِها التي فرضت، ووظائفِها التي وظَّفت وأوقاتِها التي وقَّتَّ، وأنزِلْنا فيها منزلةَ المصيبين لمنازلها، الحافظينَ لأركانِها، المؤدّين لها في أوقاتها، على ما سنَّه عبدُكَ ورسولُكَ صلواتك عليه وآله، في ركوعِها وسجودِها وجميعِ فواضِلِها، على أتمِّ الطَّهورِ وأسبَغِه، وأبْيَنِ الخشوعِ وأبلغِه..

ووفّقنا لأن نصلَ أرحامَنا بالبرِّ والصِّلَة، وأن نتعاهدَ جيرانَنا بالإفضالِ والعَطِيَّة، وأن نخلِّصَ أموالَنا من التَّبِعات، وأن نطهِّرَها بإخراجِ الزكوات، وأن نراجعَ مَن هاجرنا، وأن نُنْصِفَ مَن ظلمنا، وأن نُسالِمَ مَن عادانا، حاشا مَنْ عُودِيَ فيكَ ولك، فإنه العدوُّ الذي لا نُواليه والحزبُ الذي لا نُصافيه، وأن نتقربَ إليك فيه منَ الأعمالِ الزاكيةِ بما تُطهِّرُنا فيهِ من الذنوب، وتَعْصِمُنا فيه مما نستأنفُ من العيوب، حتى لا يوردَ عليك أحدٌ من ملائكتِكَ إلا دونَ ما نوردُ من أبوابِ الطاعةِ لك، وأنواعِ القُربةِ إليك..

اللهم إني أسألك بحق هذا الشهر، وبحق مَن تعبَّدَ لك فيه مِنَ ابتدائه إلى وقتِ فنائه، من مَلَكٍ قرَّبتَه أو نبيٍّ أرسلتَه أو عبدٍ صالحٍ اختصصتَه، أن تصليَ على محمدٍ وآله، وأهِّلنا فيه لما وعدتَ فيهِ أولياءَكَ من كرامتِك، وأوجب لنا فيه ما أوجبتَ لأهلِ المبالغةِ في طاعتك، واجعلنا في نَظْمِ مَن استحقَّ الرفيعَ الأعلى برحمتك..

اللهم صلِّ على محمد وآل محمد، وَجَنِّبْنا الإلحادَ في توحيدك،

والتقصيرَ في تمجيـــدِك، والشكَّ في دينـك، والعمى عـن سبيلك، والإغفالَ لحرمتك، والانخداعَ لعدوِكَ الشيطانِ الرجيم..

اللهم صلِّ على محمد وآله، وإذا كان لك في كلِّ ليلةٍ من ليالي شهرِنا هـذا رقابٌ يعتِقُهـا عفـوُك ويهَبُهـا صَفْحُك، فاجعلْ رقـابَنـا من تلك الرقاب، واجعلنا لشهرِنا من خيرِ أهلٍ وأصحاب..

اللهم صلِّ على محمد وآلـه، وامْحَقْ ذنوبَنا معَ امِّحاقِ هـلالِه، واسلَخْ عنَّا تبعـاتِنا مـعَ انسلاخِ أيامِـه، حتى ينقضيَ عنَّا وقـد صفَّيتَنا فيـه من الخطيئات، وأخلصتَنا فيه من السيئات..

اللهم صلِّ على محمـد وآله، وإن مِلْنـا فيـهِ فعدِّلنـا، وإن زِغْنا فيـهِ فقوِّمنا، وإن اشتملَ علينا عدوُّك الشيطانُ فاستنقِذْنا منه..

اللهم اشْحَنْهُ بِعبـادتِنا إيّـاك، وزيِّن أوقاتَـهُ بطاعتِنـا لك، وأعِنّا في نهارِهِ على صيامـه، وفي ليلِهِ على الصـلاةِ والتضرُّعِ إليكَ والخشوعِ لك والذِّلةِ بين يديك، حتى لا يشهدَ نهارُهُ علينا بغفلةٍ، ولا ليلُهُ بتفريطٍ.

اللهم واجعلنا في سائرِ الشهورِ والأيامِ كذلك ما عمّرتنا..

واجعلنـا من عبـادِك الصـالحينَ الذيـنَ يرثـونَ الفـردَوسَ هم فيهـا خـالـدون، والـذين يُـؤْتـونَ مـا أتـوا وقلـوبُهم وَجِلـةٌ، إنهم إلى ربهم راجعون، ومن الذين يسارعونَ في الخيراتِ وهم لها سابقون..

اللهم صلِّ على محمـــد وآلــه، في كل وقـتٍ وكلِّ أوان، وعلى كلِّ حـال، عـددَ ما صلّيتَ على مَن صلّيـتَ عليه، وأضعـافَ ذلكَ كلِّـهِ بالأضعافِ التي لا يُحصيها غيرُك، إنك فعّالٌ لما تريد..

الحَمْدُ للهِ الّذي هدانا لحمدِه

وجَعَلَنا من أهلِه لنكونَ لإحسانِه من الشاكرين ،

ولِيجزيَنا على ذلكَ جزاءَ المحسنين ،

والحمدُ لله الذي حبانا بدينِه ، واخْتَصَّنا بملّته ،

وسَبَّلَنا في سُبُلِ إحسانِه ، لِنَسْلُكَها بمنِّهِ إلى رضوانِه ،

حمداً يتَقَبَّلُهُ منّا ويرضى به عنّا .

حمد دائم على نعم لا تنقطع

إنها بداية التطلع المنفتح على حمد الله الذي لم يكتشفه الإنسان إلاّ من خلال هداية الله الذي كشف له مواقع الحمد في ذاته سبحانه في مواقع عظمته وآفاق نعمه، بما جهّزه به من وسائل الحمد له في سمعه وبصره وعقله... ووفّقه له ليكون من أهل الحمد الذين يشعرون شعوراً عميقاً بالحاجة إلى معرفة الله في ما توحي به من حركة الجانب الروحي والفكري والعملي في شخصية الإنسان... ليؤدي ذلك إلى اكتشاف إحسانه في وجوده من حيث المبدأ والتفاصيل، ولينتهي به الأمر إلى شكره على ذلك، الذي يعبر عن معنى الإحسان في علاقة العبد بربه من الناحية العملية، مما يستحق عليه الثواب من الله الذي يجزي المحسنين بإحسانه في ما أعدّه لهم من رضوانه.

وينطلق الحمد الذي يختزن معنى الشكر، من جديد، عندما يتطلع هذا الإنسان إلى الدين الذي يضمن له سعادة الدنيا والآخرة مما أنزله الله على رسوله من كتابه في ما اشتمل عليه من عقيدةٍ وشريعةٍ ومفاهيم للحياة ومناهج للعمل وللتفكير... فيحمد الله على ما حباه من ذلك كله، وعلى ما اختصه به من ملّته... وهذا هو الأسلوب التربوي الذي يوحي للإنسان المؤمن بقيمة الدين في عقيدته وشريعته مما يجعله منفتحاً على حمد الله من خلاله، ليكون ذلك أساساً للتفكير به وللاهتمام بحركة المسؤولية فيه، وللإيحاء الحركي بعلاقته بقضية المصير الأبدي، خلافاً للمعروف المألوف لدى الناس من تأكيد العناصر المادية في مسألة الحمد والشكر.

ثم يمتدّ الحمد، ليطل على السبل التي فتحها الله للإنسان ليتحرك في خطوطها فيشعر بقيمتها في عناوين الإحسان الإلهي الذي يقوده إلى التحرك نحو رضوانه وهو

غايـة كل مؤمن في تطلعـاته الـروحية وفي خطواتـه العملية . . . ولا بـد أن يشتمل هذا الحمـد على عمق الإخلاص، وروحيـة الإيمان بالمستـوى الـذي يتقبله الله من عبـاده، ويمنحهم من خلاله درجة الرضى التي تتيح لهم القرب منه في رحاب جنته .

وهكذا نـرى في هذا الفصل عـدة مفردات مهمـة تتصل بالجانب الـروحي والعملي للإنسـان . . . الحمد، الشكر، الإحسـان الإلهي، الإحسان الإنساني، الـدين، الملة، سبل الإحسـان، منّ الله، رضـوانه، حيث يطـوف الإنسـان معها في رحـاب الإيمان، فتنفتح به على كثير من مجالات الفكر والمعرفة .

* * *

«والحمـدُ للهِ الـذي جعلَ من تلكَ السبلِ شهـرَهُ، شهـرَ رمضـان، شهـرَ الصيامِ، وشهـرَ الإسلام، وشهرَ الطَّهـور وشهرَ التمحيص، وشهـرَ القيام، الذي أنزلَ فيهِ القرآنُ هُدىً للناسِ وبيِّناتٍ من الهدى والفرقان» .

شهر رمضان سبيل الله

وإذا كان الله شق للناس سبل الإحسان التي تفتح حياتهم على الخير كله، فإنّ هذه السبل لا تختص بالساحات الممتدة في رحاب المكان، حيث الأرض التي تمتد بالإنسان لتصل به إلى غـاياتـه في ما يـريد أن يصل به إلى مـواقع أغراضـه وحاجـاته، بل تشمل ساحـات الزمن ـ إن صحّ أن يكون للـزمن ساحات ـ حيث ينفتح الإنسـان على كل ما في آنائه من ساعاتـه وأيامه ولياليه وشهوره، لتحتضن حركتـه في أجواء الخير كله، في ما تمتلىء به ساحة الزمن من أفعال الإنسان وأقواله، لتكون حركة الزمن في مسؤوليته طريقه إلى الله كما تكون حركته في المكان طريقه إلى الله في أجواء المسؤولية الشرعية .

وهكذا كان شهر رمضان سبيل الله ا لذي أراد للإنسان أن يبدأ رحلته إليه في ما أثاره فيه من أجـواء، أو شرّع فيه من شرائع، أو حـرّك فيه من أوضاع، وقـد منحه الله شرف الانتماء إليه، ليعيش الناس الشعور بالمضمـون الروحي الذي يجعل الزمن إلهيّاً يحمل في داخله سموّ المعنى الإلهي في مـا يختزنه من رحمة وعافية ومغفـرة ولطف ورضوان، وفي ما يمكن للعباد أن يحصلوا منه على المزيد من ذلك كله . . .

وليس معنى ذلك الاختصاص بالانتهاء، أنّ الشهور الأخرى تفقد هذه الصفة في طبيعتها الزمنية وفي الألطاف الإلهية المحيطة بها، لأنّ الزمن كله خلق الله الذي جعله مفتوحاً على الحياة كلها وعلى الإنسان كله من أجل أن ينال فيه رضاه من خلال حركته في مواقع طاعته في ما كلفه به من الأعمال التي تصل به إلى مواقع القرب منه . . . لأن المسؤولية لا تختص بزمن معينٍ، ففي كل لحظةٍ زمنيةٍ، مهما صغرت، تكليفٌ شرعي يتوجه فيه الله للإنسان بأن يقف فيه عند حدوده، ولكن معنى هذا الاختصاص ـ في ما يبدو ـ هو الانفتاح الكبير لله فيه على عباده بفيوضات رحمته، بما لم يجعله الله لزمن آخر في ما هي القيمة، وفي ما هو المستوى، في الكمية والنوعية . . . وهذا هو ما تعبر عنه الكلمات المأثورة عن رسول الله محمد (ص) في ما روي عنه من خطبته التي استقبل بها شهر رمضان، في آخر جمعة من شعبان فقد جاء فيها:

«أيها الناس، قد أقبلَ عليكم شهرُ الله بالرحمةِ والبركةِ والمغفرة، شهرٌ هو عند الله أفضلُ الشهور، وأيامُه أفضلُ الأيام، ولياليهِ أفضلُ الليالي، وساعاتُه أفضلُ الساعات، قد دُعيتم فيه إلى ضيافةِ الله، وجُعِلْتُم فيهِ من أهلِ كرامةِ الله، أنفاسُكم فيه تسبيح، ونومُكم فيه عبادة، وعملُكم فيه مقبول، ودعاؤكم فيه مُستجاب، فاسألوا الله بنيَّاتٍ صادقةٍ وقلوبٍ طاهرة، أن يوفِّقَكُم لصيامِهِ وتلاوةِ كتابه، فإن الشقيَّ من حُرِمَ غفرانَ اللهِ في هذا الشهرِ العظيم».

فنحن نلاحظ في هذه الكلمات احتضان الله للإنسان برحمته وبركته ومغفرته في هذا الشهر، فقد حوّل فيه نومه إلى عبادة، وأنفاسه إلى تسبيح، وتقبّل فيه عمله، واستجاب فيه دعاءه بالدرجة التي لم يمنحها له في أيّ شهر آخر.

إنه الإحساس الإنساني الروحي الحميم بالجو الرمضاني الذي يدخل إليه الإنسان، ضيفاً مكرّماً يتغذى بالرحمة والبركة والمغفرة في أجواء العطف واللطف والحنان بشكل مميز حميم . . . حيث يعيش الإحساس بإنسانيته المنطلقة من روح الله عندما نفخ فيه الروح فأعطاه شيئاً من سموّها الذي يتصل بالله وينفتح عليه في محبةٍ واحتضان، حتى يحس في هذا الاندماج الروحي بالعلاقة التي ينسى فيها عبوديته، وهو في قمة الخشوع في ممارسته لها . . .

شهر الصيام

والعنوان الثاني لشهر رمضان هو «شهر الصيام»، الذي أراد الله فيه للإنسان أن يقوم بأداء هذه الفريضة من أجل أن يؤكد له إنسانيته في مواقع السموّ عن الأجواء المادية التي تشده إلى الأسفل، لأن المطلوب فيه أن يرتفع إلى الأعلى، بأن يكون روحاً يحركه الجسد في روحيّته لينال رضى الله، وليعيش القرب من الله حتى يعيش المعاني الكبيرة الصافية المشرقة من خلاله، لأنه كلما اقترب من الله أكثر، في أجواء شفافية الروح وطهارة الجسد، اقترب من الانفتاح على المسؤولية الكبيرة التي تدعوه إلى أن يحمل في وعيه معنى الخلافة عن الله في إدارة شؤون الحياة من حوله.

إنّ قضية الصيام هي أن تخفِّف ثقل الضغط الجسدي على مواقع الإرادة في شخصيتك... أن لا تثقل الرغبةُ حركتَك نحو أهدافك... أن لا يسحقك الحرمان الذي تعيشه في بعض ساحات التحدي لتسقط أمامه، لأن إحساسك بالجوع الغذائي أو الجنسي وبالظمأ المحرق للحاجة المخزونة في أعماقك، قد يسقطك أمام الآخرين فتفقد طهرك وتبتعد عن استقامتك، وتموت قضاياك، وتنسحق إنسانيتك.

إنّ قضية الصيام، هي أن تكون إنسان الله، بدلاً من أن تكون إنسان الشيطان... أن تعرف كيف تعيش سكينة الروح وطمأنينة القلب، بدلاً من أن تحترق بنار الشهوة... وشعار الأطماع.

إنه أن تشفي روحك حتى تطير إلى الله، وأن يخفّ جسدك حتى يحلّق في آفاق المعنى الكبير الذي يتحمل مسؤولية الحياة كلها، ولعلّ هذا هو الذي يفسر الحديث القدسي: **(الصوم لي وأنا أجزي به)**...

شهر الإسلام

والعنوان الثالث: «شهر الإسلام»؛ وقد فسّر البعض كلمة الإسلام بمعناها اللغوي، أي الطاعة والانقياد لكثرة الطاعات في هذا الشهر... ولكن هناك تفسيراً آخر، وهو دين الإسلام، لكون افتراض صومه من خصائص هذه الأمة، فقد ورد في

الحديث عن الإمام جعفر الصادق (ع) قال: إنّ شهر رمضان لم يفرض الله صيامه على أحد من الأمم قبلنا وقيل له: فقول الله عزّ وجلّ: ﴿**يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم**﴾[1]. قال: إنما الله فرض صيام شهر رمضان على الأنبياء دون الأمم ففضّل هذه الأمة وجعل صيامه فرضاً على رسول الله وعلى أمته. وروي عن النبي محمد (ص) أنه قال: رمضان شهر أمتي، وقيل عن التشبيه في الآية أنه بلحاظ مطلق الصوم.

وقد نلاحظ على ذلك أنّ الظاهر من إضافة الشهر إلى الإسلام أن للشهر علاقة بالإسلام بمجمله، لا بلحاظ فريضةٍ من فرائض الإسلام المفروضة فيه، مما قد يوحي إلينا بأنّ ذلك مرتبطٌ بنزول القرآن فيه الذي يمثل الوجه البارز للإسلام في عقيدته وشريعته، وبالحشد الروحي من الصيام والصلاة والدعاء وتلاوة القرآن، الذي أريد له أن يقوم بدور كبير في إعداد الإنسان المسلم في هذا الشهر للسنة كلها من خلال ما يمكن أن يحققه البرنامج الرمضاني من تعبئةٍ فكريةٍ وروحيةٍ تترك تأثيراتها على حركة الإسلام في الحياة كلها في جميع فصول السنة... الأمر الذي يجعل منه شهر الإسلام الذي يتحرك فيه الإسلام بكل أبعاده، والله العالم.

شهر الطَّهور

والعنوان الرابع «شهر الطهور»، وذلك من خلال وسائل التطهّر الروحي الذي يبلغه الإنسان فيه، في نقاء الروح والفكر والقلب والحركة العملية من خلال الأجواء الطاهرة التي يعيش فيها الإنسان روحية التقوى وحركتها بين يدي الله، فيتخفّف من كل قذارات المعاصي، وأرجاس الانحراف مما يوحي بأن للطهارة موقعاً كبيراً في حسابات الإسلام، بحيث يريد للزمن في حركة الطاعات فيه أن يكون مدخلاً للحصول على مثل هذه الطهارة في حياة الإنسان ليكون الإنسان الطاهر هو الهدف في التخطيط الإسلامي على مستوى التشريع والتطبيق.

---

(١) البقرة؛ ١٨٣.

شهر التمحيص

والعنوان الخامس: «شهر التمحيص»، وهو تخليص الشيء مما فيه من عيب، ومنه قوله تعالى: ﴿وليمحص ما في قلوبكم﴾[1]. وربما أريد منه التطهر والتزكية، وربما أريد منه الابتلاء والاختبار، وقد يكون الثاني مقدمةً للأول. . . وفي ضوء هذا يكون الشهر المبارك مدخلاً للنفاذ إلى داخل الإنسان ليقتلع جذور الفساد فيه، ليحصل على خلاصه الروحي من كل ذلك، أو يكون حركةً في الفكر والمراقبة والمحاسبة، في ما يحركه الإنسان من كل النوازع الذاتية التي قد تطوف به في أجواء متنوعةٍ مما يرهق روحه أو يثقل قلبه أو ينحرف به في سبل الضلال، ليعود الإنسان خفيفاً من تلك الأثقال، متحرراً من كل الأغلال، متوازناً في الخط المستقيم. . . وذلك في تلاوة كتاب الله الذي يجد فيه كل مفردات الحق والخير، وفي الانفتاح على الدعاء الذي يصله بالله من أقرب الطرق، وفي صلاته التي تعرج فيها روحه إلى الله في رحلة الإيمان.

وهكذا يوحي هذا العنوان للشهر المبارك بأن الله لا يريد للإنسان أن يعيش الغفلة عن نفسه، فيترك للنوازع الخبيثة أن تسيطر عليها بل لا بدّ له من أن يلاحقها بالمحاسبة والمجاهدة، بكل الوسائل الممكنة التي تصل بالإنسان إلى إخراج كل المشاعر والأفكار الخبيثة منها.

شهر القيام

والعنوان السادس هو «شهر القيام»؛ والمراد به القيام للصلاة في الليل وللتهجد فيه، في ما سنّه الإسلام في ليالي شهر رمضان من ذلك كله حتى ورد استحباب صلاة ألف ركعة في لياليه زيادة على النوافل المرتبة، بحيث تتوزع على ليالي الشهر في ترتيب معين. . . وهذا هو الذي جعل هذا الشهر مميزاً من هذه الجهة بالطريقة التي يتحول فيها القيام إلى عنوانٍ له. . . ليكون له الطابع العبادي التهجدي الذي يمنح التخطيط الروحي لبناء الشخصية الإسلامية فيه بعداً واسعاً متنوعاً في ما تتمازج فيه العناصر العبادية في الليل والنهار لتحقق النتائج المطلوبة منه في أكثر من موقع.

---

(١) آل عمران؛ ١٥٤.

ونلتقي في نهاية هذا الفصل بالفقرة التي تتحدث عن نزول القرآن فيه ﴿**الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان**﴾[1] ليكون هذا الحديث العظيم الذي انطلقت من خلاله حركة الإسلام الفكرية في خط المنهج والشريعة والمفهوم. . . التي وضع الوحي القرآني قواعدها وأصولها، وحدّد مفرداتها وأوضاعها عنواناً للقيمة الإسلامية لهذا الشهر، في ما يكتسب الزمن من قيمة كبيرة من خلال الأحداث الواقعة فيه. . . وقد أراد الإسلام أن يؤكد ذلك، فدعا إلى تلاوة القرآن بشكل واسع في هذا الشهر حتى جعل تلاوة كتاب الله فيه مساوية لصيامه كما جاء في خطبته المروية عن رسول الله في استقبال شهر رمضان، «**فاسألوا الله بنيات صادقة وقلوب طاهرة أن يوفقكم لصيامه وتلاوة كتابه**».

وإذا كان القرآن قد نزل في هذا الشهر المبارك، فلا بد للناس من أن ينفتحوا عليه من خلال الهدى الذي تتضمنه آياته، ومن خلال البيّنات التي تثبّت للإنسان خطوط الهدى التي تدلُّ على مواقع النجاة، وتعرفه كيف يميّز بين الحق والباطل في ما يتعرّف عليه من الفواصل التي تفصل بينهما، فلا بد أن تكون التلاوة في هذا الاتجاه. ولسنا هنا بصدد البحث في طبيعة نزول القرآن في هذا الشهر من حيث نزول بعضه فيه أو نزوله جملة في ما تحدث به الباحثون، فلذلك مجال آخر.

* * *

«**فأبانَ فضيلتَهُ على سائرِ الشهورِ بما جعلَ له من الحُرُماتِ الموفورةِ والفضائلِ المشهورة، فحرَّم فيه ما أَحلّ في غيرِه إعظاماً، وحجر فيه المطاعمَ والمشاربَ إكراماً، وجعل له وقتاً بيّناً لا يجيزُ جلّ وعزّ أن يُقدَّمَ قبلَهُ ولا يقبلُ أن يُؤخَّرَ عنه. . .**».

ميزة شهر رمضان

وهذه ميزة لشهر رمضان على سائر الشهور، فقد جعل الله له من الحرمات الكاملة

---

(١) البقرة: ١٨٥.

التي توحي بقداسته في ما يلتزمه الناس من حدود الله فيه، ومن الفضائل المشهورة في ما جعل لـه من الخصائص الـروحيـة والعملية ممـا يـوحي فيه بـالخير والفضل الكبير على مستوى النتائج الكبيرة التي يبلغها العاملون فيه في علوّ الدرجة عند الله . . .

وهكذا حـرم الله فيه المآكل والمشارب واللذات التي لم يحرمهـا في غيره كإيحاءٍ بعظمته من خلال ما يستهدفه هذا التحـريم من غايات عظيمة على مستوى مصير الإنسان في الـدنيا والآخـرة، وكمظهر من مظـاهـر الإكرام لـه في ما أراد الله للنـاس أن يتعبّدوا لـه بذلك، ليكـون الالتزام بترك المطـاعم والمشارب عبـادةً يتقرّبـون بها إليه، كما يتقـربون بالعبادة إليه . . . وحدّد له وقتاً معينـاً، لا يتسع للتقديم وللتأخير في المساحات الزمنية الأخرى . . لأن الله أراد للزمن العمليّ أن يخضع للنظام العـام الذي يريده الله للحياة في التـزام الناس، أن تخضع لـه . . . حتى يتعرّف النـاس في عـلامات الـزمن، علامـات الطريق إلى الله . . .

* * *

«ثم فضَّل ليلـةً واحدةً من لياليـه على ليالي ألفِ شهـر وسمّاها ليلـةَ القدرِ تَنَزَّلُ الروحُ فيها بإذنِ ربِّهم من كلِّ أمـر، سلامٌ دائمُ البركةِ حتى طلوعِ الفجرِ على مَن يشاءُ من عبادهِ بما أَحْكَمَ من قضائِه».

وإذا كان الله قد فضّل شهر رمضان على غيره مـن الشهور لحكمةٍ يعلمها في تنظيمه لعلاقة الإنسـان بالزمن، فقد فضّل الله ليلـةً من هذا الشهر على سائر ليـاليه فجعل لها ميـزةً كبيرةً تتصل بـالنظام المنفتح على حيـاة النـاس في التخطيط الإلهي لما يقضي لهم أو يقدّر لحركتهم في الحيـاة في أعمارهم وأرزاقهم وأوضاعهم العامة والخاصـة من حربٍ أو سلمٍ أو خصبٍ أو جـدبٍ، أو موتٍ أو حيـاةٍ، أو أمنٍ أو خوفٍ أو فقـرٍ أو غنى . . . وهكذا كانت هـذه الليلة موضعاً لحركة التقدير الإلهي، ممـا يمكن لنا أن نصطلح عليه ببدايـة السنة الإلهية التي يتحـرك فيها البرنامج التنفيذي للنظـام التقديري لحركـة الحياة والإنسان.

وقد أريد للملائكة وللروح الذي اختلف الرأي في تحديد طبيعته، أن يكون لهم دورٌ في ذلك في مـا أوكلـه الله إليهم مـن المهمّات المتنـوعـة الخفيـة التي لم تُكشف لنـا

تفاصيلها . . . كما أريد التركيز على السلام الذي يحيط بأجواء هذه الليلة، في ما يلقيه الملائكة والروح من السلام على مَن يشاء الله من عباده أو في ما يثيره من أجواء السلام الذي يخيم على القلوب بالطمأنينة والصفاء ليعيش الناس معها تجربة الروح الخالية من العناصر السلبية التي توحي بالعداوة والبغضاء عندما يتفرغون لعبادة الله في دعائهم وابتهالهم وصلاتهم، فيتحول الإنسان من شخصٍ يعيش نوازع الأنانية في ذاته إلى شخصٍ يعيش رحابة الإنسانية في حياته كما يتطلّع إلى آفاق الروح التي تنفتح به على كل الناس من حوله عندما يتحسس موقعه منهم في دائرة العبودية لله . . . ليطلع الفجر عليه، في يوم جديد، من أجل البدء بحياةٍ جديدةٍ خاليةٍ من التخطيط السلبي للعلاقات بين الناس، مليئةٍ بالتخطيط الإيجابي في تلك الدائرة . . . ولينطلق مع الله في قناعةٍ يقينيةٍ بقضاء الله وقدره، وفي رضى نفسيّ يطمئن بأنّ الله لا يريد له إلا الخير في ما قسمه له من الرزق ومن الموقع في الحياة . . . فلا ينفذ إليه الشك في كل ذلك . . . وبهذا تتأكد علاقة المخلوق بخالقه في نطاق الإيمان المنفتح على الثقة المطلقة به، الأمر الذي يتحول إلى عنصر من عناصر الثبات الفكري والروحي البعيد عن أية حالة من حالات الاهتزاز . . .

وهذه هي فائدة الأجواء الروحية التي يستغرق فيها الإنسان المؤمن في ليلة القدر ليستفيد من مضمونها المنفتح على الكون والإنسان .

* * *

«اللهم صلِّ على محمد وآله، وألهمنا معرفةَ فضلِه وإجلالَ حُرمته والتحفظَ مما حظرت فيه، وأعِنّا على صيامه بكفِّ الجوارح واستعمالها بما يرضيك، حتى لا نصغيَ بأسماعنا إلى لغوٍ ولا نسرعَ بأبصارنا إلى لهو، وحتى لا نبسطَ أيدينا إلى محظور، ولا نخطوَ بأقدامنا إلى محجور، وحتى لا تعيَ بطوننا إلا ما أحْلَلْتَ، ولا نَنْطِقَ بألسنتنا إلا بما مثَّلت، ولا نتكلفَ إلا ما يُدني من ثوابك، ولا نتعاطى إلا الذي يَقي من عقابك، ثم خلّصْ ذلك كلَّه من رِياءِ المرائين، وسمعةِ المُسمِعين، لا نُشركُ فيه أحداً دونَك، ولا نبتغي به مراداً سواك . . .» .

بين المعنى المادي للصوم والمعنى الروحي

وهذا حديثٌ عن عمق الترابط بين الصوم بمعناه المادي الشرعي الذي يتمثل في ترك بعض الأشياء الخاصة من الطعام والشراب والجنس وما أشبه ذلك، وبين الصوم بمعناه الروحي الأخلاقي الذي يمتد ليشمل كل المضمون المنفتح على مفهوم التقوى بكل سعته، مما يجعل الوسيلة في الصوم الفقهي مرتبطة بالهدف في الصوم الإسلامي بكل سعة التشريع في دائرته العملية.

فالمطلوب أولاً ـ من وحي هذه الفقرات ـ أن يلهمنا الله معرفة فضله وإجلال حرمته... ولكن... هل هي المعرفة الفكرية والإجلال الاحتفالي أم هي المعرفة بالخط العملي الذي يتحول إلى حركةٍ في بناء الشخصية؟ لأنّ الزمن ليس شيئاً حيّاً ينفذ الإنسان إلى داخله ليتعرف خصائصه الذاتية، بل هو شيءٌ في حركة الوجود التي يمنحها الإنسان معنىً في الشكل والمضمون ليعطيه بعض الملامح الجميلة أو الخبيثة من نشاطه السلبي أو الإيجابي، في ما يأخذ به من وحي الرسالات، أو في ما ينطلق به في وعي الفكرة في الذات، ولذلك فلا معنى للمعرفة إلا من خلال المضمون الإنساني الحركي في الزمن الذي لا بد أن يتعرفه الإنسان في مسؤولية الزمن في ضرورة تجسيده في شيءٍ من ذلك، وعلى ضوء ذلك نفهم أنّ الإجلال ليس شيئاً يتحرك في الطقس التقليدي بل هو شيءٌ يتحرك في عظمة الدور في داخل حركته...

وهكذا ينبغي للإنسان أن يعيش شهر رمضان في الدور، وفي المسؤولية، وفي فترة العمر المسؤول في رحلته إلى الله في داخل هذا الشهر، ليكون دخوله إليه عن وعي يلهمه معناه، ليعرف كيف يحتويه في الدائرة الإسلامية الحيّة المتحركة في كل اتجاه للحياة من حوله.

والمطلوب ثانياً ـ من وحي هذا الدعاء ـ التحرز عن التعدي على حدود الله، في ما حرم الله على عباده تجاوزه، من الأمور التي لا مصلحة فيها للحياة وللإنسان مما أنذر الله عباده بالعقوبة على ممارسته، وهذا هو الذي يلخص كل الخطوط التي يتحرك فيها الإنسان في هذا الشهر في جانبها السلبي الذي يتمثل في المحرمات، وفي جانبها الإيجابي

الذي يتمثل في الواجبات . . . وهذا هو الذي نتابع عناوينه في الفقرات الآتية، التي يرتفع فيها النداء من أعماق القلب المؤمن الخاشع الذي يخشى من السقوط في التجربة تحت تأثير ضغط المادة أو الغريزة أو البيئة أو نحو ذلك مما قد ينحرف بالإنسان عن الخط المستقيم . . . فيبادر إلى طلب المعونة من الله . . . ليتوازن الإنسان في حركته . . . لتنطلق الإرادة من جانب، وتنزل عليه الألطاف الإلهية من جانب آخر.

وهذا ما تمثله هذه الفقرة: «**وأعنّا على صيامه بكف الجوارح عن معاصيك واستعمالها بما يرضيك**» فإنها توحي بأنّ الصوم يأخذ مضمونه الحقيقي في حياة الناس الإيمانية العبادية المنفتحة على الله بالالتزام الحقيقي الذي لا يهتز في مواقع الاهتزاز الفكري والعملي، فلا تنفذ معصية الله إلى أعضاء الإنسان في قوله وفعله، بل تقف مع طاعة الله التي يتحرك فيها الجسد بكل حركاته ليكون الإنسان في ذلك إنسان الله، الذي ينتمي إليه ولا ينتمي إلى الشيطان، وليكون عبد الله الخاضع له في كل أموره . . .

وهذا ما تعبر عنه الفقرات التالية:

«**حتى لا نصغي بأسماعنا إلى لغو**» وهو الكلام الذي لا يعتد به وهو الذي يورد لا عن روية وفكر، فقد يشتمل على ما لا يرضي الله وما لا ينفع الناس أو ما يفسد حياتهم، أو ما يبتعد عن الخط المستقيم في الفكر والمنهج والعمل . . . وهذا هو ما يريد الإسلام للإنسان أن يبتعد عنه ويرتفع بشخصيته عن الأخذ به . . . وقد يكون الإصغاء إليه وسيلةً من وسائل الأنس به والانجذاب إليه، مما قد يترك تأثيراً عميقاً في شخصية الإنسان حيث يتحول إلى شخص يمارس اللغو وينطبع به.

«**ولا نسرع بأبصارنا إلى لهو**» يجتذب العين فيسحرها، ويأخذ القلب فيملكه، ويطبع حياة الإنسان بطابعه ليكون الإنسان اللاّهي البعيد عن الله الذي يستغرق في الصورة الحلوة هنا، واللمسة المغرية هناك، والأوضاع المثيرة في موقع آخر، فيخلد إلى الأرض في زخارفها ومغرياتها وشهواتها، فلا يرتفع إلى آفاق السموّ الروحي الباحثة عن الله ولا ينطلق إلى مواقع المسؤولية المنفتحة على مواقع رضى الله، وبذلك يفقد توازنه، ويبتعد عن إنسانيته، ويتحول إلى شخص عبثي في ما هو العبث اللاهي في الحياة.

«**وحتى لا نبسط أيدينا إلى محظور**» لأنّ الله جعل لليدين دوراً في تحريك حياة الإنسان نحو القضايا التي تمثل حاجاته في بناء جسده في ما يحتاجه من الغذاء والكساء ونحو ذلك، أو التي تمثل حاجاته في بناء روحه، أو في رعاية حياة الناس من حوله في ما أحلّه الله له من ذلك كله. . . ولم يرخص له أن يستعملها في تناول الحرام، أو في إفساد حياة الناس أو حياته وتهديدها أو إرباكها في ما لا يرضى له به. . . وفي ضوء ذلك لا بد للإنسان من أن يفكر بأن لا يحرك يديه في الأمور المحظورة، على جميع المستويات حتى لا تكونا أداتين لمعصية الله، وبالتالي لهلاك الإنسان في مصيره المحتوم في عذاب جهنم من خلال غضب الله. . .

«**ولا نخطو بأقدامنا إلى محجور**» فقد حجر الله علينا، من الوجهة الشرعية، أن نتحرك في الساحات التي تتجمع فيها الأوضاع المنفتحة على الفساد والإجرام والخيانة وغيرها من المعاصي، أو أن نأخذ بالوسائل التي تقودنا إلى ذلك أو ننطلق إلى الأهداف التي لا يحبّها الله لعباده، ولذلك ينبغي للإنسان أن يستغرق في التأمل في خطواته في حركة رجليه، ليحدد الطرق المحلّلة أو المحرمة، وليعرف الغايات التي يبلغها في ما يبني له حياته ومصيره، أو في ما يهدم وجوده ونجاته.

«**وحتى لا تعي بطوننا إلا ما أحللت**» من الطعام والشراب، فقد أحلّ الله للإنسان بعض الطعام والشراب وحرّم بعضاً آخر وأراد له أن لا يجعل بطنه وعاءً إلا للحلال منها مما يصلح أمر جسده أو توازن عقله أو صفاء روحه في ما يؤثر عليه من ذلك كله.

«**ولا تنطق ألسنتنا إلا بما مثلت**» أي بما حدّثت، أو بما أكدت من الحجة مما ينسجم مع الحق ويبتعد عن الباطل، ويلتقي بالصدق، وينفصل عن الكذب، وينفع الناس ولا يضرهم، ويرفع مستواهم، ويقوي وجودهم، ويفتح لهم أبواب الخير ويغلق عنهم أبواب الشر، ويدفع بهم إلى ساحة الحرية ويبعدهم عن ساحة العبودية، ويمنحهم العزة والكرامة. . . فقد أراد الله للإنسان أن يحرّك لسانه بالكلمات الطيبة المنفتحة على مواقع رضى الله في ما فيه مصلحة الإنسان الحقيقية في العمق، وأن يمسكه عن الكلمات الخبيثة المغلقة عن مواقع رضاه، ولذلك، كان لا بد له أن يفكر بالمستوى

العالي من الانضباط الدقيق في الخط الفاصل بين الحرام والحلال، في ما يربي نفسه عليه، أو في ما يسأل الله العون عليه.

«ولا نتكلّف إلاّ ما يدني من ثوابك ولا نتعاطى إلاّ الذي يقي من عقابك» لأنّ الله قد جعل للإنسان أن يبذل جهده في ما يملكه من الطاقة الحركية التي تمثل المعاناة والمشقة في الأعمال التي يقوم بها في المجالات التي تؤدي به إلى السعادة التي ينال بها ثواب الله، وتبتعد به عن الشقاء الذي ينال به عقاب الله... لأنّ المفترض في الجهد الإنساني أن يتحرك في النجاة من الهلاك، وفي الوصول إلى مواقع السلامة.

«ثم خلص ذلك كله من رياء المرائين وسمعة المسمعين لا نشرك فيه أحداً دونك ولا نبتغي به مراداً سواك» فقد أراد الله للإنسان أن يعيش في نطاق التوحيد الخالص الذي يوحي بصفاء العمل في عمق النية الدافعة له، فلا يكون مشوباً بالرياء الذي يمثل الاستغراق الذاتي في الحصول على مدح الناس له، وثقتهم به، ورضاهم عنه، ولا يكون مشدوداً إلى الحصول على السمعة الطيبة لديهم، لأنّ معنى ذلك هو انفتاح العبادة على الناس لا على الله مما يعني الشرك الخفي في ما يراقب به الإنسان الناس إلى جانب الله... في مضمون العبادة الخاضعة لحركة القلب التي تحدد مسار حركة الجسد.

وهكذا نجد في هذا الفصل، أنّ الصوم ليس مجرد حالة ماديةٍ سلبيةٍ في ما هي اللذة الغذائية أو الجنسية، بل هو حالةٌ روحية وعملية على مستوى الالتزام الأخلاقي الشرعي الذي يمثل صوم الجسد عن كل ما حرمه الله، وقد جاء في الحديث المأثور عن الإمام جعفر الصادق (ع): إذا صمت فليصم سمعك وبصرك وشعرك وجلدك، (وعدد شيئاً غير هذا) وقال: لا يكن يوم صومك كيوم فطرك. وفي كلمة أخرى له: إذا صمت فليصم سمعك وبصرك من الحرام والقبيح ودع المراء وأذى الخادم وليكن عليك وقار الصائم ولا تجعل يوم صومك كيوم فطرك.

***

«اللهم صل على محمد وآل محمد، وقِفْنا فيه على مواقيت الصَّلواتِ

الخمس بحدودها التي حدَّدت، وفروضِها التي فرضت، ووظائفِها التي وظَّفت وأوقاتها التي وقَّتَّ، وأنزلْنا فيها منزلةَ المصيبين لمنازلها، الحافظينَ لأركانها، المؤدّين لها في أوقاتها، على ما سنَّه عبدُكَ ورسولُكَ صلواتك عليه وآله، في ركوعِها وسجودِها وجميعِ فواضِلِها، على أتمِّ الطَّهورِ وأسبَغِه، وأبْيَنِ الخشوعِ وأبلغِه..».

أداء الواجبات بشروطها

وهذه جولةٌ ابتهاليةٌ في آفاق الصلوات المفروضة في كل يوم التي تمثل القاعدة التي يرتكز عليها التطلع الروحي إلى آفاق الله والعروج الفكري إلى مواقع رحمته، والانفتاح القلبي على كل ساحات قدسه.. حيث يتحدث الإنسان من خلالها إلى ربه في مناجاته وتسبيحه وتكبيره وحمده وتهليله، يقف بين يديه خاشعاً في قيامه وركوعه وسجوده.. وليعيش في نهاياتها السلام على النبي وعلى جميع عباد الله الصالحين.. لتكون برنامجاً روحياً عملياً متحركاً مع آناء الليل وأطراف النهار، فتتحول إلى حزامٍ روحي يحيط بالإنسان في جميع أوضاعه ليقيه من الانحراف عن الخط المستقيم.

إنه الابتهال الخاشع إلى الله أن يوفّق الإنسان للإخلاص للصلاة بجميع حدودها الزمنية والعملية حتى ترتفع بروحه إلى الله من خلال كل منازلها ومواقعها وفواضلها وطهورها الذي يجمع إلى طهارة الروح طهارة الجسد.. لتنفتح الصلاة المفروضة على الصوم المفروض فتزيده روحانيةً وعبوديةً لله فتقربه إلى خط التقوى الذي هو الهدف الكبير للصوم، كما هو الهدف الكبير لجميع العبادات.

***

«ووفّقنا لأن نصلَ أرحامَنا بالبرِّ والصِّلَة، وأن نتعاهدَ جيرانَنا بالإفضالِ والعَطِيَّة، وأن نخلِّصَ أموالَنا من التَّبِعات، وأن نطهِّرَها بإخراجِ الزكوات، وأن نراجعَ مَن هاجرنا، وأن نُنْصِفَ مَن ظلمنا، وأن نُسالِمَ مَن عادَانا، حاشا مَنْ عُودِيَ فيكَ ولك، فإنه العدوُّ الذي لا نُواليه والحزبُ الذي لا نُصافيه،

وأن نتقربَ إليك فيه منَ الأعمالِ الزاكيةِ بما تُطهِّرُنا فيهِ من الذنوب، وتَعْصِمُنا فيه مما نستأنفُ من العيوب، حتى لا يوردَ عليك أحدٌ من ملائكتِكَ إلا دونَ ما نوردُ من أبوابِ الطاعةِ لك، وأنواعِ القُربةِ إليك. . .».

مضامين إنسانية

وهذا نداء من قلب الحياة لاجتذاب التوفيق الإلهي في حركة المسؤولية في نطاق بعض المواقف المتصلة بالعلاقات الإنسانية وبالمبادرات المالية الخيِّرة، وبالأعمال الزكية التي تفتح للإنسان أبواب الرحمة الإلهية، ليكون هذا الشهر المبارك شهر تصحيح العلاقات على الخط الذي يحبه الله ويرضاه، وتحريك الطاقات في ساحات الإنفاق على الفئات المحرومة أو الجهات الخيِّرة، وتوجيه الأعمال في اتجاه الحصول على غفران الذنوب، وعلى العصمة من العيوب.

وهذا هو الذي يجعله منطلقاً للمضمون الإنساني في حركة المسؤولية في الإنسان، كما هو منطلق في تحريك المضمون الروحي في حركة العبادة في حياته، ليرتفعا به إلى المستوى الأعلى في رضوان الله.

صلة الرحم

«**ووفقنا لأن نصل أرحامنا بالبر والصلة**» والأرحام جزء من الخلايا الاجتماعية التي تتحرك في الواقع الإنساني لتربط علاقاته بالآخرين في دائرة التوازن المسؤول. . فهم أقرب الناس إليه في قرابة الدم، مما يجعل من العاطفة التي تشده إليهم حالةً طبيعية، وهم الأكثر اتصالاً بحياته في ما يمكن أن تصطدم فيه المواقف والمصالح والمشاعر، الأمر الذي قد يخلق لوناً من ألوان التماس اليومي بفعل الاحتكاك الدائم، ويؤدي إلى إثارة المشاكل والتعقيدات في داخل هذا المجتمع الصغير المتشابك الأوضاع والعلاقات. . وهذا هو الذي جعل التخطيط الأخلاقي الإسلامي يمنح العلاقة

بالأرحام وضعاً روحياً يمتص كل النتائج السلبية التي قد تحدث في داخل الوضع المعقّد في شبكة العلاقات، بحيث يفكر الإنسان بـالنتائج الإلهية على مستوى صلة الأرحام في إيجابيات المغفرة والثـواب وطول العمر وسعة الرزق، أو على مستـوى قطيعة الأرحام في سلبيـات الغضب الإلهي والعقـاب الأخـروي، وقصر العمـر وضيق الـرزق فـلا تعـود العلاقة بالأرحـام سلباً أو إيجاباً، مجرد علاقةٍ شخصيةٍ أو عائليـةٍ، في ما هي العلاقات الاجتماعيـة العاديـة، بل تتحول إلى حـالةٍ سلـوكيّةٍ في مـا هو الخط الإلهي الـذي يؤكـد للإنسان المؤمن عـلاقاته بأقربـائه في دائرة المسؤولية المتصلة بنتـائجها بقضية المصير في الدنيـا والآخرة. وفي ضوء ذلك، يمكن حل كثير من التعقيـدات والسيطرة على بعض المشاكل من خلال العنصر الروحي في إخلاص الإنسان لربه بدلاً من العنصر الذاتي في علاقة الإنسان بأرحامه، لتتحرك الإرادة الإيجابية في اتجاه صلة الأرحام بالبر والعطية من موقع الارتباط برضوان الله، لا بنوازع الذات.

وقـد وردت الأحـاديث الكثيرة المنفتحـة على آيـات الله في وصل مـا أمـر الله بـه أن يوصل، من حيث الوصول إلى رضوان الله، وفي قطـع ما أمر الله به أن يوصل من حيث الـوقـوع في موارد غضـب الله، وقد جـاء في خطبـة النبي (ص) التي استقبل بها شهـر رمضان الأمـر بصلة الأرحـام فيه والتأكيـد أن مَن وصل فيه رحمه وصلـه الله برحمتـه يوم يلقاه.

تعهد الجيران

«**وأن نتعاهد جيراننا بالإفضال والعطيّة**» والجيران، كالأرحام في طبيعة العلاقة الوثيقة المتصلة بالحياة اليومية الدائمة في لقاء الجيران بعضهم ببعض، وفي ما يقتضيه ذلك من كثرة السلبيات الناشئـة في المصالح المتشابكة والأوضاع المعقدة، والحسـاسيات الدقيقة والعلاقات المتنـوعة، الأمر الذي لا يمكن السيطـرة عليه بالحلول العـاديّة المرتكزة على الأوضاع المادية في دائرة العلاقات الإنسانية، ولذلك كان التخطيط الأخلاقي الإسلامي ينطلق من التركيـز على حسن الجوار بالإحسـان إلى الجيران بالإفضال والعطيـة، وتحمّل الأذى منهم، وبناء العلاقات بهم على أساس العفو والتسامح طلباً لرضى الله، ليكون

العنصر الروحي الباحث عن مواقع القرب من الله هو الأساس في احتواء كل السلبيات.

وقد نصّ القرآن على الإحسان إلى الجار، قال تعالى: ﴿**واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب مَن كان مختالاً فخوراً**﴾[1].

قيل: معنى «الجار ذي القربى»، القريب ذو النسب. والجار الجنب الذي ليس بينك وبينه قرابة، وقيل: الجار ذو القربى منك بالإسلام والجار الجنب المشرك البعيد في الدين، فقد روي عن النبي (ص) أنه قال: للجيران ثلاثة حقوق؛ حق الجوار وحق القرابة وحق الإسلام، وجار له حقان: حق الجوار وحق الإسلام، وجار له حق الجوار وهو المشرك.

وقد جاء في الحديث عن رسول الله (ص): ما زال جبرئيل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه.

تزكية الأموال

«**وأن نخلص أموالنا من التبعات وأن نطهرها بإخراج الزكوات**» المال مسؤولية في دائرة الملكية التي هي وظيفة فردية واجتماعية شرعية، فقد جعل الله له حدوداً في أسباب الملكية والسلطنة، وفي حركة التصرف وفي طبيعة العلاقات بالآخرين، في ما يتصل بأوضاعهم المالية المتصلة به، وبماله.. ولا بد للإنسان المؤمن الذي يخضع في حياته لأحكام الله من أن يخلّص ماله من التبعات، وهي الحقوق المتعلقة به لله وللناس.

وللزكاة حقٌ متعلقٌ بالمال، في ما افترضه الله على عباده من إخراجها منه بطريقةٍ معينةٍ، وفي حدودٍ محدودةٍ باعتبارها سبيلاً لتطهير المال، كما ورد في قوله تعالى: ﴿**خذ**

---

(١) النساء؛ ٣٦.

من أموالهم صدقةً تطهرهم وتزكيهم بها﴾[1] وهي من الفرائض المؤكدة التي دعت إليها الآيات القرآنية الكثيرة، كما وردت الأحاديث التي تهدد مانع الزكاة بدخول النار.

وهكذا يريد الله للإنسان المؤمن أن يعيش هذا الهم الكبير في مسؤولية المال في تخليصه من كل الحقوق اللازمة له، وفي تطهيره بإخراج الزكاة منه، ليقف عند حدود الله في نطاق العطاء المسؤول الذي يؤكد للإنسان إنسانيته، في انفتاحه على الناس، كما يؤكد له عبوديته التي يتعبد فيها لله.

الدفع بالتي هي أحسن

«**وأن نراجع مَن هاجرنا**» فنبادله في هجرانه لنا انفتاحاً عليه وعودةً إلى صحبته، ورجوعاً إلى مواقع العلاقة الحميمة القديمة به. «**وأن ننصف مَن ظلمنا**» بأن نسير معه في طبيعة المسألة التي تتصل بظلامتنا عنده بالعدل فلا نميل عن حدود الحق ولا نعمل على معاملته بردود الفعل النفسية المليئة بالغيظ وبالحاجة إلى التشفي، وبإثارة الحميّة الذاتية.. وهذا هو الخط الشرعي في زمام المبادرة، فلا نقابل ظلم ظالم لنا بأن نظلمه، بل أن نأخذ منه حقنا من دون زيادة، انطلاقاً من العقل الهادىء المتزن الخاضع للشرع، البعيد عن نوازع الذات المنفعلة الغاضبة.

«**وأن نسالم مَن عادانا**» فنغلّب جانب المسالمة على جانب المحاربة، على أساس المصلحة العامة الحية في ما نأخذ به من أسباب ذلك من أجل أن نفسح في المجال له للتراجع عن عداوته وذلك من خلال التوجيه الإلهي الذي أراد لنا أن يكون عملنا، في نطاق المشاكل الطارئة مع الآخرين، هادفاً إلى تحويل الأعداء إلى أصدقاء وذلك قوله تعالى:

﴿**ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم**﴾[2].

---

(١) التوبة: ١٠٣.

(٢) فصلت: ٣٤.

الموقف الصلب

«. . **حاشا مَنْ عُوديَ فيك ولك، فإنه العدو الذي لا نواليه، والحزب الذي لا نصافيه**» وهذا هو الاستثناء الإسلامي للمسألة الأخلاقية القائمة على أساس تقديم التنازلات الشعورية والعملية لمصلحة تحويل العدو إلى صديق، فإنّ ذلك داخل في نطاق العلاقات الشخصية في المشاكل الخاصة أو العامة المتحركة في الدائرة الاجتماعية. . أمّا في المسائل المتصلة بالموقف الرسالي الذي ينطلق فيه أعداء الرسالة وأعداء الله ليثيروا المشاكل في ساحة الرسالة، وليطلقوا التحديات في مواجهة أولياء الله، من أجل إضعاف الموقف، وهزيمة الموقع، سواء تمثّل وجودهم في جماعات متناثرة، أو في أحزاب منظمة. . أمّا في هذه المسائل فلا بد من الحسم في الموقف لأن المسألة ليست مسألة مشاعر يراد تبريدها أو مشاكل معقدةٍ يُراد حلها، بل المسألة مسألة رسالة يراد حمايتها، ومجتمعٍ يراد تقويته وخطةٍ يراد إسقاطها، ولذلك فلا بد من الموقف الحاسم الذي يراقب العواطف الذاتية والانفعالات النفسية التي قد تجعل الإنسان خاضعاً للمؤثرات السريعة التي قد تفتح القلب لأعداء الله في لحظة ضعف شعوري.

وهذا هو الذي ينبغي للإنسان المسلم أن يستوعبه في وعيه الرسالي العملي، ليجعل عواطفه خاضعةً لحركة رسالته في مسألة السلامة العامة للرسالة من الذين يكيدون لها ويتربصون بها الدوائر مستغلّين بعض نقاط الضعف لدى الطيّبين من أتباعها، فلا مجال للتسامح العاطفي في هذا المجال.

ولكن. . هل يعني ذلك أن يتحرك الرساليون عشوائياً في ردة الفعل السلبية ضدهم ليتحركوا في فوضى انفعاليةٍ، أم أنّ عليهم أن يحرسوا أنفسهم من الانفتاح الروحي أو العاطفي عليهم لئلا يسقطوا أمامهم. . ليتابعوا السعي نحو تركيز الموقف بدقة.

إنّ القضية تتحرك في الخيار الثاني، لأنّ التحرك لا بد أن يخضع للتخطيط الواعي في مصلحة الرسالة، ليكون الأسلوب مدروساً والأجواء متوازنة والحسابات دقيقة، لأنّ أيّ خطأ في الحسابات قد يسيء إلى الموقف كله.

***

«وأن نتقرب إليك من الأعمال الزاكية بما تطهرنا فيه من الذنوب، وتعصمنا فيه مما نستأنف من العيوب، حتى لا يورد عليك أحد من ملائكتك إلا دون ما نورد من أبواب الطاعة لك وأنواع القربة إليك».

العمل دليل الصدق

ثم تأتي الفكرة العامة التي تلاحق الشخصية الإنسانية في طهارتها الروحية، وفي سلامتها الأخلاقية. . فلا بد للإنسان من أن يدخل في برنامج عملي، يختار فيه الأعمال الزاكية التي تتميز بمواقع القرب من الله لتترك تأثيرها الإيجابي في إيجاد حالة روحية تتميز بالقوة العاصمة التي تتطهر فيها الشخصية من ضغط الذنوب عليها، وتبتعد عن العيوب التي تثقل حركة الإنسان عن السير في الاتجاه السليم. . وفي ضوء ذلك نعرف أن مسألة التصحيح السلوكي لا تتحدد بالتوبة الفكرية أو الشعورية، بل لا بد من أن تتمثل بالممارسة العملية المضادّة التي تصدم ضغط الانحراف بقوة الاستقامة، فينطلق العمل في خط الله، فيرتفع منه إلى الله، في تقارير الملائكة، المستوى الذي يقلّ عنه عمل الملائكة من خلال ما نبلغه من الدرجة العالية في مواضع رضاك.

* * *

«اللهم إني أسألك بحق هذا الشهر، وبحق مَن تعبَّدَ لك فيه مِنَ ابتدائه إلى وقتِ فنائه، من مَلَكٍ قرَّبتَه أو نبيٍّ أرسلتَه أو عبدٍ صالح اختصصتَه، أن تصليَ على محمدٍ وآله، وأهِّلنا فيه لما وعدتَ فيهِ أولياءَك من كَرامتِك، وأوجبِ لنا فيه ما أوجبتَ لأهلِ المبالغةِ في طاعتك، واجعلنا في نَظْمِ مَن استحقَّ الرفيعَ الأعلى برحمتك. .».

التطلع إلى مواقع القرب

. . . وإذا كان القلب ينفتح على الخير في هذا الشهر لتتكامل كل عناصر الحق في داخل الشخصية الإنسانية المؤمنة، فإنه يخضع ويرقّ ويبتهل ويرتفع بكل عمق الصوت الإلهي في روحه. . ويتوسل بحق هذا الشهر وبحق كل المتعبدين لله فيه من

الملائكة والأنبياء والصالحين، أن يؤهله فيه لكرامته الإلهية التي تجمع كل الرحمة والرضوان، وأن يوجب له كل الفيوضات والألطاف التي تنساب من عطفه الإلهي على الذين استغرق كل وجدانهم الروحي العملي حتى بلغ الدرجة العليا من طاعته، وأن يمنحه الارتفاع إلى مواقع الذين ارتفعت درجاتهم إلى الرفيع الأعلى من خلال رحمته . .

إنه الابتهال الخاشع الذي لا يتطلع إلى عمله الذي يقدمه بين يديه ليستحق عطاء ربه، بل يتطلع إلى كل مواقع القرب من الله في الزمن الذي منحه الله معنى القداسة في روحانيته، وفي الملائكة والمقربين من الأنبياء والصالحين، ليقدمهم شفعاء بين يدي الله، وذلك في ما جعله الله لهم من الحق، من خلال إخلاصهم وطاعتهم له . . ولكن رحمة الله وراء ذلك، لأن رحمته تمتد إلى كل عباده من دون حاجةٍ إلى شفيع، غير أنه ـ سبحانه ـ يمنح بعض عباده شرف الشفاعة ليكرمهم بذلك، وليشفّعهم في من ارتضاه من خلقه .

* * *

«اللهم صلِّ على محمد وآل محمد، وَجَنِّبنا الإلحادَ في توحيدك، والتقصيرَ في تمجيدِك، والشكَّ في دينك، والعمى عن سبيلك، والإغفالَ لحرمتك، والانخداعَ لعدوِكَ الشيطانِ الرجيم . . ».

الابتهال لمواجهة الانحرافات

وهذه جولة جديدة في أجواء السلبيات العقيدية والعملية التي يمكن أن تحدث للإنسان لتنحرف به عن الخط المستقيم في وعي العقيدة، أو في استقامة العمل، فقد يخضع لشبهة فكرية يهتز فيها يقينه بتوحيد الله، فتميل به نحو خط الشرك، وقد يستسلم لحالة نفسية صعبة تسلب منه طمأنينته وسكينته الروحية المنفتحة على الله . . وقد يفقد إحساسه بعظمة الله فيقصر في تمجيده في ما هو الذكر لله بصفاته وأسمائه الحسنى وآلائه العليا فيبتعد بذلك عن مواقع الإخلاص له . . وقد تطوف بالقلب ظلالٌ من الشك في دين الله وهو الإسلام، من خلال ما يداخله من الأحاسيس

والانفعالات، وقد يـزول إشراق البصيرة في وجدانه ليتحول إلى ظلمـة تعميه عن تلمّس السبيل السـويّ الـذي يؤدي بـه إلى الله في مـواقع رضـوانـه، وقد يغفل حـرمـة الله من حسابـه، فيسيء إلى سموّ قـدسه، وعظمة جـلاله فيتصرف في أفعـاله وأقـواله تصرّف المتمرد الجاهـل، وينتهك حرمـة ربه في ذلك كلـه، وقد ينخـدع بالشيطان الـرجيم في أمانيّـه وغروره وتزيينه وتثبيطـه وتهاويله، فيمتد في طـريقه إلى غاياتـه الخبيثة، ويلتقي بمعصية الله في أوضاعـه، فيسقط في هاوية الهلاك. . وهنا تنطلق الابتهـالات الروحية في نداء خـاشع يستعطف الله أن يجنّبه ذلك كلـه، لتسلم روحه من كل التهـاويل التي تبتعد بها عن صفاء العقيدة واستقامة الطريق.

* * *

«اللهم صلِّ على محمد وآله، وإذا كان لك في كلِّ ليلةٍ من ليالي شهرِنا هذا رقـابٌ يعتِقُها عفـوُك ويهَبُهـا صَفْحُك، فاجعلْ رقـابَنـا من تلك الرقـاب، واجعلنا لشهرِنا من خيرِ أهلٍ وأصحاب. . ».

إنها دعـوات العباد الـذين يشعرون بثقل الخطـايـا على رقابهم حتى كأنّ النـار تطل عليهم لتملكها، كما يملك صاحب الحق مورد حقه، فيتعلقون بوعد الله لهم بأن يعتق في هذا الشهر رقاباً خاطئة من النار، ويبتهلون إليه أن يجعل رقـابهم من تلك الرقاب، وأن يوثّق صلتهم بهذا الشهر كما لو كانوا من أهله وأصحابه في نتائج الخير والمغفرة التي خصّ الله بها أيامه ولياليه.

* * *

«اللهم صلِّ على محمد وآلـه، وامْحَقْ ذنوبَنا معَ امِّحاقِ هلالِـه، واسلَخْ عنَّا تبعاتِنا معَ انسـلاخ أيامِه، حتى ينقضيَ عنَّا وقد صفّيتَنـا فيه من الخطيئات، وأخلصتَنا فيه من السيئات. . .

اللهم صلِّ على محمد وآله، وإن مِلْنـا فيهِ فعدِّلنا، وإن زِغْنا فيـهِ فقوِّمنا، وإن اشتملَ علينا عدوُّك الشيطانُ فاستنقِذْنا منه. . ».

قلق المصير

إنه استيحاء الكلمة في عنوان الزمن، للكلمة في مسؤولية العمل فسينمحق هلاله، ويذهب وجهه ونوره للناظرين. . . عندما يغيب في قلب الظلام فهل يمحق الله ذنوبنا، آنذاك، فلا يبقى لنا ذنب في أفق مصيرنا في الحياة. . وستنسلخ أيامه من دائرة الوجود لتفسح في المجال لأيام أخرى في شهر آخر، فهل تنسلخ معه النتائج السلبية لأعمالنا السيّئة، في ما ينتظرنا من عقوبة فلا نتحمل مسؤوليتها غداً، بين يدي الله. . لنعيش صفاء الشخصية فلا تعكرها الخطايا، ولا تشوّهها السيّئات؟.

إنه قلق المصير الذي يشغل فكر الإنسان المؤمن في ما يستقبله في الآخرة.

ثم يخشى هذا الإنسان أن تتجمع العناصر القلقة لتميل به عن الحق أو لتنحرف به عن خط الاستقامة، فيطلب من ربه أن يعدّله إذا مال، وأن يقوّمه إذا زاغ عن الخط. . وإذا ذكر الشيطان الذي هو عدوّ الله وعدوّ الإنسان، وخاف منه على نفسه عندما يشتمل على كيانه في ما يمكن أن يسيطر عليه بغروره وخداعه، فإنه يبتهل إلى الله أن يستنقذه منه، لأنه ـ وحده ـ المهيمن على كل شيء.

إنه الإنسان الباحث عن السلامة في المصير، والاستقامة في الخط، والبعد عن الانحراف، والخلاص من الذنوب. . المؤمل بالله في ذلك كله.

* * *

«اللهم اشْحَنْهُ بعِبادتِنا إيّاك، وزيِّن أوقاتَهُ بطاعتِنا لك، وأعِنّا في نهارِهِ على صيامه، وفي ليلِهِ على الصلاةِ والتضرُّعِ إليكَ والخشوعِ لك والذِّلةِ بين يديك، حتى لا يشهدَ نهارُهُ علينا بغفلة، ولا ليلُهُ بتفريط.

اللهم واجعلنا في سائرِ الشهورِ والأيامِ كذلك ما عمّرتنا. .».

الزمن شاهد حي

. . ويعود الإنسان المؤمن إلى نفسه، وإلى هذا الشهر الذي جعله الله فرصةً له

للتعبئة الروحية المنطلقة من خلال الإقبال على الله والانفتاح على عبادته . . ولهذا فإنه يبتهل إلى الله ويستعين به على أن يجعله مشحوناً بعبادته إياه، فلا يخلو وقت فيه من أوضاع العبادة الخاشعة، وأن يزيّن أوقاته بطاعته له، في كل ما أمر به أو نهى عنه، فإنّ الطاعة هي التي تمنح الزمن إشراقه وحسنه وزينته، في المعنى العميق لهذه الكلمات . . وأن يعينه على صيامه في النهار وقيامه في الليل، باعتبار أنّ ذلك هو مظهر الطاعة، وعنوان العبادة، ولا سيما الصلاة التي تمثل العبادة المتحركة المتنوعة في شكلها ومضمونها، وروحها المتمثل في الخشوع والخضوع والذلة بين يدي الله . . وبذلك يكون الزمن هو الشاهد الحي الذي يشهد له أمام الله بأنه لم يغفل في نهاره، ولم يفرط في ليله، بل قام بواجبه كما يريد الله له في ذلك كله .

وليست المسألة مسألة الشهر في خصوصيته، بل المسألة مسألة الزمن كله، في امتداد العمر، في ما يشاء الله له من الامتداد في مدى الحياة .

إنها الرغبة العميقة في الانفتاح على الله بعبادته وبطاعته ليكون الإنسان بذلك قريباً إلى الله مرضياً عنده، في كل عمره .

* * *

«واجعلنا من عبادِك الصالحينَ الذينَ يرثونَ الفردَوسَ هم فيها خالدون، والذين يُؤْتونَ ما أتوا وقلوبُهم وَجِلةٌ، إنهم إلى ربهم راجعون، ومن الذين يسارعونَ في الخيراتِ وهم لها سابقون . . » .

الشوق إلى الجنة

وأخيراً . . يفكر هذا الإنسان، بأن ينضم إلى عباد الله الصالحين فيطلب من الله أن يجعله منهم . . لأنهم يرثون الفردوس هم فيها خالدون . . فيتقلبون في نعيم الجنة في رضوان الله . . لأنهم كانوا يمارسون أعمالهم في قلق روحيٍّ عميق، ووجل نفسيٍّ كبير، فهم يفكرون برجوعهم إلى الله، ووقوفهم بين يديه، ويخافون أن لا تكون أعمالهم مقبولة

عنـده، ولأنهم كانـوا يسارعـون في الخيرات بعـد أن علموا أنّ الله ينـال المسارعين فيهـا والسابقين لها برحمته ورضوانه.

إنـه شوق الإنسـان إلى أن يكون مـن المجتمع الصالح المنفتح على الله، الـواصل إلى جنة الله من خلال عمله وصلاحه.

***

«اللهم صلِّ على محمـد وآلـه، في كـل وقتٍ وكلِّ أوانٍ، وعلى كلِّ حـال، عددَ ما صلّيتَ على مَن صلّيتَ عليه، وأضعافَ ذلكَ كلِّهِ بالأضعافِ التي لا يُحصيها غيرُك، إنك فعّالٌ لما تريد..».

الوفاء للنبي

.. ويبقى للنبي محمـد (ص) دوره الكبير في وعي المؤمنين الـذين يشعرون بفضلـه على الناس كلهم وعلى الحياة كلها، لأنه قـد أدى رسالة الله خير أداء وجاهد في سبيلها خير جهاد.. الأمـر الذي يفـرض عليهم أن يعبّروا عن إخلاصهـم له، وارتباطهـم به واعترافهم بجميلـه، وذلك بالطـريقة التـي علّمهم الله إياهـا، وهي الصلاة عليـه.. ليحركوها في كل وقت وفي كل أوان وعلى كـل حال بكل الأعداد التي يمكن للصلاة أن تنطلق بها، فيمن صلّى الله عليه من رسله وعباده، وفي أكثـر من ذلك بالأضعاف التي لا يحصيها غيره.. وهكذا يدخل الإنسان المسلم شهـر رمضان بوعي ويحضنه بمحبة، ويتحرك معه بمعرفة، وينفتح على واجباته بإخلاص.

دعاء الافتتاح

اللهم إنِّي أَفتتِحُ الثَّنَاءَ بِحَمْدِك، وأنتَ مُسدِّدٌ لِلصَّوابِ بمَنِّك، وأيقنتُ انَّك أنتَ أرحَمُ الرَّاحِمينَ في مَوْضِعِ العَفْوِ والرَّحْمَة، وأَشدُّ المُعاقِبينَ في مَوْضِعِ النَّكالِ والنِّقْمَة، وأَعْظَمُ المُتَجَبِّرينَ في مَوْضِعِ الكبرياءِ والعَظَمَة.

اللَّهُمَ أَذِنْتَ لِي في دُعَائِكَ ومَسْأَلتِكَ، فَاسْمَعْ يا سَميعُ مِدْحَتي، وأَجِبْ يا رَحيمُ دَعْوَتي، وأَقِلْ يَا غَفورُ عَثْرَتي.

فَكَم يا إلهي من كُرْبَةٍ قد فرَّجْتَها وهُموم قد كشفتَها، وعَثْرَةٍ قد أَقَلتَها، ورحمةٍ قد نشرتَها، وحلْقَةِ بلاءٍ قد فككْتَها.

الحمدُ للهِ الذي لم يتَّخِذْ صاحبةً ولا ولداً، ولم يكُنْ لهُ شريكٌ في المُلْكِ، ولمْ يكنْ لهُ وليٌّ من الذُّلِّ وكبِّرْهُ تكبيراً.

الحمدُ لله بجميعِ محامِدِهِ كُلِّها على جميعِ نِعَمِه كلِّها.

الحمدُ لله الذي لا مضادَّ لهُ في مُلْكِه، ولا مُنازِعَ لهُ في أمْرِه.

الحمدُ لله الذي لا شريكَ لهُ في خَلْقِه، ولا شبيهَ لهُ في عَظَمَتِه.

الحمدُ لله الفَاشي في الخَلْقِ أمْرُهُ وحَمْدُه، الظَّاهِرِ بالكَرَمِ مَجدُه، الباسِطِ بالجُودِ يَدَه، الذي لا تنقُصُ خزائِنُه، ولا تزيدُهُ كَثْرَةُ العَطاءِ إلا جوداً وكَرَماً، إنَّهُ هو العَزيزُ الوَهَّاب.

اللهمَّ إني أسألُكَ قليلاً مِن كثيرٍ مع حاجَةٍ بي إليهِ عَظِيمةٍ، وغِناكَ عنهُ قديمٌ، وهوَ عِندي كثيرٌ، وهوَ عليكَ سهلٌ يسير.

اللهمَّ إنَّ عَفْوَكَ عن ذَنبي، وتَجاوُزَكَ عن خَطيئَتي، وصَفْحَكَ عن ظُلْمي، وسَتْرَكَ على قبيحِ عملي، وحِلْمَكَ عن كثيرِ جُرْمي، عندما

كانَ من خَطَأي وعَمْـدي، أطمَعَني في أنْ أسألَكَ ما لا أستـوجِبُهُ منكَ الذي رزقتَني من رحمتِك، وأرَيتَني من قُدْرَتِك، وعَرَّفتَني من إجابَتِك، فَصِرتُ أدعـوكَ آمِناً، وأسألُكَ مستأنِسـاً، لا خائِفـاً ولا وَجِلاً، مُـدِلاً عليكَ في مـا قصدتُ فيـه إليك، فإن أبْطَأَ عني عَتَبْتُ بجَهلي عليك، ولعلَّ الذي أبطأَ عني هو خيرٌ لي لِعِلْمِكَ بعاقبةِ الأمور.

فلم أرَ مـولىً كـريماً أصبرَ على عبـدٍ لئيم منكَ عليَّ يـا ربِّ، إنّك تَدْعوني فأوَلِّي عنكَ، وتتحبَّبُ إليَّ فاتبغضُّ إليك، وتتودَّدُ إليَّ فلا أقبلُ منك، كـأنّ لي التطـوُّلَ عليك، ثـم لم يمنَعْكَ ذلكَ مـن الـرحمة لي والإحسانِ إليَّ والتفضُّلِ عليَّ بجودِكَ وكرمِك، فارحَمْ عبدَكَ الجاهل، وجُدْ عليه بفضلِ إحسانِك، إنّك جوادٌ كريم.

الحمـدُ لله مـالـكِ الملكِ، مُجري الفُلكِ، مسخِّرِ الـريـاح، فـالقِ الإصباح، ديانِ الدِّين، ربِّ العالمين.

الحمدُ لله على حلمِهِ بعـد علمِه، والحمدُ لله على عفوِهِ بعـد قدرتِه، والحمد لله على طول أناتِهِ في غضبه وهو القادرُ على ما يريد.

الحمدُ لله خـالقِ الخلق، باسطِ الرّزق، فـالقِ الإصباح، ذي الجلالِ والإكـرام، والفضلِ والإنعـام، الـذي بَعُـدَ فـلا يُـرى، وقَـرُبَ فشَهِـدَ النَّجوى، تباركَ وتعالى.

الحمدُ لله الذي ليس لهُ منازعٌ يعـادله، ولا شبيهٌ يشاكله، ولا ظهيرٌ يعاضده، قهرَ بعزّته الأعزّاء، وتواضعَ لعظمتِهِ العظماء، فبلغَ بقدرتِهِ ما يشاء.

الحمدُ لله الذي يجيبني حينَ أناديه، ويسترُ عليَّ كلَّ عورةٍ وأنا أعصيه، ويُعظِّمُ النعمةَ عليَّ فلا أجازيه، فكم من موهبةٍ هنيئةٍ قد أعطاني، وعظيمةٍ مَخُوفةٍ قد كفاني، وبهجةٍ مونقةٍ قد أراني، فأُثني عليهِ حامداً وأذكرهُ مسبِّحا.

الحمدُ لله الذي لا يُهتك حجابه ولا يُغلق بابه، ولا يُردُّ سائِله، ولا يُخيَّبُ آمِله، الحمدُ لله الذي يُؤمنُ الخائفين، وينجِّي الصّادقين، ويَرفعُ المُستَضْعفين، ويَضعُ المُستَكْبِرين، ويُهْلِكُ مُلوكاً، ويَستَخلِفُ آخَرين.

والحمدُ لله قاصمِ الجبَّارين، مُبيرِ الظالمين، مُدركِ الهاربين، نكالِ الظالمين، صريخِ المستصرِخين، موضِعِ حاجاتِ الطالبين، مُعتَمَدِ المؤمنين.

الحمدُ لله الذي من خَشْيَتِهِ ترعُدُ السماءُ وسُكّانُها، وترجفُ الأرضُ وعُمّارُها، وتموجُ البحارُ ومَن يسبحُ في غَمَراتِها.

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنّا لنهتديَ لولا أنْ هدانا الله.

الحمدُ لله الذي يخلقُ ولم يُخلق، ويَرزقُ ولا يُرزق، ويُطعِمُ ولا يُطعَم، ويميتُ الأحياءَ ويُحيي الموتىٰ، وهو حيٌّ لا يموت، بِيَدِهِ الخَير، وهو على كلِّ شيء قدير.

اللهم صلِّ علىٰ محمدٍ عبدِك، ورسولِك، وأمينِك، وصفيِّك،

وحبيبِك، وخيرتِك من خلقـك، وحـافظِ سرِّك، ومُبلِّغِ رســالاتِك، أفضـلَ، وأحسـن، وأجمل، وأكمـل، وأزكـى، وأنمـى، وأطيـب، وأطهـر، وأسنـى، وأكثـرَ مـا صلَّيْتَ وبـاركت، وتـرحَّمتَ وتحنَّنت، وسلَّمتَ على أحـدٍ من عبـادكَ وأنبيـائِكَ ورُسُلِك، وصفْـوَتِك، وأهلِ الكرامةِ عليكَ من خلقِك.

اللهم وصلِّ علىٰ عليٍّ أميرِ المؤمنين، ووصيِّ رسـولِ ربِّ العـالمين، عبـدِك، ووليِّـك، وأخي رسـولِك، وحجَّتِـك على خلقِك، وآيتِك الكبرى، والنَّبَأِ العظيم.

وصلِّ علىٰ الصدّيقةِ الطاهرةِ فاطمةَ الزهراءِ سيدةِ نساءِ العالمين.

وصلِّ علىٰ سبطي الرحمة وإمـامَي الهدى؛ الحسنِ والحسين؛ سيّدي شباب أهل الجنة.

وصلِّ على أئمـــة المسلمين: عليِّ بـنِ الحسين، ومحمَّـــدِ بنِ علي، وجعفـرِ بنِ محمـد، وموسىٰ بنِ جعفـر، وعليِّ بنِ مـوسىٰ، ومحمـدِ بنِ علي، وعليِّ بنِ محمـــد، والحسنِ بـنِ علي، والخلفِ الهادي المهـــدي، حُجَجِكَ على عبادِك، وأمنائِكَ في بلادِك، صلاةً كثيرة دائمة.

اللهم وصلِّ على وليِّ أمـرِكَ القـائمِ المؤمَّل، والعدلِ المنتظَـر، وحُفَّـهُ بملائكتِك المقرّبين، وأيِّدهُ بروحِ القُدُسِ، يا ربَّ العالمين.

اللهم اجعلـهُ الـداعِيَ إلى كتابـك، والقائِمَ بـدينِك، استخلِفْـهُ في الأرضِ كما استخلَفْتَ الذين من قبلِه، مكِّنْ لهُ دينَهُ الذي ارتَضَيْتَهُ له،

أبدِلهُ من بعدِ خوفِه أمناً، يعبدكَ لا يُشرِكُ بكَ شيئا.

اللهم أعِــزَّهُ وأعْــزِزْ بــه، وانصرهُ وانتصِرْ به، وانصُرْهُ نصراً عــزيــزا، وافتَحْ لهُ فتحاً يسيرا، واجعلْ لهُ من لدُنكَ سلطاناً نصيرا.

اللهم أظْهِــرْ بــه دينَك، وسُنَّـــةَ نبيِّك، حتى لا يسْتَخْفِيَ بشيءٍ من الحقِّ مخافةَ أحدٍ من الخلق.

اللهم إنّا نرغبُ إليك في دولــةٍ كريمة تعزُّ بها الإســلامَ وأهلَه، وتُذلُّ بها النفــاقَ وأهلَــه، وتجعلُنــا فيها من الــدُّعــاةِ إلى طــاعَتِك والقــادةِ إلى سبيلِك، وترزُقنا بها كرامةَ الدنيا والآخرة.

اللهم مــا عرّفتنــا من الحــقِّ فحمِّلنــاه، وما قَصُرنـــا عنهُ فبلِّغْنـــاه، اللهم المُمْ به شَعَثَنَـــا، وأشعَبْ به صَــدْعنا، وأرْتُقْ بــه فَتْقنَا، وكثِّــر به قِلَّتَنا، وأعِزَّ به ذِلَّتَنــا، وأَغْنِ به عائِلنا، واقْضِ به عن مَغرمِنا، واجبر به فقرنا، وسُدَّ بِه خَلَّتَنــا، ويَسِّر بــه عُسْرَنــا، وبَيِّض به وجوهنا، وفك به أسرنا، وأنجح به طلبتنا، وأَنجِزْ بــه مواعيدَنــا، وأستجِبْ به دعوتنــا، وأعطِنا بــه سؤْلَنا، وبَلِّغنا بــه من الدنيا والآخــرة آمالنا، واعْطِنا بــه فوق رغبتِنا.

يا خيرَ المســؤولين، وأوسَعَ المُعطين، إشفِ بِهِ صدورَنــا، وأذهِبْ به غيظَ قلوبنا، واهدنا به لما اختُلِفَ فيه من الحقِّ بإذنك، إنك تهدي من تشــاء إلى صراطٍ مستقيم، وانصرنا بــه على عــدوِّك وعــدوِّنا، إلــهَ الحقِّ آمين.

اللهـمَّ إنَّا نشكـــو إليـك فقدَ نبيِّنا صلواتـك عليـه وآلـــه، وغيبةَ وليِّنـا، وكثـرةَ عدوِّنـــا، وقلَّةَ عددِنـــا، وشـدَّةَ الفتنِ بنا، وتظـاهرَ الزمـان علينـا، فصـلِّ على محمد وآل محمد، وأعنَّـا على ذلك كلِّه بفتحٍ منك تعجِّلـه، وضرٍّ تكشفه، ونصرٍ تُعِزُّه، وسلطانِ حقٍّ تظهـرُه، ورحمـةٍ منـك تُجلِّلُناها، وعافيةٍ منك تُلبِسُناها، برحمتك يا أرحم الراحمين.

اللهم إنِّي أَفتَتِحُ الثَّنَاءَ بِحَمْدِك ،

وأنتَ مُسدِّدٌ لِلصَّوابِ بمَنِّك ،

وأيقنتُ انَّك أنتَ أرحَمُ الرَّاحِمينَ في مَوْضِعِ العَفْوِ والرَّحْمَة ،

وأَشدُّ المُعاقِبينَ في مَوْضِعِ النَّكالِ والنِّقْمَة ،

وأَعْظَمُ المُتَجَبِّرينَ في مَوْضِعِ الكبرياءِ والعَظَمَة .

«اللَّهُمَ إنِّي أَفْتَتِحُ الثَّنَاءَ بِحَمْدِكَ».

افتتاح العمل بحمد الله

يستلهم الإنسان في هذا المقطع من الدعاء الفكرة التالية، وهي أن يستهل أقواله وأعماله بالثناء على الله، وأول ثناء على الله تعالى، هو «الحمد لله»، باعتبار أن كلمة «الحمد لله» تختزن كل عناصر العظمة والنعمة في الله. فنحن عندما نحمد الله في مواقع عظمته، ومواقع نعمته، نكون قد أخذنا بالثناء عليه من جميع أطرافه. ولذلك، كان الإفتتاح وحمد الله تعالى، حتى نختزن في النفوس أن لا حمد لأحد إلا من خلال حمده تعالى، فنحن نحمد الناس في ما أعطاهم الله سبحانه وتعالى وفي ما هداهم ورزقهم، ولذلك، لا بُد لنا أن نردد كلمة الحمد، لأننا كلما رددناها أكثر، تعمقنا في تصور علاقتنا بالله في عظمته وفي نعمه، أكثر.

«وأنت مسدِّدٌ لِلصَّوابِ بمنِّك».

الله المسدِّد

يا ربِّ إني أريد أن أتكلم، وربما يقع الزلل في كلامي، لذلك إني ـ يا ربِّ ـ أبدأ دعائي طالباً منك أن تسددني لكي لا أقول إلا صواباً، ولا أتكلم إلا صدقاً.

إجعل كلماتي ـ يا ربِّ ـ تعبر في عمقها عن الحق، وعن الصدق، وعن الصواب، لأني أتكلم معك، وليس طبيعياً أن يتحرك الخطأ في كلامي وأنا أنفتح عليك، وأنت مسدِّدٌ فسددني للصواب، فإذا أراد فكري أن ينحرف قوِّمه، وإذا أراد كلامي أن يزلَّ ثبّته، يا رب، على الصَّواب.

«وأَيْقَنْتُ أَنَّكَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فِي مَوْضِعِ العَفْوِ والرَّحْمة».

الله الرحيم

وأنا، يا ربِّ، عندما أدعوك وأتحدث إليك، أعيش اليقين، والطمأنينة، والسكينة، والعقيدة، في نفسي، بصفاتك المتصلة بحياتي. فليس هناك أحد أرحم منك في موضع العفو والرحمة. أنت ترحم من يكون أهلاً للرحمة. وترحم عندما تكون المصلحة في الرحمة. وأنت تعفو من موقع رحمتك لمن كان أهلاً للعفو، ولمن كانت هناك مصلحة وحكمة في العفو عنه، أنت يا ربّ لا ترحم كيفما كان، لأنك الحكيم الذي يضع الشيء في موضعه.

«وأَشَدُّ المُعاقِبِينَ فِي مَوْضِعِ النَّكَالِ والنِّقْمة».

الله شديد العقاب

وأنت عندما تعاقب، وعندما تعذِّب، فأنت لا تعاقب من موقع انفعال.. تعاليت يا ربِّ عن صفات المخلوقين. وأنت لا تعذب على أساس التنفيس عن عقدةٍ.. تعاليت يا ربِّ عن ذلك علواً كبيراً. ولكنك تعرف مصالح عبادك.. فأنت تعاقب من كان أهلاً للعقاب، ومن كانت الحكمة في عقابه، لأنك الحكيم الذي يضع الشيء في مواضعه.

«وأعظمُ المُتَجبِّرِينَ فِي مَوْضِعِ الكِبْرِيَاءِ والعَظَمة».

الله الجبار

أنت الجبار المتجبِّر، الكبير المتكبر، كل الذين يتجبرون ويتكبرون لا حقَّ لهم في ذلك، لأنهم الأذلون الأحقرون الذين إذا ملكوا شيئاً من عناصر العظمة فأنت الذي أعطيتهم ذلك. أما أنت يا رب، فأنت المتكبر من خلال موقع الكبر في ذاتك، لأنك الكبير، وأنت المتجبر من خلال أن الجبروت لك، لأنك المهيمن على الأمر كله.

ومن هنا، كانت صفة المتكبر ذمّاً للمخلوق، ولكنها مدحٌ للخالق، وصفة الجبار المتجبر لعنةً للمخلوق، ولكنها تكريم للخالق، لأن الله وحده هو مالك الجبروت، وهو الذي له الكبرياء، ولا كبرياء ولا جبروت لأحد سواه. ولذلك، فهو أعظم المتجبرين الذين يتجبرون في غير موضع الجبروت، ويتكبرون في غير موقع الكبرياء، وحدك، يا ربّي، تتجبر وتتكبر في موضع الكبرياء والعظمة، التي هي سر ذاتك، والتي هي سر عظمتك.

***

«اللَّهُمَ أَذِنْتَ لِي فِي دُعَائِكَ ومَسْأَلتِكَ، فَاسْمَعْ يا سَميعُ مِدْحَتي، وأَجِبْ يا رَحيمُ دَعْوَتي، وَأَقِلْ يَا غَفورُ عَثْرَتي».

«اللهم أذنت لي في دعائك ومسألتك».

الإنسان يريد أن يأخذ إذناً عندما يريد أن يتكلم مع الله، سبحانه وتعالى، والله قد أعطاه الإذن: ﴿**وإذا سألك عبادي عني فإني قريبٌ أجيب دعوة الداعِ إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلَّهم يرشدون**﴾[1]. «**اللهم أذنت لي في دعائك ومسألتك**»، فأنا عندما أدعوك يا رب؛ أدعوك من موقع أنك أعطيتني الإذن بأن أدعوك.

«فاسْمعْ يا سميعُ مِدْحَتي».

يا رب إنني أدعوك، وربما يطوف الشيطان فيحجب عنك دعائي، لأن دعائي قد تحيط به الكثير من التهاويل، والأفكار، والهواجس، لذلك، أريد أن لا يكون بيني وبينك حائل، حتى يخرج دعائي من القلب ليصلَ إليك.

أنت الذي يسمع من فوق عرشه ما تحت سبع أرضين، ويسمع وساوس الصدور ولا يصم سمعه الصوت، فاسمع مدحتي وأنا أتحدث عن كل صفاتك الحسنى التي تمثل مدحك والثناء عليك.

---

(١) البقرة؛ ١٨٦.

«وأجِبْ يا رَحيمُ دَعْوَتي».

إنني أدعوك ولي طلبات، ولي حاجات، ولي آلام وتطلعات. أجب؛ فقد وعدتني، يا رب، عندما قلت ﴿ادعوني استجب لكم﴾[1].

«وأقل يا غفور عثرتي».

الله مقيل العثرات

إنَّ طريقي، يا رب، مليئة بالحفر، ومليئة بالحواجز وقد أعثر بهذه الحفرة فأقع، أو أعثر بهذا الحاجز فأقع، إنني أريدك، يا رب، أن تقيلني عثرتي. . أن تنتشلني من عثرتي إذا سقطت. . ألا تبقيني ساقطاً في الحفرات بل تنتشلني منها. والعثرة، هنا، كناية عن الذنب، عن الخطيئة، عن السيئة، بمعنى إغفر لي ذنوبي وسيئاتي.

وأنا، يا ربِّ، عندما أدعوك، فإنما أدعوك على أساس التجارب، وان لي في المستقبل هموماً أحتاج أن تفرجها عني، وكربات أحتاج أن تكشفها عني، ومشاكل أريد أن تحلها. وأنا، عندما أدعوك، لا أفكربأنك ستستجيب لي من موقع الإيمان فقط. وأنا ـ الآن ـ أدعوك للحاضر، والمستقبل، وأنا أتطلع للماضي كيف كان صنيعك بي.

***

«فكَم يا إلهي من كُرْبَةٍ قد فرَّجْتَها وهُمومٍ قد كشفتَها، وعَثْرَةً قد أقَلتَها، ورحمةٍ قد نشرتَها، وحلْقَةِ بلاءٍ قد فككتَها».

مرَّت عليَّ في حياتي الطويلة أو القصيرة كُربات وهُموم، وكُنت أعيش ضغطها في نفسي، وإذا بك، يا ربِّ، تفتح لي باب الفرج، فأتنفس من خلاله، وإذا بك تبدد الغيوم المكفهرة الملبدة في سماء حياتي، وإذا بك تمد يدك العطوفة من وراء الغيب لتنتشلني من حفرات الذنوب والعثرات والأخطاء. وكل ذلك، يا رب، بفضل رحمتك التي نشرتها لي، وأحطتني بها في كل ما وضعته لي من رزق وعافية، كانت بمثابة تحطيم

(١) غافر؛ ٦٠.

لحلقة البلاء المضروبة حول عُنُق حياتي. عندما يطبق البلاء على أحدٍ منا فليكن لسان حاله، كلسان حال الإمام (عج)، ولنردد مخاطبين المولى العزيز القدير قائلين له: يا رب، قد لاحظنا في حياتنا السابقة أنك عمدت إلى حلقة البلاء التي اطبقت علينا، ولم تدع لنا مجالاً للفكاك منها، فككتها وأصبحنا بذلك أحراراً. لذلك، نحن عندما ندعوك، يا رب، فإنما ندعوك على أساس الإيمان بك كرب رحيم، على أساس التجربة لأن الماضي الذي عشناه في رعايتك، كان ماضياً يغرينا بأن يكون الحاضر، والمستقبل، من سنخه وامتداداً له، على طريقة قول الشاعر:

الله عودَّك الجميل فقس على ما قد مضى

لا نقل كفى! انتهت حياتنا . . هذه القضية أقولها لكل الشباب، من الذكور ومن الإناث، الذين تُطبق عليهم ضغوط الحياة، وتثقل عليهم أثقال الحياة، ولا تجربة لهم تغريهم بالشعور بالأمل الكبير في المستقبل، فيسقطون تحت تأثير اليأس، مرددين كفى، لقد أقفلَ الباب من جميع الجهات!!

ألا يوجد بعض الناس يقولون ذلك؟ هذا الذي يلجأ للإنتحار، وللضياع، ولليأس وما إلى ذلك، نتيجة قلة التجربة.

عظمة الإيمان هي أن الإنسان لا يمكن أن ييأس وهو مؤمن أبداً.

﴿يا بنيَّ اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون﴾[1].

معنى أن يكون الإنسان مؤمناً أن يكون الأمل كبيراً في قلبه وفي حياته، فلا ييأس ولا يعيش لحظة كفر في حالة اليأس. هذه طبيعة الإيمان.

إن استخدام الداعي صيغة الماضي في دعائه كما في قوله . . «قد فرجتها . . كشفتها . . أقلتها . . نشرتها . . فككتها . . » تستبطن استحضاراً لنعم الله تعالى السابقة في محاولة للإتكاء عليها من أجل مواجهة الحاضر والمستقبل. بكلام آخر، إن لسان

(١) يوسف؛ ٨٧.

حال الداعي يحاول أن يقول لنا، إن الله سبحانه وتعالى الذي لم يتخلَّ عنّا في السابق، لن يتخلى عنّا، بالتأكيد، اليوم، ولا في الغد، فإن رحمة الله تسع كل الأزمان والأوقات. وهذه الفكرة من شأنها أن تحافظ على شعلة الأمل متقدة في قلب الإنسان، بحيث لا يهزمه اليأس أو القنوط، ولا تهزمه العقبات والصعوبات مهما بلغت، ولا تقوى عليه الشدائد ولا المحن مهما كان حجمها أو نوعها. فهو سيبقى مسلحاً بالأمل الإلهي، الذي يحثه على إيجاد المخارج والمنافذ مستعيناً بالله الرحمن الرحيم.

***

«الحمدُ للهِ الذي لم يتَّخِذْ صاحبةً ولا ولداً، ولم يكُنْ لهُ شريكٌ في المُلْكِ، ولمْ يكنْ لهُ وليٌّ من الذُّلِّ وكبِّرْهُ تكبيراً».

لا شريك لله في خلقه

في هذه الفقرة يُراد أن يعيش الإنسان التصور المتحرك لمسألة توحيد الله سبحانه وتعالى، أمام ما كان يعيشه الناس في زمان الدعوة من بعض الأفكار، فالقرآن حدثنا أنَّ هناك من كان يجعل لله البنين، أو يجعل لله البنات، وهناك من كان يرى أن المسيح ابن الله، بالمعنى المادي للولدية، وأن عزير ابن الله بالمعنى المادي للولدية، وكان المشركون الجاهليون من العرب يقولون: إن الملائكة بنات الله، وكان التصور الغالب في هذه المسألة هو تصور الولدية، بالمعنى الذي يفهمه الناس لعلاقة الولد بوالده، في ما يوحي به من وجود زوجة ليكون الولد نتيجة طبيعية للعلاقة الزوجية.

من هنا تحدَّثَ هذا الدعاء انطلاقاً من الحديث القرآني، أنه لم يتخذ صاحبةً، باعتبار أن الولدية بالمفهوم الذي كانوا يتصورونه تفرض أن يكون هناك صاحبة، بمعنى زوجة، وإلا ليس هناك ما يوحي بأنهم كانوا يتحدثون عن زوجة لله.

نلاحظ مثلاً في الطقس المسيحي، في ما نستمع إليه من طقوسهم، عندما يتحدثون عن مريم (ع) يقولون: يا والدة الله، أو يا والدة الإله، باعتبار أنهم يعتبرون عيسى ابناً لله، ومفكرو المسيحية ـ في هذه الأيام ـ يقولون إننا لا نؤمن بالولدية بمعنى التجسيد أي

بالشكل العضوي كما هي الولدية الطبيعية، ويحاولون أن يفلسفوها بطريقة تجعل منها حالة فكرية، فهم يقولون: أن يكون عيسى إبناً لله بمعنى أن يكون تجلياً لله، مثل الفكرة بالنسبة للفكر، ومثل القرآن بالنسبة لله، ومثل الكلام بالنسبة للمتكلم، في تأويلات معينة.

وفي الحوار الذي دار بيني وبين أحد العلماء المسيحيين، وهو المطران جورج خضر في جريدة النهار، كان يقول: نحن لا نقول بالتثليث المادي، ولا نقول بالإبنية المادية لعيسى. هذه فكرة كانت موجودة عند بعض المسيحيين في أيام القرآن، ونحن نلتقي مع القرآن في رفض الابنية بالمعنى الجسدي، والمعنى العضوي كما هو انتماء الإبن إلى الأب. ولكننا نلاحظ بالمفهوم الطقسي عندهم أنهم يعبِّرون عن السيدة مريم (ع) بأنها والدة الإله، ويقول بعض مفكري المسيحيين: إن هذه الأمور لا بُد أن نؤمن بها، وإن لم نتعقلها، لأن الإيمان فوق العقل.

ونحن لا نريد أن ندخل في هذا النقاش، ولكننا أحببنا أن نضعكم في الجو، فالإيمان الإسلامي يرتكز على هذه النقطة، وهي أنَّ الله، سبحانه وتعالى، لا تربطه بعباده أية رابطة إلا رابطة الخالق بالمخلوق. كل العباد مخلوقون لله، وليس هناك أحد أقرب إليه من أحد، إلا من خلال التقوى، ومن خلال الإيمان، ومن خلال القرب الروحي، ولهذا قرّب الأنبياء والأولياء، قربهم إليه من خلال معرفتهم، ومن خلال إيمانهم، ومن خلال جهادهم، ومن خلال طاعتهم، وحتى الملائكة فإن الصفة التي تربطهم بالله وتجعلهم قريبين إليه هي انهم **﴿لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾**[1].

ونحن إذا استطعنا أن نعيش هذه الصفة وهي أن لا نعصي الله في ما يأمرنا به، ونفعل ما يأمرنا به، فإننا نكون كالملائكة، فهذه صفة الملائكة.

ثم لماذا يحتاج الله إلى الولد؟! **﴿ما كان لله أن يتخذ من ولدٍ سبحانه إذا قضى أمراً**

---

(١) التحريم؛ ٦.

فإنما يقول له كن فيكون﴾[1] كل واحدٍ منا يحتاج إلى الولد؛ رجلاً كان أو امرأة، حتى يملأ هذا الفراغ، وحتى يشعر باستمرار وجوده، من خلال استمرار أولاده، فالشخص الذي ليس له ولد يقال عنه شخص أبتر، كما ورد في القرآن الكريم: ﴿**إنَّ شانئك هو الأبتر**﴾[2] رداً على من كان يقول: إنَّ محمد (ص) لا عقب له، إذ ليس عنده ولد، فإذا انقطع نسله فلن يكون له امتداد، لأن الولد يمثل امتدادً للوجود وللإنسان، كأن الإنسان يستمر بولده.

والله هو الخالد الأبدي، هو الأزلي، السرمدي الذي لا أول له، ولا آخر، ومن ثم فهو لا يحتاج ولداً حتى يستمر وجوده باستمراره، الله يقول ﴿**ما كان لله أن يتخذ من ولدٍ سبحانه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون**﴾ ويقول أيضاً: ﴿**إن يشأ يذهبكم ويأتِ بخلقٍ جديد وما ذلك على الله بعزيز**﴾[3] فلماذا الولد؟!

وعندما تقرأ «**لم يتخذ صاحبة ولا ولداً**» في دعاء الإفتتاح، فإنك تحمد الله بأن تنزّهه عن أن يكون كالمخلوقين، له زوجة وله ولد، وكأنك تتحدى كل الفكر الذي يطرح مثل هذه الأمور، لتقول: إن الله «ليس كمثله شيء»، وليس كالمخلوقين.

ثم الفقرة الثانية «**ولم يكن له شريك في الملك**»، عندما تتطلع إلى كل ما تراه من هذه الأكوان، وعندما يطوف خيالك في ما لا تراه من الأكوان الأخرى، فإنك ـ كإنسان مؤمن ـ تعيش الإحساس بأن الله وحده هو المالك لكل هذه الأكوان، ولكل الوجود.

لماذا كان الله هو المالك لهذا الوجود؟ هل اشتراه من غيره؟ هل استوهبه من غيره؟

انه المالك للوجود لأنه هو الذي خلقه، ولأنه هو الموجد له، وهو المدبر له، وهو الذي بيده كل أمره «**ولم يكن له شريك في الملك**» لأن أي موجود سواه هو مخلوقٌ له، فكيف يكون المخلوق شريكاً للخالق؟!

الخالق غني في استمرار وجوده، والمخلوق محتاج إلى الخالق في وجوده، ومحتاج إليه

---

(١) مريم؛ ٣٥.
(٢) الكوثر؛ ٣.
(٣) إبراهيم؛ ١٩، ٢٠ ـ فاطر؛ ١٦، ١٧.

في استمرار وجوده. لذلك لا يمكن أن يكون هناك شريك لله سبحانه وتعالى.

وعندما ننطلق بالتعاليم الإسلامية ونتعمق في مسألة الشرك، نجد أن الشرك يحتوي معاني كثيرة؛ هناك شرك العقيدة حينما يعتقد الشخص أن هناك إلهين. لا تقولوا إلهين.. لا تقولوا ثلاثة.. إنتهوا!

وهناك شرك في العبادة، بمعنى أن يعبد الله ويعبد غيره، أن يسجد لله ويسجد لغيره، أن يركع لله ويركع لغيره، ان يدعو الله ويدعو غيره، معتقداً أن غير الله مساوٍ لله.

يجب أن تدعو الله فقط ﴿**وان المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً**﴾[1]، عندما تتحدث مع الله فليس مع الله أحد، لأن كل من هو غير الله فهو عبدٌ له.

اننا نقول في التشهد: «وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله» عظمة محمد (ص) في عبوديته لله، عندما قيل له لماذا تجهد نفسك في العبادة، وقد ضمن الله لك الجنة؟ قال: «**أفلا أكون عبداً شكوراً**».

الإمام علي (ع)، وهو في أوج عظمته، يقف بين يدي الله قائلاً «**وأنا عبدك الضعيف، الحقير، المسكين المستكين**» كانت أحب كناه إليه هي: أبو تراب، وله عدة أسماء يكنى بها ـ كما كان العرب يكني بعضهم بعضاً.

فمن أين أتت هذه الكنية؟

كان علي (ع) يسجد على التراب ليس كما نفعل نحن، إننا نسجد على تربة نظيفة ونبقيها في السجادة، فإذا اتسخت قليلاً أو صار عليها بعض من العرق، نبدّلها، لأننا لا نريد أن تتسخ جبهتنا. فقال له النبي (ص) ذات مرة: «إنهض يا أبا تراب»، وقد كانت علاقته بالسجود لله على التراب كبيرة بحيث أصبحت كنية له، وكان يحب أن يُنادى بها بإعتبار أنها كنية كنَّاه بها رسول (ص)، وهي تُمثل إخلاصه لله سبحانه وتعالى.

---

(١) الجن؛ ١٨.

وكما قلنا، فإن الشرك في العبادة هو أن تدعو غير الله . . حتى الأنبياء والأئمة لا يمكن أبداً أن تدعوهم بمعنى أن تقول: يا الله، يا محمد، هذا لا يجوز! نعم أن تتوسل بمحمدٍ ليشفع لك إلى الله؛ هذا لا يضر. أن تقول يا الله، يا علي، بالمعنى الذي تقول به يا الله . . هذا لا يجوز! نعم ان تطلب من الله أن يشفّع علياً بك لقربه منه، ولأنه يُشفِّع أولياءه بعباده، فهذا لا يضر **﴿وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً﴾** كلهم نعظمهم، لأنهم عباد الله ونستشفع بهم، لأنهم القريبون إلى الله سبحانه وتعالى، ولكن ليس في محمد أي جزء من الألوهية، وليس في علي أي جزء من الألوهية، وليس في الأئمة أي جزء من الألوهية، وليس في كل الأنبياء والأولياء أي جزء من الألوهية . . **﴿بل عبادٌ مكرمون * لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون﴾**[1].

الله توجه للنبي (ص) وللأنبياء وقال لهم: **﴿ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين﴾**[2] أي أن عظمتكم وقيمتكم عند الله أنكم الموحدون لله، فلو أن أحداً منكم أشرك بالله، فإنَّ عمله سوف يسقط جملةً وتفصيلاً.

لهذا نريد أن نعيش روح التوحيد، بعض الناس قد يستغرقون في الأنبياء وفي الأئمة، بحيث يتمثلونهم في صورة الألوهية، وربما يستغرق بعض الناس بالعظماء الذين عاشوا حياتهم من الناحية الشعورية فيحبونهم أكثر من الله سبحانه وتعالى. وانا مراراً قد ضربت الأمثال حول هذه المواضيع: إمشِ في الشارع فتسمع إنساناً يسب الله سبحانه وتعالى، والعياذ بالله، فإنك تتوقف وتقول لا أريد أن أفتعل مشكلة، لكن إذا مررت بالشارع وإنسانٌ شتم النبي (ص) أو الإمام علي (ع) فإنك تثور وتنفعل. وهكذا إذا سبَّ إنسانٌ رئيس حزب أو حركة أو تنظيم. . . ألا تخرب الدنيا؟ لكن تمرُّ بسبِّ الله بدون اكتراث.

---

(١) الأنبياء؛ ٢٦، ٢٧.

(٢) الزمر؛ ٦٥.

بعض النـاس إذا غضب من زوجته يبـدأ بالسب؛ الله، دينك، ربك، مـذهبك، ولكن هل يقدر إنسان عندما يختلف هو وزوجته ـ مثلاً ـ أن يشتم رئيس حزب أو رئيس حركة؟ لا، فالجيران ربما يسمعونه ولكن ان يسمعه الله فليس مشكلة.. الله أهون عندنا من الآخرين.

أنا أحب دائماً أن أذكر نفسي بهذا وأذكركم به حتـى نزن إيماننا وزناً دقيقاً، نحن الآن نزن السكر والرز الخ. وزناً دقيقاً، لكن إيماننـا لا نزنه وزناً دقيقاً، بمعنى أن نعرف هل انَّ الله أحبُّ إلينـا من الآخـرين حتى الآخـريـن الـذين يحبهم الله وليس من الضروري الذين لا يحبهم، والله يحب النبي (ص) والأئمـة (ع) والصالحين والمجـاهدين، ولكن ﴿**والذين آمنوا أشدُّ حباً لله**﴾[1] حبنا لله يجب أن يصل إلى درجة لا يتقـدمها أحد أبداً، فالتوحيد الخالص هو هذا.

التوحيد الخالص هـو أن لا يمتلىء قلبك إلاَّ بالله، وإذا أردت أن تدخل غير الله إلى قلبك، فليكن طريقه إلى قلبك من خلال الله.

نحن نحب النبي (ص) لأنـه حبيب الله، ورسـول الله، ونحب الأئمة لأنهم أوليـاء الله، ونحب المجـاهدين لأنهم جـاهـدوا في سبيل الله، ونحب الصـالحين لأنهم قامـوا بالأعمال الصالحة امتثالاً لأمر الله.

يجب أن يكـون قلبنـا سـاحـة لله، وهـذا المعنى صعب، وليس سهـلاً، لكنـه يأتي بالمعـاناة وبالتفكير وبـالجهد، فمثلما تريد أن تبـذل جهداً في الصلاة والصـوم لا بُدّ أن تبذل جهداً لتنمية إيمانك.. بالتفكير في عظمة الله ونعمه وما إلى ذلك.

إذاً، لا بد لنـا عندما نريـد أن نعبِّر عن توحيدنـا لله أن نقول «**ولم يكن لـه شريك في الملك**»، أي كل هذا، وكل مـا في الكون، هو ملـكٌ لله، وكل الناس مملوكـون لله، فلا يمكن لأحد أن يكـون شريكاً لله، لأنه لا يمكن أن يكون المملـوك شريكاً للمالك. كل

---

(١) البقرة؛ ١٦٥.

الكـون ملك لله فعليَّ أن لا أتصرف بـالكـون إلا بإذن الله، فإذا قـرأنا في أول الـدعـاء: «**اللهم أذنت لي في دعـائك ومسألتك**» ندرك أن علينـا أن نأخذ إذنـاً من الله سبحـانه وتعالى في كل شيء، ولـذلك فإن الله سبحانه وتعالى يخاطب بعض النـاس قائلاً: ﴿**آللهُ أذنَ لكم أم على الله تفترون**﴾[1] هل أخذتم إذناً من الله، أم لا؟.

ومعنى الحلال والحرام هو وجود الاذن أو عدمه، فالحلال ما يكون فيه إذن من الله، بينما الحرام ليس فيـه إذن لأن الكـون ملك لله.. وجسـدك ملك الله، بل حتى فمك ليس ملكك، فالله خلقه وهو ملك له، وليس لك أن تُدخل في فمك إلا ما احلَّ الله أن تدخله، ومعدتك ليست لك، وليس لـك أن تدخل إلى معدتك إلا ما أحلَّ الله لك أن يستقر في معدتك، ولسانك ملك الله، فليس لك أن تتكلم به إلا في ما أحلَّ الله لك أن تحركه فيه.. وهكذا يداك ورجلاك.

وهـذا معنى أن تقول «اللهم أنت المالك وأنـا المملـوك»، وعندمـا تقول «لم يكن لـه شريك في الملك»، يعني عنـدمـا أتصرف بنفسي، أو أتصرف بـالحيـاة من حـولي، أو أتصرف بالناس من حولي، لا أريد أن آخذ إذنـاً من أحدٍ، بل أريد أن آخذ إذناً من الله سبحانـه وتعالى، وإنما استأذن المالكين في أمـلاكهم لأن الله ملكهم والله طلب مني أن آخـذ الإذن منهم. حتى عندمـا تريـد أن تضرب إبنك أو زوجتك، أو الزوجـة تضرب زوجها، أو الإنسان يضرب إنساناً آخـر، لا بُدّ من إذن من الله، ليس لك سلطة لكونه ابنك. صحيح أنَّه خرج من جسدك، ولكن لم يجعله الله ملكك. تقول هذا إبني ويحق لي أن أضربه، فما دخلكـم؟؟ كيف لا دخل لنا؟ هـذا عبد الله وهو ملـك الله وإن كان ابنك، وليس لك أن تضرب عبد الله دون إذن من الله سبحانه وتعالى. وكذلك زوجتك فليس لك الحق في أن تضربها. وهكذا العامل عندك ليس ملكاً لك.

هذه القضايـا عندما ندقق ونتعمق فيها، نستطيع أن نعيش صفـاء التوحيد وعمق التوحيد في نفوسنا، ولا بُدّ لنا من أن نعطي أنفسنا فرصة لهذا الأمر.

---

(١) يونس: ٥٩.

«**ولم يكن له شريك في الملك**» فهو المالك ولا مالك غيره، وكل الناس مملوكون له، وكل الوجود مملوك له.

«**ولم يكن له وليٌّ من الذل**» الولي هو الذي يلي أمر من ولّي عليه، الولي قد يكون الناصر، الولي المشرف على الأمر، الولي: المدبّر للأمور، قل مثلاً: ولي الطفل، ولي القاصرين، أو ولي الأمة، وهكذا فالولاية نوع من أنواع العلو، والإشراف، والهيمنة، فأن يكون للإنسان ولي يعني أن يكون موقعه موقع ضعف وذل.

الله سبحانه وتعالى ليس له ولي، أي ليس هناك أعلى منه، فهو الولي ولا ولي غيره ﴿**الله وليّ الذين آمنوا**﴾[1] الله ولي الكون كله وليس هناك ولي لله إلا بمعنى آخر، قد يقول المؤمنون أولياء الله، علي ولي الله يعني انه ولي لله ينصر الله في دينه، ويحب الله ويطيعه.

صفات الله لا تطلق على أحد

«**ولم يكن له وليٌّ من الذل**» يعني ان الله ليس هناك أحد فوقه، لأنَّه فوق كل أحد. ثم بعد أن يحمد الله من خلال هذه الصفات التي تعبِّر عن معنى التوحيد يلتفت إلى نفسه؛ «وكبره تكبيراً» كأنه يقول لنفسه يا فلان عندما تذكر الله أذكره في مواقع الكبر، في مواقع العظمة، في مواقع التكبير. . . كبِّره. . أعلن ذلك، قل «الله أكبر»، وعِش معنى هذه الكلمة في وعيك، لأن عليك أن تشعر بأن الكبرياء لله وأن الكبر والعظمة لله، ليصغر عندك كل من في الوجود وعندما تقولون: «الله أكبر»، يوجد أمامها كلمة ثانية، الله أكبر وما عداه الأصغر، لكن مشكلتنا دائماً اننا نقول الله أكبر وننسى «اصغر» ولذا تأخذنا الحالة النفسية والوجدانية فنعطي لغير الله صفة الله. وفي تصوري حتى لو جاز لنا من خلال المعنى اللغوي أن نطلق بعض الكلمات على غير الله، لكن ينبغي أن لا نطلقها تأدباً لله.

إذا أصبحنا نستعمل الكلمات لله سبحانه وتعالى في صلاتنا ونستعملها لغير الله؛ فإن الكلمات ستهون في نفوسنا.

---

(١) البقرة؛ ٢٥٧.

علينا أن نحب الناس الذين يملكون علماً وجهاداً وتقوى، ولكن أن لا تأخذنا الحالة النفسية بحيث نبحث، لمن نحبهم، عن ألقاب غاية في التقديس، وهناك حادثة طريفة حدثت في زمن السيد أبي الحسن الأصفهاني، وهو مرجع الشيعة العام، وكان كبيراً من مراجع الشيعة قبل السيِّد محسن الحكيم الذي توفي سنة ١٣٦٥ هجرية. وكان الناس يكتبون له بلقب آية الله العظمى أو حجة الإسلام والمسلمين، وما إلى ذلك من الكلمات التي تقال عادة.

وكان يوجد إنسان يحب المرجع الكبير كثيراً ورأى أنَّه مهما كتب له من ألقاب هي دون قدره، فماذا يبعث له، ولم يجد سوى: حضرة الله العلماء ـ والعياذ بالله ـ يعني أنت إله العلماء!

وهكذا عندما نتعود على تكثير الألقاب وعلى استهلاكها كيفما كان، نصل إلى هذه الدرجة في كثيرٍ من الحالات. لذلك لنتعود على أن نكون متوازنين في مشاعرنا اتجاه الناس، فنعطي كل إنسانٍ حجمه وقدره، ولا ندخل عواطفنا في ذلك، وأن نحتفظ للكلمات بمعانيها.

إطلاق لفظ (الإمام) على غير المعصوم

من جملة الأشياء التي كان لي رأي فيها، ولم يوافقني احد عليها، هي اطلاق لقب الإمام على بعض العلماء في لبنان، وإيران والعراق. فقد كانت وجهة نظري أن الشيعي ليس من الضروري أن يسمي أحداً «إمام» لأن الإمامة عند الشيعة تختلف عن الإمامة عند غير الشيعة من المسلمين، فهي عند غير الشيعة من المسلمين تعني معناها اللغوي المتقدم في العلم؛ إمام في الفقه، إمام في النحو، إمام في التفسير، ولكنها عند الشيعة تعني معنىً يتصل بالمضمون الثقافي لعقيدة الإمامة عند الشيعة. فإذا نحن استعملنا كلمة الإمام علي ثم نستعمل كلمة الإمام لأي عالم، فلن يكون هناك فرق بين الكلمتين في المفهوم التربوي خاصة ما نعلمه للأطفال وللشباب.

نحن لا نقـول إن النـاس يقصـدون هذا المعنـى، ولكن قـد تكون الكلمـة تحمل معـاني في موقع، فـإذا أبعدنـاهـا خارج معناهـا فإنها تترك تأثيرات سلبيـة على المعنى الحقيقي.

خلاصـة كل الفكرة التي انطلقنـا فيها هي أن نحـاول أن نبقي للكلمات التي تطلق على الله معناها العميق الـدقيق، لأننا إذا وصفنا الله بالعظيم وغيره بـالعظيم، ووصفنا الله بالأكبر وغيره بـالأكبر. ووصفنا الله بـالأعلى وغيره بالأعلى، فمعنى ذلـك أن هذه الكلمات لن يبقى لها بعد ذلك دور كبير في نفـوسنا. وإذا قـدرنا على هذه الأمـور فربما تتغير كثير من المشاعر والأحاسيس في ما نقدمه إلى الله من كلمات.

«الحمدُ لله بجميعِ محامِدِهِ كُلِّها على جميعِ نِعَمِه كلِّها».

كما هو أهله

في هذه الفقرة ينفتح الإنسان على آفـاق حمد الله، لأن الحمد يعني الثناء، ويعني في داخله بعض معاني الشكر. فإذا أردنا أن نحمد الله، سبحانه وتعالى، فعلينا أن نحمده من خلال صفةٍ من صفات العظمة في ذاته.

وهنا يتصوّر الإنسان نِعَم الله عليه، وعلى الناس من حوله، وعلى الكون كلّه، فيرى أنّ نِعَم الله لا تُحصى، وعنـد ذلك يلتفت إلى محامِـد الله فيتوجّـه إلى أن يَحمـد الله بكلّ محامِده أي بكلّ وسائل الحمد، وبكلّ صفات الحمد، وبكلّ مواقع الحمد حتى ينطلق الإنسـان في شُكـر النعمـة، وفي الاعتراف بإحسـاسه بـالنعمـة، وفي الشعـور بعظمـة النّعمـة، بحيث يُقدّم لله الثنـاء بكلّ مـا يُثنى عليه، في مقـابل النِّعم التي أنعمَ الله بها عليه، ليتوازن لدى الإنسـان إحساسه بعظمةِ النّعمة مع احساسـه بعظمة مواقع الحمد عند الله سبحانه وتعالى. ولذا لا يقتصر الإنسان على صفةٍ دون صفةٍ في حمد الله باعتبار أنّه يريد أن يتطّلع إلى كل نِعم الله عليه، ليكون حمد الله مقابل نعمةِ الله.

وهناك في بعض الأذكار التي يُستحبُّ للإنسان أن يعقِّب بها بعد صلاة الصبح، مما

يتضمن هذا المعنى، «**سبحانَ الله كلّما سبّح الله شيء، وكما يُحبُّ الله أن يُسبّح، وكما هو أهله، وكما ينبغي لـه، والحمد لله كلما حَمِد الله شيء، وكما يحبُّ الله أن يُحمـد، وكما هو أهلـه، وكما ينبغي لـه، ولا إلـه إلا الله كلما هلّل الله شيء، وكما يحبُّ الله أن يُهلّل، وكما هو أهله، وكما ينبغي لكرَمِ وجهـهِ وعزِّ جلالهِ، والله أكبر كلما كبّر الله شيء، وكما يُحبّ الله أن يكبّر، وكما هو أهله، وكما ينبغي لكرم وجهه وعزِّ جلاله**» فالإنسان يحمد الله كما هـو اهل للحمـد، وكما ينبغـي الحمـد لله، وكما يحبّ الله أن يحمـد، والله يحبّ لنـا أن نحمدُه بكلِّ محامِـدِه، جملةً وتفصيلا، لأننا إذا ذكـرنا كل محامِده من خـلال كل مواقع عظمتـهِ، فإننا نملك عنـد ذلك صورةً شـاملةً للخطـوط العامـةِ لعظمةِ الله ممـا يُمكن للإنسان أن يتصوّره.

«**الحمد لله بجميع محامِدِه كلّها**» بجميع مواقع الحمد في ذاته التي تدفعنا إلى أن نعلن الحمد له ونحمده «**على جميع نعمهِ كلّها**»، سواء كانت هذه النِّعـم نعمة الوجود أو كلّ القضايا التي تتصل بالوجود، أو تتصل بما بعد الدنيا في أجواء الآخرة.

«**الحمدُ لله الذي لا مضادَّ لهُ في مُلْكِه، ولا مُنازِعَ لهُ في أمْرِه**».

«**الحمد لله الذي لا مضاد له في ملكه**» هنا ننتقل إلى أن نتصوّر الله سبحانه وتعالى من خلال مقارنتـه بكل الموجودات الأخرى، ولا سيما الموجودات الإنسانية الحيّـة الفاعلة، التي تتميّز ببعض مواقع القدرة، وببعض مـواقع الإرادة، وببعض مواقع الحركة ممن قد يستغـرق النـاس في صفـاتهم وفي قـدرتهم وفي عظمتهم، فيغفلـون عن الله عنـدمـا يذكرونهم، وربما يرفعونهم إلى صفة الآلهة أو أنصاف الآلهة. فما قيمة هؤلاء؟ وما قدرتهم مقارنة بقدرة الله سبحانه وتعالى؟.

هل يملكون أن يقفوا الموقف المضاد لله في ملكه؟

فإذا أراد الله أن يُنزلَ المطر من السماء، هل يملكون أن يمنعوا المطر من النزول؟

وإذا أراد الله أن يبعث الجدبَ في الأرض، هل يملكون أن يُعطوا الأرض خصبها؟

وإذا أراد الله أن يمنع الينابيع من أن تتفجّر، هل يملكون تفجيرها؟

وعندما يـريد الله لليل أن يقف عند حد، وللنهار أن يقف عنـد حد، فهل يملكون أن يتجاوزوا بالليل عن حدِّه وبالنهار عن حدِّه؟

هل يملكون أن يُعطوا الحياة لمن أراد الله لـه الموت؟ أو يفرضوا الموت على من أراد الله له الحياة؟

ماذا يملكون في مواجهة الله؟ إن الإيمان بالله الواحد يجعلنا نحمد الله على أساس أن نتصور كل خلقـه، فنجد أنه لا مضـادَّ له في كل ملكـه، أي ليس هناك من يملك أن يقفَ الموقف المضاد لإرادة الله، فإذا أراد الله شيئـاً، كان، حتى لو لم يُـرِدْهُ كلُّ الناس، وإذا لم يُرِد الله شيئـاً لم يكن حتى لـو أرادهُ كل الناس، وهـذا معنى الذكـر المعروف «**ما شاء الله كـان وما لم يشأ لم يكن ولا حول ولا قـوة إلا بالله**» فالله هو الذي يعطي الأشياء وجودها ولا يملك أحدٌ أن يُعطيها ذلك، إلا من خلال الوسائل التي أعطاها الله.

«**الحمد لله الذي لا مـضاد له في ملكـه ولا منازع له في أمره**» لا يملك أحدٌ أن ينازع الله في أمره، بمعنى أن يقف مـوقفاً فعلياً ينازع الله ويثير النـزاع مع الله في بعض الأمور فيعطِّل مشيئة الله. طبعـاً هناك أشخـاص كثيرون في الدنيا يـدخلون في عـالم النزاع مع الله، فكثير منهم يدّعون الربوبية وكثير منهم يتمردون على الله ويسعونَ في الأرض فساداً ويحاربون الله ورسـوله في دينه وأمّته.. هـذا كلُّه موجود، ولكن المقصـود من كلمة «**لا منازع له في أمره**» أنه ليس هناك من يستطيع أن ينازع الله، بمعنى أن يواجه الله سبحانه وتعالى بإرادة أخرى، بحيث يُعطِّل أمر الله سبحانه وتعالى.

ينـازعه في أمـره يعني يُعطِّل أمره، يُـربك واقع الارادة الالهيـة، أو يُربك واقع الأمـر الالهي، وهذا لا يمكن في الكـون كلِّه، فـالله سبحانه وتعـالى يقول: ﴿**إنما أمرُهُ إذا أراد شيئاً ان يقول له كنْ فيكون**﴾[1] أمره هو هذا، بمعنى ان أمر الله سبحانه وتعالى نافذٌ من خـلال إرادته، ولا قيمـة لنزاع الآخـرين، ولكل الوسـائل التي يتحرّك بها الآخـرون في مقابل الله سبحانه وتعالى.

وعندما نشعـر ونتحسس هاتين الكلمتين «**الحمد لله الذي لا مضـاد له في ملكه ولا**

---

(١) يس؛ ٨٢.

منازع له في أمره» فإننا ننفتح على الحياة كلها عندما ننفتح على الله، فنشعر أن كلّ القوى الموجودة في الكـون لا تستطيع أن تُعطِّل أيَّ إرادةٍ من إرادات الله، ولا تستطيع أن تُربكَ أيَّ أمرٍ من الله. ولـذلك فإننا عندمـا نثق بالله في كل أمـورنا، ونتحرّك من مـوقع الثقة بـالله، فإننا لا نخشى من الآخـرين أن يعطّلوا أيَّ شيءٍ ممـا يُريـدُ الله له أن يكـون، أو يوجدوا أيَّ شيء مما لا يُريد الله له أن يكـون. وهذا يعطينا الثقة بالله من خلال الشعور بأن كل من عادى الله لا يملك أمام الله شيئاً. وهـذا ما نستوحيه من بعض الأدعية **«يا من يكفي من كل شيء ولا يكفي منـه شيء»** فهو يكفي من كلّ أحـد، ويحمي من كلّ أحد، ولكن ليس هناك أحدٌ يحمي أحداً منـه، إذا لم يُرد الله لأحدٍ شيئاً فلا يملك أحدٌ أن يعطيه ذلك الشيء.

«الحمدُ لله الذي لا شريكَ لهُ في خَلْقِه، ولا شبيهَ لهُ في عَظَمَتِه».

عظمة الله مطلقة

وهذه، أيضاً، نقطة تتصل بجانب التوحيـد؛ فنحن عندما نتصور الله فإننا نتصوره في وحدانيته، في ألوهيته، وفي خلقه، لأنه هو الذي خلق الخلق ولم يخلقهم احدٌ آخر، هو الخالق وحده، وإذا كان هـو الخالق وحده، فليس له شريك لأنَّ الشريك لا بدَّ أن يكون خالقاً حتى يكون في موقع الربوبية، وفي موقع الألوهية، وإذا كان كل الموجودين مخلوقين لله فكيف يمكن لهم أن يكونوا شركاء لله؟

وإذا أردنا أن نتصوّر عظمة الله مقابل عظمة غيره من المخلوقات، فإننا لا يمكن أن نرى أن غير الله شبيـه لله في عظمته، بـاعتبار أنّ بعض الناس قـد يستغرقـون في الناس فيشبهونهم به! في هذا المجال، هناك معادلة واضحة بيّنة، وهي أن الفرق بين عظمة الله وبين عظمة أيِّ مخلوق من مخلوقاته، هو أنّ عظمة الله مطلقة، لا يحدّها شيء، وعظمة المخلوقات محدودة بحـدود خاصة، والشيء الثاني هو أنّ عظمة الله ذاتيـة لله، فالله هو العظيم في ذاتـه، لم يكتسب عظمتـه مـن أيِّ شخص آخـر، أمـا عظمـة غير الله فهي مستمدةٌ ممـا أعطاه الله لهم من بعض جوانب العظمة، ولـذلك فإنّ عظمة غير الله هي

من آثار عظمة الله، إذ أنّ كـل العظماء في ما يتميزون به من مواقـع العظمة إنما استمدوا عظمتهم من خلال ما أعطاهم الله من عظمة.

وعلى هذا الأسـاس، فعظمة الخلق مستمـدة من عظمة الخالق، أمـا عظمة الخالق فهي ليست مستمـدةً من أيِّ أحـد، لأن عظمتـه تنطلق من سر ذاتـه، فهي ذاتيـة لـه وليست طـارئة. وإذا كانت عظمـة الله مطلقة بـلا حدود، وكـانت عظمة الله ذاتيـة، فكيف يمكن أن يكـون أحـد شبيهاً لله في عظمتـه؟ لا يمكن ذلك من خـلال دراسـة المسألة بشكل واضح وبديهي.

* * *

«الحمدُ لله الفَـاشي في الخَلْقِ أمْرُهُ وحَمْدُه، الظَّاهِـرِ بالكَـرَمِ مَجدُه، الباسِطِ بالجُودِ يَدَه، الذي لا تنقُصُ خزائِنُه، ولا تزيدُهُ كَثْرَةُ العَطاءِ إلا جوداً وكَرَماً، إنَّهُ هو العَزيزُ الوَهَّاب».

كل شيء يدلّ على وجود الله

«الحمدُ لله الفَاشي في الخَلْقِ أمْرُهُ وحَمْدُه».

عندما نريد أن نتصوّر الله سبحانه وتعالى في ما له من أمرٍ يتحرك الوجود من خلاله، وفي ما لـه من حمدٍ في كل مواقع عظمتـه، فإننا لا نحتـاج إلى أن نُدقق وإلى أن نتعمّق، وإلى أن نـدرسَ الأشياء، لأنّ الإنسـان يحتاج إلى أن يتعمق ويـدرس ويتعرف الأشيـاء الخفيّة التي لا يستطيع أن يعرفها إلاّ من خلال الدراسة وإلاّ من خلال التجربة. أمّا في ما يتعلّق بالله فإنّ أمر الله منتشرٌ في الكون كلّه.

ماذا ترى في الكون؟

تـرى السماوات والأرضين . . تـرى الإنسـان والحيـوان والنبـات والجبـال والبحـار والأنهار، وترى كلَّ شيءٍ أمامك، وهذا كلّه هو من أمر الله، لأنّ هذا كلّه من إرادة الله. وهكذا عنـدما تـريد أن تتعـرّف مواقع حمد الله فإنّك تجد مـواقع حمدِ الله في كلِّ مجالات

عظمة الله، وإبداع الله، وسيطرة الله على الكون كلّه، لذلك إذا أردت أن تتعرّف الله فلا تحتاج أن تدخل كلّية الفلسفة، حتى تعرف الله من خلال الفلسفة ودراستها. تطلّع . . إقرأ كتاب الكون، تطلّع إلى الكون كلّه تجدْ أنّ أمر الله واضح في الكون، وأنّ حمده ظاهر في الكون، لا يحتاج أن يعلّمك أحد لأنّ طبيعة الأشياء تفرضُ ذلك.

وهذا هو الأسلوب القرآني الذي يريد للإنسان أن يتحرّك في معرفته بالله بأن ينطلق من خلال وجدانه، ومن خلال فطرته؛ أن تعرف الله بفطرتك، وأن تعرف الله بوجدانك. **﴿ويتفكّرون في خلق السموات والأرض ربّنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك﴾**[1].

يتطلّع إلى السماء فيجدها في نظامها، وإلى الأرض في كل أنظمتها المتصلة بطبيعة الأرض وبمن في الأرض، فيقول: يا رب إن من غير الممكن أن يكون هذا بدون حكمة وبدون أساس، بشكل عفوي لا يحتاج إلى عمق وتدقيق، لأنّ الأشياء مربوطة بالفطرة، ولذلك قيل لأعرابية: بِمَ تستدلّين على وجود الله؟ قالت: (بهذا المغزل، إنْ حرّكتُهُ تحركْ وانّ سكّنتُهُ سكن)، هذا المغزل في يدي، أمّا هذا الكون كلّه فإذا لم يكن له محرّك فكيف يتحرّك؟ وإذا لم يكن له شخص يمسك حركته فكيف يسكن؟

أيضاً هناك أعرابي كان يعيش في البادية لا يفهم القضايا إلاّ من خلال تجاربه، قالوا له: كيف تستدل على وجود الله؟ قال: (البعرة تدلُّ على البعير) ـ عاش في حياة مع الجِمال لا يعرف إلاّ من خلال هذه التجربة، (وأثر الأقدام يدلُّ على المسير، أفسماءٌ ذات أبراج) الكواكب الموجودة فيها وأرضٌ ذات ارتاج لا تدلُّ على اللطيف الخبير؟) إنه يقول هذه الظواهر الكونية العظيمة التي نراها بشكل طبيعي، هل من المعقول أنها خُلقت وحدها؟ ونحن نقول إنه ليس من المعقول أن تكون هناك بعرة بدون بعير، أو أثر أقدام من دون مسير.

من هنا، فالإنسان لا يحتاج للايمان بالله إلى براهين وحجج وأدلّة، فالفطرة كافية (الاسلام دين الفطرة) **﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا**

(١) آل عمران؛ ١٩١.

تبديل لخلق الله﴾[1]. فالمسألة لا تحتاج لعمق، وهذا نأخذه من فكرة: «الحمد لله الفاشي» يعني المنتشر «في الخلق أمرُه وحمدُه» بحيث لو أغمض الإنسان عينيه، ووجّه فكرهُ إلى جسده، ودرس كلّ الأجهزة التي يستمرّ من خلالها وجوده، الجهاز العصبي والهضمي وكلّ الأجهزة، كيف تتحرّك؟ وكيف تتنظّم؟ وكيف تنتج؟ يستطيع الإنسان من خلالها أن يتعرّف أمر الله وأن يتعرّف مواقع حمد الله في ذلك، ﴿**سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبيّن لهم أنّه الحق**﴾[2] ولكنّ الفرق أنّ هناك أناساً يفكرون وآخرون لا يفكرون، هناك من يقولون إنّهم غير مستعدّين للتفكير، ﴿**ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم، وعلى أبصارهم غشاوة**﴾[3] كيف ختمها الله؟ الله لم يختمها بالشمع الأحمر، بل إنهم عندما فقدوا الارادة على التفكير فإن عقولهم وقلوبهم ستفسد بالطبع.

شخص تقول له: تعال انظر الشمس مشرقة، وهو مغمض العينين، تقول له: افتح عينيك لترى، يقول: أنا غير مستعد لأن أفتح عينيّ! افتح أذنيك لأكلمك، فيضع قطنة في أذنيه! ﴿**يجعلون أصابعهم في آذانهم**﴾[4] ماذا تفعل؟ بعض الناس لا يؤمنون بالله ليس لأنّه لم يثبت عندهم الايمان بالله، بل لأنهم لا يريدون الايمان.

فواعجباً كيف يُعصى الالـ ـه أم كيف يجحده الجاحدُ
وفي كلِّ شيءٍ له آية تدلُّ على أنه واحدُ

«**الحمد لله الفاشي في الخلق أمرُه وحمدُه**» فإذا أردت أن تتعرّف أمر الله وأن تتعرّف مواقع حمد الله، فافتح عينيك لترى آيات الله في الكون، وافتح أذنيك لتسمع كلّ ما يمكن أنْ تسمعهُ من آيات الله، اسمعْ خرير الشلال، واسمع عزف الرياح واسمع تغريد الطيور، واسمع اللغات التي يتحدّث بها الناس، وافتح عقلك وقلبك على كلّ

---

(١) الروم؛ ٣٠.
(٢) فصلت؛ ٥٣.
(٣) البقرة؛ ٧.
(٤) البقرة؛ ١٩.

مـا تـراه، وعلى كل مـا تسمعـه، فإنّـك لا تستطيع إلاّ أن تكتشف الله في ذلك كلّـه، ولـذلك فالمؤمن الحق، الأعمق ايمانـاً بعد رسـول الله (ص) هو عليّ بن أبي طـالب (ع) الذي ينقل عنه قـوله: ما رأيتُ شيئاً إلاّ ورأيت الله معه وفيـه وقبله وبعده.. أي شيء أراه الذرة التي أراهـا، الشمس والقمر والناس، أيُّ شيءٍ أراه أرى فيه مظهـراً لقدرة الله سبحانه وتعالى، وأرى فيه علامةً على وجود الله.

ولذلك، فإنّ الله عندمـا يطرح المسألة في القرآن فإنه يطرحهـا بطريقة استغراب لأن الناس يشكّون ﴿**أفي الله شك فاطر السماوات والأرض**﴾[1]، والذي يتطلّع إلى السماوات وهذا النظام الكوني، الذي لحدّ الآن، ومهما بلغ الإنسان من العلم، لا يزال يقصُر عن الاحاطـة ببعض المظاهـر الكونيـة في السماء، وما أدركه لا قيمـه له أمـام ما لم يُـدركه، وهكذا بالنسبة للأرض: ﴿**فاطـر السماوات والأرض**﴾ عندما تـدرس النظام الكوني في السماء والنظام الكوني في الأرض، فهل يمكن أن تقول إنه قد وُجد صدفة من نفسه؟

ينقل أن ملحداً قـدم إلى المسلمين في زمن الخلافة العباسية وقـال: أنا قادمٌ لأتحدّى علماء المسلمين، اثبتوا لي وجـود الله فأنـا مُلحد، فقـالوا: أهـلاً وسهلاً غـداً الموعد في العاشرة، وكـانت المسألة في بغـداد، وبغداد يشقُّهـا نهر دجلة قسمين. وحـان الموعد ولكن العالم الـذي (من المقرر أن يـواجهه) تأخّـر فقالـوا له: لماذا تأخّـرت عن الموعد؟ فقـال: يقع بيتي في الجانب الآخر من النهـر، وليس عنـدي زورق، فرأيت في طـريقي خشبات ومسـامير مرميّة، فركضت خشبـة إلى خشبة ثانيـة، وركض المسمار إلى خشبة ودخل فيها، وألصقها بالخشبة الثانية، وجاءت الخشبة الثالثة والرابعة وهكذا انتظمت الخشبات بعضهـا مع بعض وشكلت زورقاً، وقـد تمّت هذه العملية في نصف سـاعة، فركبتُ الـزورق وأتيت. فقال الملحد: مـا هذا الكلام الخرافي؟! كيف حـدث كل هذا تلقائياً، فأين عقلك؟! أليس هناك نجّار أو عامل أو فنيّ؟.

فقال العـالم: إذا كنت تقول عني اني خـرافي لا أملك عقلاً ولا علماً عنـدما أتحدّث بهذه القضية الصغيرة، فأنت ماذا تقول؟ تقـول إنّ الأرض وُجدت صدفة بدون سبب،

---

(١) ابراهيم؛ ١٠.

والسماء والنظام كلّه تركّب من نفسه، فإذا كان الزورق لا يتركّب من نفسه فكيف تركّبت هذه الأكوان من نفسها؟ فأسِقط في يد الرجل، لأنّ المسألة خلاف الوجدان، فالطفل بفطرته عندما يرى شيئاً يقول لك إذا كان يتكلم: من عمله؟ من أتى به؟ فهل دخل هذا الطفل الصغير جامعة حتى يفهم؟ فهذا سؤال طبيعي. ولذا قال الله في القرآن ﴿أمْ خُلِقوا من غير شيءٍ أم هم الخالقون﴾[1] هل هم الذين خلقوا أنفسهم؟ أم خُلِقوا من غير خالق؟ وهل يمكن أن يكون خلقٌ من دون خالق ما دام هناك عدم يحتاج إلى قوّة لتُخرج الشيء من العدم إلى الوجود؟.

إذا فتحت عينيك وأذنيك، وعقلك، وحواسك، فإنّ أي شيء تمسكُه وأنت مُغمض فهو يُثبت وجود الله. وهناك شاعر يقول:

يقولون في البرهان آمن معشرٌ ... وما نفعُ إيمان يجيءُ ببرهانِ

فما أنا في ما يُدرك العقلُ مؤمنٌ ... ولكن من فوق عقليَ إيماني

ليس معنى ذلك أنّ الإيمان فوق العقل، بل معناه أنّ الإحساس الطبيعي هو الذي يخلق الايمان:

ولمّا قضى الوجدان بالدين بالورى ... طرحتُ دليلي واقتنعت بوجداني

والوجدان هنا هو الفطرة، ثم يتحدّث عن الآخرة ويقول:

فيا جانب البحر الذي أنا غارقٌ ... بلجَّتِهِ لا بدَّ من جانبٍ ثاني

فالبحر له ساحلان مهما كان البحر كبيراً، عندما أكون على هذا الساحل يجب أن يكون هناك ساحل آخر، ولذا فالآخرة ضرورية.

هكذا بطريقة طبيعية عفوية. يجب أن لا نتعوّد على التعقيد في قضايا العقيدة ووجود الله، فأفضل أسلوب من أساليب الاستدلال على وجود الله هو الأسلوب القرآني، الذي يربط الإنسان بالوجدان، تطلّع، اسمع، شمّ، ذُقْ، المس وفكر.. لا تحتاج أكثر من هذا.

---

(١) الطور؛ ٣٥.

« الظَّاهِرِ بالكَرَمِ مَجدُه، الباسِطِ بالجُودِ يَدَهُ»

كرم الله المطلق

إنّ مجد الله يظهر من خلال كرمه لأنّ كرمَ الله شاملٌ لكلِّ المخلوقات، فهو الذي أعطى كلَّ نفسٍ هداها، النملة لها نظام معيَّن وتنظيم، والنحل عنده تنظيم دقيق، والعنكبوت تنظيمها لبيتها وتموينها لنفسها دقيق ايضاً، هذه أشياء صغيرة جداً، وحتى الماء مثلاً عندما تراه بالعين المجرّدة فإنك لا ترى فيه شيئاً ولكن عندما تراه في المجهر ترى عالماً من الحشرات والكائنات الدقيقة الموجودة! عندما نرى الكون كلّه، بعضه مركّب على بعض، والله قد جعل لكل شيء في هذا الكون نظاماً معيناً يتحرك من خلاله، بحيث ترى الموجودات الكونية تحمي نفسها وتنظم نفسها وتطوِّر نفسها من خلال طبيعة الأنظمة الذاتية التي أودعها الله فيها، فترى الحشرة تمشي طبيعياً بمجرد أنْ تولد، وكأنها أخذت دروس كلّ الحشرات من ملايين السنين، وترى الحيوان ينطلق تلقائياً بمجرّد أن يولد!

من الذي علّم الطفل أن يلتقي ثدي أمّهِ؟ وما هو اللبن الذي تعطيه الأم للطفل؟ في البداية يحتوي اللبن موادّ معينة، ثم تتغير هذه المواد كلما تقدم الطفل في العمر، فكيف ومن أودع ذلك وقاسه بهذا المقياس المتناهي في الدقة؟ اليوم يحتاج الطفل إلى مواد معينة، بعد شهر أو شهرين يحتاج إلى عناصر أخرى، فكيف صارت هذه العناصر؟ من أودعها؟ من الذي وضع الحدود في الحليب وهو يأتي من ثدي الأم؟

مثلاً جهاز التوزيع الموجود في المعدة؛ فأنت عندما تأكل أكلة فيها فيتامينات معينة فيها حديد و . . ، العظم يحتاج إلى فيتامين معيّن، الدم يحتاج شيئاً آخر، والأعصاب تحتاج لشيء آخر، والدماغ يحتاج لشيء آخر، فهذه المعدة من أين أتتها هذه التوجيهات، حتى توزّع للدم ما يريد وتبعث للجهاز العصبي ما يحتاج؟ فالله أودع على امتداد الكون سننه وقوانينه، ما نعلمه من قوانين الكون قليل، وما نجهله أكثر.

ما هي معلوماتنا عن موجودات البحار؟ نحن نعرف أنّ في البحر سمكاً، لكن

دراسات الاسماك وقوانينها وتنوّعها ما هي معرفتنا بها؟ ما هي معرفتنا بخصائص المعادن وكيف تتكون؟ وهكذا.

إذاً، فكرم الله سبحانه وتعالى ليس من قبيل ما يمارسه الناس من كرم، فأنت إذا أعطيت المال أو الغذاء لشخص محتاج، فأنت كريم، ولكن كرم الله أنه أعطى كل شيء وجوده، وأعطى كلّ وجودٍ عناصره التي توجِّهه إلى ما أعدَّه الله له. وهذا دليل مجد الله، فلو لم يكن لله من العظمة، والقدرة، والغنى، ما يملك به كلّ هذه العناصر التي أعطاها لمخلوقاته، لما أمكنَ لمخلوقاته أن تتحرّك بهذا الاتجاه. ونحن نتعرف مجد الله وعظمته من خلال كرمه لأن كرمه هو الكرم الشامل الذي لا يقتصر على موقعٍ دون موقع.

«**الظاهر بالكرم مجدُه، الباسط بالجودِ يَدَه**» طبعاً الله ليس جسداً مثلنا حتى يكون له وجه وحتى تكون له يد، ولكن هذا من قبيل التعبير الكنائي لأنّ اليد هي ـ عادةً ـ أداةُ العطاء، واليد هي أداة القوّة ولذلك نقول «بل يداه مبسوطتان» يعني أنّ عطاءه عطاء مبسوط، وهكذا ﴿**كلُّ شيء هالكٌ إلا وجهه**﴾[1] المقصود ذاته وليس المقصود بالوجه المعنى المادي للوجه، وكذلك «الباسط بالجودِ يده» يعني الذي كان جودُه منفتحاً بالعطاء على كل من يريد ذلك «الباسط بالجودِ يدَه الذي لا تنقص خزائنه».

الإنسان عندما يستمدّ الثروة من مصادر محدودة، فمن الطبيعي أن المصادر المحدودة تفرض موارد ونتائج محدودة. فكلما كان الشيء محدوداً، ينقص إذا صرفت منه، أما بالنسبة لله سبحانه وتعالى فهو لا تنفدُ خزائنه لأنه لا يحتاج، وكلُّ شيء له، وملكهُ لا حدَّ له، والشيء الذي لا حدَّ له من غير الممكن أن ينقص، ﴿**قل لو كان البحرُ مداداً لكلمات ربّي لنفِد البحر قبل أن تنفد كلمات ربّي ولو جئنا بمثلِهِ مددا**﴾[2]. ولذلك فالإنسان يطلب من الله كل شيء، لأن الله لا تنفد خزائنه.

«**ولا تزيدهُ كثرة العطاء إلا جوداً وكرما**» بعض الناس يملّ من العطاء، ويقول:

---

(١) القصص؛ ١٨.

(٢) الكهف؛ ١٠٩.

كفى فأنا عنـدي عائلة، فإذا استمـررت في إعطـاء الناس فآخر الأمر سأفتقـر، ولذلك فهو يكـون متحمساً في البـداية، لكن مـع مرور الزمـن وكثرة المحتـاجين تخفّ حماسته للعطاء. ولكن الله سبحانه وتعالى الذي أعطى للكون وجوده وللأشياء وجودها «الذي لا تنفد خزائنه» يعطينا غداً مثلما يعطينا اليـوم، ويعطينا بعد غد مثلما اليوم. باعتبار أنّ العطـاء والكـرم هما سرٌّ ذاته، فليس العطـاء والكـرم شيئين من خـارج ذات الله ليتغير حسب تغيّر الطوارىء، ولـذلك فإنّ كثرة العطاء لا تـزيدهُ إلا كرماً وجـوداً لأنّ عطاءه منطلقٌ من سرِّ ذاتـه ومنطلق من حكمته ورحمتـه، فكما أن حكمته، ورحمتـه، ولطفه، وكرمه، لا يمكن أن تضعف، كـذلك عطاؤه لا يمكن أن يضعف ﴿**أم عندهم خزائن ربك العزيز الوهّاب**﴾[1] العزيـز الذي لا يستطيع احـدٌ أن ينتقصَ من قـدرته وقـوته وعزتـه، وهو الوهّاب الـذي يهب الناس كلَّ ما يحتاجـون إليه، والوجود كلَّ مـا يحتاج إليه.

* * *

«اللهمَّ إني أسألُكَ قليلاً مِن كثيرٍ مع حـاجَةٍ بي إليهِ عَظِيمةٍ، وغِنـاكَ عنهُ قديمٌ، وهوَ عِندي كثيرٌ، وهوَ عليكَ سهلٌ يسيرٌ».

ضآلة الطلب أمام كرم الله

في هذه الفقـرة يقف الإنسان بين يدي الله ليتوجـه إليه بحاجاتـه بعد أن انفتح على حمدهِ وثنائه وهو يتحدث إلى ربّه على أساس مـا يقدّمه من طلباتٍ لله في كل ما أهمهُ من شؤون دنياه وآخرته ليقول لله سبحانه وتعالى: «**اللهم إني أسألك قليلاً من كثير**» إنَّ هذه الطلبات التي أقـدمها بين يديك لا تمثل شيئاً أمـام حاجاتي الكثيرة، أو أمام حـاجات الناس التي تقدم إليك، أو أمام كرمك الكبير وملكِكَ العظيم.

«**اللهم إنّي أسألك قليلاً من كثير**» وهذا القليل من الكثير يمثل شيئـاً مهماً عندي يا رب، لأنَّ ما أطلبـه منك يتصل بضرورات حياتي، ويتصل بطبيعة حاجـاتي في الحياة،

---

(١) ص: ٩.

حتىٰ أجـد في الحيـاة راحتي وطمـأنينتي واستقـراري، وأن لا تضغط عليَّ الحاجـات فتشغلني عنك، وأن لا تطبق عليَّ المصائب فتبعدني عن الإنفتاح عليك.

انَّ حاجـاتي هذه التي أطلبها منك هي حـاجات عظيمة عندي، بـاعتبار أنَّها تمثل القضايا الملحة في حياتي، في دنيـاي وفي آخرتي، أمّا أنت يا رب، فأنت الغني عن هذه الأشياء التي أطلبها، كما أنت غني عن كل شيء، وغناك عن ذلك ليس شيئاً طارئاً إنما هو غنىً قديم، لأنك يـا رب الغني في ذاتك، فليس لك كالناس حالتان: حـالة فقرٍ وحالة غنىٰ، ولكنهـا حالة واحدة؛ فأنت الغنيّ عن كلّ خلقـك وكل خلقك محتاجون إليك. الغنى سر ذاتك والحاجـة سر ذاتهم ﴿**يا أيها الناس أنتـم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد**﴾[1].

«**اللهمَّ إني أسألُكَ قليلاً مِن كثيرٍ مع حاجَةٍ بي إليهِ عَظِيمـةٍ، وغِناكَ عنهُ قديمٌ، وهوَ عِندي كثيرٌ**» وإن كـان لا يمثل شيئاً أمـام خزائنك وأمـام قدراتك وأمـام ملكك «**وهو عليك سهلٌ يسير**» إنّه لا يكلفك شيئاً يا رب، لأنّك تخلق ما تُعطي، كما أنت تخلق من تعطي.

ما هو الخط الذي يطلبه الإنسان من ربّه؟

اللهم ان هناك قضايا أساسية في حياتي: أنـا يا رب المذنب، فقد كانت حياتي مليئة بالذنوب التي أتحرك بها في مواجهتك. أنا يا رب الخاطىء الذي أحاطت به خطاياه. أنا يا رب الظالم الذي ظلم نفسه. وها أنذا يا رب أطلب منك أن تعفو عن ذنبي، وأطلب منك أن تتجـاوز عن خطيئتـي، وأطلب منك أن تصفَح عن ظلمـي. إنني أقف بين يديك يـا رب وهذه هي الحاجات الأسـاسية عنـدي، وأريد منك أن تحررني من ضغط هذه الحاجات لأنني لا أطيق أن أقف بين يديكَ غـداً وذنوبي تُثقل ظهري، وخطاياي تُحيط بي، وظلمـي لنفسي يـرهق مصيري، وأعمالي القبيحـة تفضحني على رؤوس الأشهاد، أريد العفـو عن ذنبي والتجاوز عن خطيئتي والصفح عن ظلمي والستر على

---

(١) فاطر؛ ١٥.

قبيح عملي، وأنا أحسّ يا رب أنّك أعطيتني ذلك كلّه لأنك الرب العفو الغفور، المتجاوز، الحليم، الساتر.

***

«اللهمَّ إنَّ عَفْـــوَكَ عن ذَنبي، وتَجاوُزَكَ عن خَطيئَتي، وصَفْحَكَ عن ظُلْمي، وسَتْرَكَ على قبيحِ عملي، وحِلْمَكَ عن كثيرِ جُرْمي، عندما كانَ من خَطَأي وعَمْدي، أطمَعَنِي في أنْ أسألَكَ ما لا أستوجِبُهُ منكَ الذي رزقتَني من رحمتِك، وأرَيتَني من قُدْرَتِك، وعَرَّفتَني من إجابَتِك، فَصِرتُ أدعوكَ آمِناً، وأسألُكَ مستأنِساً، لا خائِفاً ولا وَجِلاً، مُدِلاً عليكَ في ما قصدتُ فيه إليك، فإن أبْطَأَ عني عَتَبْتُ بجَهلي عليك، ولعلَّ الذي أبطأَ عني هو خيرٌ لي لِعِلْمِكَ بعاقبةِ الأمور».

أنت اطمعتني فيك

«اللهمَّ إنَّ عَفْوَكَ عن ذَنبي، وتَجاوُزَكَ عن خَطيئَتي، وصَفْحَكَ عن ظُلْمي، وسَتْرَكَ على قبيحِ عملي»، هذا التاريخ الذي عشت معه بين يديك وأنا أحسُّ بعفوك من خلال وعدك، وتجاوزك من خلال كرمك، وصفحك من خلال حلمك، وسترك من خلال رحمتك.

«وحلمك عن كثير جرمي» لقد كنتُ المجرم في أكثر من موقع، في ما قمت به من ألوان الجرائم التي حذرتني منها، ومع ذلك حلمت عني يا رب فلم تؤاخذني بجرمي، ولم تعاقبني بما قمت به.

«عندما كان من خطأي وعمدي»، فتاريخي الذي كنت أخطىء فيه وأتعمد الخطأ جعل عندي حالة طمع أكثر؛ **«أطمعني في أن أسألك»**، لأن العطاء ـ خصوصاً مع الذنب ـ يوحي للإنسان بالإمتداد في طلباته لأنه يشعر أنَّ الربّ المعطي لا يتوقف عند أخطاء من يعطيه، فهو يعطي من سأله، ويعطي من لم يسأله، ويعطي من أطاعه، ويعطي من عصاه، وذلك ما يوحي للإنسان بالطمع في أن يطلب أكثر، **«اطمعني في**

أن أسألك ما لا أستوجبه منك»، ما هو الذي أسألك مما استحقه؟ لأنّه ليس عندي ما يجعل لي الإستحقاق، لأن الذين يستحقون الرحمة والمغفرة والحلم والستر والعفو هم المطيعون، هم المتقون، هم السّابقون، هم الذين يتحركون في خط القرب من الله سبحانه وتعالى، وأنا العبد الخاطىء، لذلك «**أطمعني في أن أسألك ما لا أستوجبه منك الذي رزقتني من رحمتك، وأريتني من قدرتك، وعرّفتني من اجابتك**» لقد أريتني الكثير يا رب، ورزقتني الكثير من رحمتك في ما رحمتني به من وجودي ومن كلّ الجوانب الطيبة في هذا الوجود. «**وأريتني من قدرتك**» في ما صرفت عنّي من بلاءٍ ومصائب وأعداء من خلال قدرتك، «**وعرفتني من إجابتك**» فقد كنت أدعوك في الصغير والكبير من حاجاتي، وكنت تجيبني على الرغم من خطاياي.

انفتاح العبد على ربه

«**فصرت أدعوك آمناً، وأسألك مستأنساً، لا خائفاً ولا وجلاً، مدلاً عليك في ما قصدت فيه إليك**»؛ يقول يا رب، أنا عندما رأيت كرمك، ورحمتك، وقدرتك، واجابتك، وأنا لا أستحق ذلك، صارت عندي حالة دلال، فصرت أشعر كما يشعر الإنسان الذي بينه وبين شخص آخر «وحدة حال»، فعندما أقف بين يديك لا أقف وقفة الخائف، ولا أقف وقفة الوَجِل، بل أشعر بالجرأة، والإنفتاح، والإنبساط، وأتمادى في أن أسألك كل شيء، كالإنسان الذي يعيش وحدة حال بعيداً عن كل أصول اللياقة، وبعيداً عن كل أصول الأوضاع التي يتحرك فيها.

«**فصرت أدعوك آمناً وأسألك مستأنساً لا خائفاً ولا وجلاً مُدلاً عليك**» لست خائفاً من العذاب، ولا من جهنم، ولا خائفاً أن تردّني. أنا، يا رب، صرت اتحدث معك مثل إنسان يتحدث مع آخر له دالة عليه «**مدلاً عليك فإن أبطأ عني عتبْتُ بجهلي عليك**» طلبت حاجة ولم تحدث، طلبت أن تشفيني من مرض ولم أشف، طلبت أن تؤمنني من خوف ولم تؤمنّي، عند ذلك اغضب وأعاتبك؛ لماذا يا ربِّ لم تعطني؟! لماذا لم تعافني؟! لماذا لم ترزقني؟! لماذا لم تؤمنّي؟! ماذا عملت معك؟ وانطلق بحرية في العتاب كشخص عنده حق ويعاتب آخر عليه الحق في هذا المجال، ولكن أنا العبد

الذي أعيش ضيق الأفق، ولا أفهم حقائق الأشياء، لأنّي أتصوَّر كل ما يخطر في ذهني من طلبات، وكل ما أعيشه من حاجات أنه في مصلحتي، ولكني إذا كنت أعرف جانباً مما يصلح أمري، فإنك، يا ربِّ، تعرف كل الجوانب، وإذا كنت ازعم ان بعض الأشياء فيها مصلحة في الحاضر، فقد تكون لي مفسدةً في المستقبل، وقد ينفعني الشيء بحسب بداياته، ويلذذني في أوائلهِ، ولكنه قد يضرني في أواخره وفي نهاياته. وأنت، يا ربِّ، الذي خلقتني وتعرف ما يصلحني أكثر مما أعرفه ويعرفه الناس، وتعرف ما يفسدني أكثر مما أعرفه ويعرفه الناس، لأنك، يا ربِّ، تعرف كل عناصر حياتي في الداخل وفي الخارج، وفي كل امتداداتها في المستقبل.

«**ولعلَّ الذي أبطأ عني هو خيرٌ لي**» لماذا؟ «**لعلمك بعاقبة الأمور**»، لأني كإنسان أفكر في البدايات، وأنت تعلم العواقب، وأفكر في ظواهر الأمور وأنت تعرف بواطنها، وهذا هو الفرق بين علم العبد وبين علم الرب، وبين وعي الإنسان لحاجاته وبين معرفة الله بحاجاته.

شروط الدعاء

والنقطة التي أثرناها في البداية عن عناوين الدعاء، تفسر لنا مسألة الأدعية غير المستجابة، لأن الله تكفل للإنسان بالإستجابة ﴿**وإذا سألك عبادي عني فاني قريبٌ أجيبُ دعوة الداعِ إذا دعانِ**﴾[1] أيضاً نحن نقرأ في الخطبة الواردة عن النبي (ص): «دعاؤكم فيه مستجاب» ويسأل البعض: لماذا لم يستجب الله فأنا دعوت: اللهم ارزقني ولداً، فلم يأتِ! اللهم اقضِ ديني، ولكن بقي ديني على حاله! اللهم اصرف عني كيد فلان، ولم يحدث! اللهم انصرنا على القوم الكافرين ولم يستجب! إذاً كيف يقول ﴿**ادعوني استجب لكم**﴾[2]؟ فما هي حقيقة الأمر؟

---

(١) البقرة؛ ١٨٦.

(٢) غافر؛ ٦٠.

طهارة اللسان

بعض الأحاديث يقول إنّ للدعاء شروطاً؛ وقد رُوي عن الإمام الصادق (ع) قصةٌ تقول[1]: «ان رجلاً كان في بني «إسرائيل» قد دعا الله أن يرزقه غلاماً يدعو ثلاثاً وثلاثين سنة، فلما رأى أن الله تعالى لا يجيبه، قال: يا رب أبعيد أنا منك فلا تسمع مني أم قريب أنت فلا تجيبني؟ فأتاه آتٍ في منامه فقال له: انك تدعو الله بلسان بذيء وقلب غلِق (عات) غير نقي وبنية غير صادقة. فأقلع عن بذائك، وليتق الله قلبك، ولتحسن نيتك، قال: ففعل الرجل ذلك فدعا الله عزّ وجل فوُلِد له غلاماً».

همزة الدعاء

إن ذلك يحتاج إلى عملية إصلاح؛ ولذا فما كان من هذا الرجل إلا أن اصلح لسانه فنظفه من كلّ الكلماتِ البذيئة، وأصلح قلبه، وجعل التقوى في داخله، وصدق في نيته، فاستجاب الله له دعاءه ـ كما يقول الحديث ـ بعد عشرين سنة.

من خلال هذا الحديث نفهم أنَّ لاستجابة الدعاء شروطاً، فقد لا يستجيب الله دعاءنا لأن المنطلق الذي انطلق منه الدعاء لا يصلح لأن يرتفع إلى الله، كأن تقدم لشخص طعاماً لذيذاً من ألذّ ما يكون بصحن من أوسخ ما يكون، بطبيعة الحال يرفضه.

تصور انك قدمت أكلة لذيذة لأحد الأشخاص لكن في الصحن الذي قدمت له الطعام فيه، ديدان وحشرات وقذارات وأوساخ. فما رأيك؟ هل يتقبلها ويعتبرها هدية؟ وهكذا الدعاء: اللسان هو الصحن الذي يرتفع منه الدعاء، وإذا كان اللسان مليئاً بالحشرات ـ والكلمات البذيئة هي حشرات، والكلمات البذيئة والفاحشة سباب وشتائم وما أشبه ذلك ـ فكيف تضعه في هذا الصحن، الصحن اللساني تضع فيه دعاء الله سبحانه وتعالى.

---

(١) بحار الأنوار؛ ج ٩٣ ـ ص ٣٧٠.

طهارة القلب

ثمّ انّ الدعاء ينطلق من القلب قبل اللسان، وإذا لم يكن في قلبك تقوى فإنَّ الدعاء ينطلق من قلبٍ فاسق، ومن قلبٍ حاقد!.

عندما تبعث شيئاً للفضاء، ألا تحتاج لقوة دافعة لتدفعه؟ فاذا لم يكن هناك قوة قلب تدفع الدعاء، ولم تكن هناك قوة لسان، فكيف سيصعد؟ وهكذا، فالنية هي التي تهيّىء جوّ الدعاء.

تأخير الإجابة لمصلحة الداعي

وهناك جوانب أخرى لعدم استجابة الدعاء، هي أنَّ الله لا يرى لك مصلحة في ذلك، فمثلاً حينما يدعو انسان على انسان وهو يكرهه، لا يعني ان الله سيستجيب دعاءه، لأنه لو استجاب كل دعاء لأهلك الناس جميعاً.

ثم إننا قد نطلب أمراً شخصياً من الله عز وجل، ولكن الطلب قد يكون ضد المصلحة العامة، كأن تدعو الله لحصول أمر في غير الصالح العام.

والله منظم الكون وفق قوانين، وهناك الكثير من الأدعية المطلوب فيها ما يغاير القوانين الكونية، مثلاً قوانين الكون تفرض وضعاً معيناً، وأنت تطلب ما هو ضد قوانين الكون، فالله لا يخرّب قوانين الكون من أجلك. لأن بعض القضايا الخاصة لا بد أن تسقط أمام القضايا العامة.

وقد تتناقض الطلبات، مثل قصة هذا الشخص الذي كان عنده بنتان فزوَّج واحدة لفلاح وواحدة لفخاري يصنع الفخار، ذهب لزوجة الفلاح يسأل عن حالها فقالت له: الحمد لله، اننا قد زرعنا الأرض فادعُ الله لينزل لنا المطر لكي ترتوي الأرض وتخرج الثمار بشكل جيّد. ثم ذهب لزوجة الفخاري، فقالت له: الحمد لله، صنعنا الكثير من الفخار فادعُ الله أن تصفى السماء حتى يجف الفخار، فتحير الوالد في امره كيف

يدعـو؟ إذا دعى الله أن ينزل المطـر أضر الفخاري، وإذا دعى الله أن يحبـس المطر أضر بالفلاح . . فترك الأمر لتدبير الله سبحانه وتعالى .

وهناك بعض الناس يتمنى على الله سبحـانه وتعالى أن يرزقه ولداً ذكـراً وقد يرزقه الله بنتاً، فيستاء ويغضب ويقول كيف لم يستجب الله دعائي، وقد تأتيه بنت في المرة الأولى والثانية والثالثة .

هنالك شخص رزقـه الله بالبنات فـرآه شخص آخر مستاءً مع انـه شخص مؤمن . قال لـه : لو أنَّ الله قـال لك قبل أن تولـد ابنتك : هل تختار لنفسك أو أنـا أختار لك؟ فماذا تقول؟ فقـال له : أقول : يا ربِّ أنت ربي وأعلم بمصلحتي فـاختر لي أنت، قال : فإنَّ الله قـد اختـار لك فاقبـل ما اختـاره الله لك، فقـد تكـون هناك مصلحـة في هـذا الموضوع .

هناك كثير من الطلبـات قد لا تكون فيهـا مصلحة شخصية للإنسـان على مستوى النتائج، وان كـانت فيها مصلحة على مستوى البـدايات . . قد تكـون بعض الطلبات مضرّة بالناس الآخـرين، والله، الرحمن الرحيم، لا يقبل أن يضرّ إنسانـاً من أجل مزاج إنسان آخر، وقد تكون بعض طلباتك الشخصية تختلـف عن القانون العام الذي تريده البشرية، فالله لا يدمر مصلحة البشرية من أجلك .

الله على كلّ شيء قديـر، ولكن ليس معناه أن يلغي القوانين ويخلق قوانين جـديدة، وليس معناه أن يخلق لكلّ إنسان قانوناً . فبعض الحالات ليس نقصاً في قدرة الله، ولكن بـاعتبار أنَّ كلَّ مـا في الحياة محدود، فعنـدمـا تريـد أن تفتح من جانب يجب أن تسـدّ الجانب الآخر، فالحياة ليست مطلقة، قدرة الله لا تحدّ ولكن ما تتعلق به القدرة محدود .

هنـالك شخص جاء لـلإمام الصـادق (ع) قـال له : هل يستطيع ربك أن يـدخل الدنيا في بيضـة ولا تصغر الدنيا ولا تكبر البيضة؟ فهل هـذا ممكن لأنكم تقولون إنَّ الله على كل شيء قدير؟ قال ان الله على كل شيء قديـر، انظر بعينيك إلى الكون ماذا ترى؟

قال لـه : أرى سماءً وأرضاً وجبالاً وناسـاً . . الخ قال له : الله الذي قـدر أن يجمع صور كل هـذه الأشياء هـو على كل شيء قديـر، ولكن هذا لا يكـون؛ فالعجـز في المقدور. هناك أشيـاء ليست فيها قـابلية فعندمـا تقول : انـا مهندس وعنـدي قدرة على أن أبني ناطحة سحاب على أبدع ما يكون، وأنت تقول له : أنا عندي خمس سنتمرات وأريد أن أعمر عليها ناطحة سحاب، يقول لك : لا أقدر على ذلك؛ ليس ذلك نقصاً في قدرته الهندسيـة بل نقص في المقدور، الخمس سنتمرات ليس فيهـا قابلية لتبني عليهـا شيئاً، فهذا يسمّونه عجزاً في المقدور، لا عجزاً في القادر.

ليس معنى ذلك انَّ الله لا يقـدر، ولكن الله حكيـم، قـادر من حيث هـو حكيم، ومن حيث هو رحيم، ولذا لا بد أن تتحرك قدرته في خط رحمته وفي خط حكمته.

هذا هو الذي نفهمـه من الدعاء؛ إنك إذا لم يُستجب دعاؤك فعليك أن لا تعتبر أنَّ الله عـاقبك، وأنَّ الله لم يرحمك، ولكن فكـر: ان مـا لم يستجب الله لك فيـه قد يكـون لمصلحة «**فـان أبطأ عني عتبت بجهلي عليك، ولعلّ الـذي أبطأ عني هـو خير لي، لعلمك بعاقبة الأمور**» وفي القرآن ﴿**فعسى أنْ تكرهوا شيئـاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً**﴾[1] ﴿**وعسىٰ أن تحبوا شيئاً وهو شرٌّ لكم**﴾[2].

ولذلك فالأشيـاء لا تعرف من بداياتها ولا تعرف من ظـواهرها، ومن ثمَّ يجب أن لا يستعجل الإنسـان في الحكم على الأشيـاء ، ولا يستعجل حسم الأشيـاء؛ فمثـلاً قـد تحدث بعض الأمـور في الحياة الـزوجيـة، رجل وامـرأة يتزوجـان فيـواجهان المشـاكل، فيعتبران هذا شراً يحسم بالطلاق، ويستعجلان حسم الأمر، مع انهما لو صبرا، ودرسا، وواجها القضايا من جميع جهاتها، لاكتشفا أن ما هو شرّ قد يختزن في داخله الخير.

ليس كل ما تحب خيراً، وليس كلّ ما تكـره شراً، ومن هنا، يحتاج الإنسان، دائماً، أن يفكر في المسـائل تفكيراً دقيقاً وعميقـاً، وتفكيراً يربط الحاضر بـالمستقبل. وكم من

---

(١) النساء؛ ١٩.
(٢) البقرة؛ ٢١٦.

أمور استعجلنا حسمها من خلال بعض السلبيات التي تحققت، ثم ندمنا على ذلك لأننا رأينا انَّ هناك إيجابيات مستقبلية لم تنكشف إلا بعد ذلك؟.

وهنالك نقطة يجب أن نفكر بها: في الحياة كلها ليس هنالك خير مطلق ولا شرٌّ مطلق؛ الخير يختزن بعض الشر ولكن بنسبة قليلة، والشر يختزن بعض الخير. حتى قضية الحلال والحرام: هل يعقل أن يكون في ما يحرمه الله خير.

الله يقول ﴿**يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثمٌ كبير ومنافع للناس**﴾[1] إذاً لماذا حرمهما الله إذا كانت فيها منافع؟ ﴿**وإثمهما أكبر من من نفعها**﴾[2].

يجب أن لا يستعجل الإنسان حسم الأمور لمجرد انه يلتقي بسلبياتها، ولا يستعجل أيضاً الدخول في الأمور لمجرد أنّه يواجه إيجابياتها، بل عليه أن يدرس عواقب الأمور كما ورد عن رسول الله (ص) في ذلك الشخص الذي طلب منه أن يوصيه وكرّر طلبه ثلاث مرات فقال له: «**إذا أنت هممتَ بأمر فتدبر عاقبته فإنْ يكُ رشداً فامضه وان يكُ غيّاً فامتنع**» أدرس الأمور من خلال نتائجها ولا تدرسها من خلال مقدماتها، ففي هذا خير كثير.

* * *

«**فلم أرَ مولىً كريماً أصبرَ على عبدٍ لئيم منكَ عليَّ يا ربِّ، إنّك تَدْعوني فأوَلِّي عنكَ، وتتحبَّبُ إليَّ فابتغضُّ إليك، وتتودَّدُ إليَّ فلا أقبلُ منك، كأنّ لي التطوُّلَ عليك، ثم لم يمنَعْكَ ذلكَ من الرحمة لي والإحسانِ إليَّ والتفضُّلِ عليَّ بجودِكَ وكرمِك، فارحَمْ عبدَكَ الجاهل، وجُدْ عليه بفضلِ إحسانِك، إنّك جوادٌ كريم**».

صبر السيد على عبده

«**فلم أرَ مولىً كريماً أصبرَ على عبدٍ لئيم منكَ عليَّ يا رب**» يقول له: يا ربي، أنا عندما

---

(١) و (٢) البقرة؛ ٢١٩.

أقف هذا الموقف، بهذه الخصوصيات، وعندما أرجع لنفسي أقول: أي عبدٍ أنت أيها الإنسان؟ وأيُّ مولىً كريم هو هذا الرب؟ إنّك تعمل بكلِّ ما عندك من طاقة على معصيته، ولكنّه يعمل بكلِّ ما عنده من رحمة على الحلم عنك، وعلى العفو عنك، وعلى التجاوز عنك، وما إلى ذلك.

«وأي صبرٍ أطول، وأي زمانٍ أطول من أناتك»؟ الله سبحانه وتعالى يمدُّ لنا الحبل في الحياة فنعصي اليوم ويعطينا النعمة غداً، ونعصي غداً ويعطينا النعمة بعد غدٍ، لذلك لا بدَّ للإنسان عندما يتوقف عند هذه الكلمات أن يوبخ نفسه، أن يعرف حجم نفسه، أن يعرف موقعه من ربّه، أيُّ رب هو هذا الرب العظيم؟! وأيُّ عبدٍ هو هذا العبد؟

يقول له: أنا فتشت في الدنيا في مسألة السادة والعبيد حتى أجد إنساناً مثلي في لؤمه أمام سيّدٍ هو مثلك في كرمك فلم أجد مثل ذلك. «**فلم أرَ مولىً كريماً أصبرَ على عبدٍ لئيم منك عليَّ يا ربّ**» وأي لؤم أعظم من لؤم الإنسان عندما يتعهده الله بالنعم صباحاً ومساءً ويصرُّ مع كل هذه النعم على أن يعصي الله صباحاً ومساءً. ومظهر اللؤم منّي ومظهر الكرم منك «**انك تدعوني فأولّي عنك**» إنك تقول ﴿**وإذا سألك عبادي عني فانّي قريبٌ أجيبُ دعوة الداعي إذا دعانِ فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلّهم يرشدون**﴾[1] ﴿**ادعوني استجِبْ لكم**﴾[2] إنّك تدعوني إليك.. تدعوني إلى رحمتك، إلى لطفك، إلى دعائك، إلى أن أقدم حوائجي بين يديك، إلى أنْ أقترب منك، ولكنّي لا ألتفتُ إلى دعوتك وإنّما أتبع دعوة الشيطان في ما يسوِّلُ لي من الجحود ومن العصيان «**إنّك تدعوني فأوَلّي عنك**» ابتعد وأعرض عنك.

«**وتتحبَّبُ إليَّ فأتبغضُ إليك**» تعطيني الحب وتقول تعال إليَّ يا عبدي، تعال إليَّ لنتبادل الحب، لأحبّك كربٍّ يُحب عباده، ولتحبني كعبدٍ يحب ربه ﴿**قلْ إنْ كنتم تحبون**

---

(١) البقرة؛ ١٨٦.

(٢) غافر؛ ٦٠.

الله فاتّبعوني يحببْكم الله﴾[1] الله يدعونا ويتحبَّبُ إلينا حتىٰ نفتح قلوبنا على حبِّه، ولكننا نتبغض إليه.

كيف يتحبَّبُ إلينا الله؟ إذا أراد شخص أن يتحبب إلى شخص آخر فإنما يفعل ذلك بالهدايا، بالخدمات، بالرعاية وبكل هذه الأشياء، وكذلك الله، سبحانه وتعالى، يتحبب إلينا بنعمه، وبكرمه، وبعطفه، وبلطفه، وبكلِّ ما يحبّبه إلينا، لأنَّ ما يحبب الناس بعضهم ببعض، إنّما هو أفضال الناس بعضهم على البعض، وأيُّ فضلٍ أعظم مما يتفضل الله به على عباده؟!

أما نحن، فنتبغض إليه، كمايتبغض أحدنا إلى الآخر! مثلاً أن تمارس كل ما يجعلك بغيضاً عنده، كأن تتمرّد على هذا الإنسان، أن تواجهه بالعداوة، أنْ توالي اعداءه، أن تعادي أصدقاءه، أنْ تعصي أوامر، أن تعهد إلى كل ما يكرهه فتفعله، أو تعهد إلى كل ما يحبه فتتركه، أليست هذه هي التي تبغض بعضنا إلى بعض؟

نحن نعمل على أنْ يبغضنا الله سبحانه وتعالى؛ هو يعمل بكلِّ ما عنده من رحمة على أساس أن يتحبب إلينا، بما يقدمه من وسائل الحب إلينا، ونحن نعمل على أنْ يبغضنا الله، باعتبار أنّنا نعمل على أساس كلِّ ما يبغضنا عنده ويجعلنا مبغضين لديه في عصياننا وإجرامنا وخطايانا وكل ما يبعد عن رضى الله ويقترب من سخطه.

«**إنك تدعوني فأوَلّي عنك وتتحبب إليَّ فأتبغض إليك وتتودَّد إليَّ**» التودد الإلهي عندما يقول ﴿**وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون**﴾[2] ﴿**قلْ يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إنّ الله يغفر الذنوب جميعاً إنّه هو الغفور الرحيم**﴾[3] إنَّ الله يتودّدُ إلينا من أجل أنْ تنطلق قلوبنا بالودّ لربنا، وبالولاء وبالمحبة له، ولكننا نُعرِض عن الله سبحانه وتعالى فلا نُقبل على التوبة، ولا نُقبل على الطاعة، ولا نُقبل على القرب إليه.

---

(١) آل عمران؛ ٣١.
(٢) الشورى؛ ٢٥.
(٣) الزمر؛ ٥٣.

«إنّك تدعـوني فأوَلّي عنك، وتتحبَّبُ إليَّ فابتغض إليك، وتتـودَّدُ إليَّ فلا أقبلُ منك، كأنّ لي التطولَ عليك».

يأتي شخص يتحبب إليك وأنت لا تقبل، ويتودّد لك فـلا تقبل، يدعوك وأنت لا تستجيب، من الذي يفعل ذلك؟

في حياتنا الإجتماعية، الشخص الذي تتـودّد وتتحبب إليه وتدعوه وتعطيه كلّ شيء وهو لا يقبل، فهو شخص يـرى لنفسه فضلاً، ويرى لنفسه علواً على الآخـر، يُريد أنْ يقول له : كأنَّ لي الموقع المتقدم الذي يستعلي عليك.

ولو أن شخصـاً، تتحبّب إليه وتتودّد وتـدعوه وهـو لا يقبل، لقلت له اذهب أنت بطريقك وأنـا بطريقي، وأنا غير مسـؤول عنك، وأنا لست مستعـداً لأن أعطيك شيئاً لأني قـدمت لك كلّ شيء وأنت لم تقبل، أعطيتك الحب وأعطيتني البغض، أعطيتك الـودّ وأعطيتني البعـد، أعطيتك ودعـوتك وأنت لم تقبل. ولكن أنت يـا رب : **«ثم لم يمنعك ذلك من الرحمة لي و الإحسـان إليَّ والتفضل عليَّ بجودك وكرمك»** مع شـدّة هذا التمـرّد، وهـذا العصيـان، وهذه القسـوة منّي، مع ذلك بقيت معي الـربّ الرحيم، الربّ المحسن، فبقيت نعمتك وبقيت رحمتك، وبقي تجاوزك يتحرّك معي في كلِّ حياتي وفي كلِّ أوضاعي.

وأنـا يـا ربي أقف بعـد كلّ هـذا الجو فأشعـر انّي عبـدك الجاهـل الـذي لا يعـرف مصلحته، لا يعرف مقـام ربّه، ولا يعرف مسؤوليتـه أمام ربِّه **«فارحم عبدك الجاهل»**: ارحم جهلـه، ولا تؤاخذه بجهلـه لأنَّ الجاهل يجني على نفسه وهـو لا يعلم، والجاهل يورِّط نفسه في الهلكـةِ وهو لا يشعر. **«فارحم عبدك الجاهـل، وجُدْ عليه بفضل إحسانك»** اعطني يا رب من جـودك وإحسانك **«إنّك جواد كريم»**، فإني أتحدث إليك، كما يتحدث العبد الجاهل إلى الربّ الكريم الذي لا حدَّ لكرمه ولا حدَّ لجودِه.

ثم بعد هذه الجولة في دراسة الموقف السلبي الذي يقفه العبد من ربِّه مقابلاً بالموقف الإيجابي الذي يقفه ربُّه منه، بعد ذلك يـدخل في جولة حول صفات الله التي تتحرّك في حياة الكون كلّه وحياة الإنسان كلّه.

«الحمدُ لله مالكِ الملك، مُجري الفُلْك، مسخِّرِ الرِّياح، فالِقِ الإصْباح، ديَّانِ الدِّين، ربِّ العالمين».

الحمد لله الذي بيده كل شيء

هذه الصفات التي تجعل وعي الإنسان منفتحاً على مواقع العظمة من ربّه في ما يتصل بحياته، فنحن نتطلّع إلى الكون كلّه ثم نفكر من الذي يملك الملك كلّه؟ من الذي بيده كلّ الملك؟ انه الله، لأنَّ الله هو الذي خلق الخلق كله، وخلق ما يملكه الخلق، هو ملّكنا ما نملك، وهو مالكنا من حيث هو خالقنا، وهو مالك ما نملك لأنه هو الذي أعطانا ما نملك، لذلك فإنَّ كلَّ مُلكٍ هو مستمدٌّ من ملكه ولا يملك أحد معه شيئاً.

و إذا كان الله هو مالكنا وهو مالك ما ملّكنا، فكيف يجب أن نتصرّف معه إذا أردنا أن يعطينا ملكاً جديداً ونعمةً جديدة؟

هل من المعقول أن تتنكّر لمالكك وتتنكر لما يملك ما تملك؟

إنَّ ذلك لا يتوافق مع العقل الذي يقول للإنسان إنَّ عليه أن يتصرف حسب مصلحته في ذلك كله.

و إذا فهمنا أنَّ الله هو مالك الملك، فعلينا أنْ نعمل على أن يتصاغر في وعينا كلُّ من يدعي الملك لنفسه لأنَّ ملك كلِّ هؤلاء هو ملك عَرَضِي زائل، ﴿**كلُّ من عليها فان* ويبقىٰ وجهُ ربك ذو الجلال والإكرام**﴾[1] ﴿**قلْ اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممّن تشاء**﴾[2] وهذا واقع نعيشه في الحياة، هناك أناس لا يملكون، ولكن الله قد يعطيهم الملك، وهناك أناس يملكون ولكن الله قد ينزع عنهم الملك، ولذلك ينبغي من خلال وعينا لهذه الصفة أن يكون توجهنا لله من خلال طبيعة موقعنا من الله، سبحانه وتعالى، في قضية الملك.

---

(١) الرحمن؛ ٢٦، ٢٧.

(٢) آل عمران؛ ٢٦.

«**مجري الفلْك**» الفلك: هي السّفن التي تجري في البحار، هـو الذي يجري الفلْك في البحر من خلال القوانين التي أودعها فيه ممّا يسهّل سير السفن، ومن خلال ما ألْهم الله الإنسـان في ترتيب السفن على الطـريقة التـي يمكن للإنسـان أن يستخدمهـا في قطع المسافات على المواقع المائية.

«**مُسخِّر الرياح**» هنالك نظام للريـاح، هذه الريح تذهب عـاصفة لهذه المنطقة، وهذه الريح تذهب خفيفة لتلك المنطقة، هـذه تذهب باردة لهذه المنطقة وتلك معتدلة وأخرى حارّة، الله هو الذي يُسخر الريـاح، باعتبار أنَّ الله خلق في الكون قوانين وقوى تتكفّل بتنظيم مسألة الرياح، فهي ليست أمراً فوضوياً، حتىٰ عندما يخيل إليك أنّه أمرٌ غير خاضع لقاعدة. إنَّ العواصف تخضع لقوانين كما أنَّ الرياح الرخيّة تخضع لقوانين، وذلك بيد الله، سبحانه وتعالى، في كلّ المجالات.

«**فالق الإصباح**» الذي يفلق الإصباح أي يخرجه من قلب الليل.

من الذي يعطينا الضياء؟ ومن الذي يُخرج النور من قلب الليل؟

إنّه الله، سبحـانه وتعـالى؛ فإذا انطلقنا في كل يـوم نصبح فيـه على النور بعـد ليلٍ طويل، فانَّ علينا قبل أن نرى النور في أوّل انطلاقتهِ من الأفق أنْ نعرف ان الله هو الذي اطلقه، وان الله هو الذي فلق الكون فاخرج النور من داخله.

«**ديَّان الدين**» هو الديان، هو الحاكم في الـدين، هو مشرِّع الدين وهو منفـذه وهو الحاكم فيه.

«**ربِّ العالمين**» فهو الربُّ المهيمن على العوالم كلّها وعلى الواقع كلّه.

وبعد ذلك؟ بعد أنْ يستوعب الإنسان هذه الصفات التي تـوحي إليه بعظمة الله، ينطلق الإنسان في صفات أخـرى تتصل برعاية الله للإنسـان في أمورهِ على الرغم من أنَّ الله، سبحانه وتعالى، هو القادر، وهو العالم، ولكنَّه الربُ الرحمن الرحيم.

***

«الحمدُ لله على حلمِهِ بعد علمِه، والحمدُ لله على عفوهِ بعد قدرتهِ، والحمد لله على طول أناتهِ في غضبه وهو القادرُ على ما يريد».

يمهل ولا يهمل

في هذه الفقرات يلتفت الإنسان إلى نفسه، ويلتفت، في الوقت نفسه، إلى معاملة ربّه له، فالله، سبحانه وتعالى، يعلم ما نسرُّ وما نُعلن ممّا نختزنه في داخل نفوسنا من النوايا السيئة، ومن الأفكار الشرّيرة، كما إنَّه يعلم ما نُسرّ وما نُعلن في ما يخفىٰ على النّاس، أو في ما يظهر للنّاس، فهو المطّلعُ على كلِّ شيء، يعلم خائنة الأعين وما تُخفي الصدور، ومع ذلك فإنَّ الله يَحلمُ عنّا فلا يؤاخذُنا بذنوبنا، بل يسامحنا ويصفح عنّا ويترك معاجَلتنا بالعقوبة.

وإذا كانَ بعض الذين يتولَّوْن المسؤولية لا يعاقبون بعض الناس، لأنّهم غير قادرين على ذلك، لأنَّ هؤلاء النّاس ليسوا في متناول أيديهم، أو أنّهم خارجون عن سلطتهم إلى سلطةٍ أخرى، فإنَّ الله هو القادر على عباده، فلا يُمكن أنْ يُعجزه أحدٌ من عباده، ولا يمكن أن يخرج أحدٌ من سلطته، ولا يمكن لأحدٍ أنْ يهربَ منه، ومع ذلك، فإن الله يعفو مع قدرته على العقوبة.

وعندما نُذنب ونقوم بالجريمة ونمارس الخطيئة، فإنَّ الله يغضب من ذلك، ويسخطُ على الذين يُجرمون، ويُذنبون، ويُخطئون، ولكنه يُمهلنا طويلاً. والله في غضبه ليس كحال الإنسان عندما يغضب، فالإنسان إذا غضب، وتحرّكت انفعالاته، وثارت عصبيّته، فإنّه يبادر بالتنفيس عن غضبه، وبتفجير غضبه بكلامٍ يقوله أو بعملٍ يعمله. ولكنَّ الله، سبحانه وتعالى، يطّلعُ على عباده وهم يُخطئون، وهم يحاربونه في السرِّ والعلن، وهم يتحرّكون بعيداً عن مواقع رضاه ومواقع طاعته، ولكنّه يتأنّىٰ ويُمهل عباده. ومن هنا، فعندما نتطلّع إلى الله وهو يحلمُ عنّا، وهو يعفو عنّا، وهو لا يُعاجلنا بتحريك غضبهِ ضدّنا، فإنَّ علينا أن نحمدَ الله على ذلك، لأنَّ ذلك يُمثّل نعمةً من الله علينا.

إنَّ حِلم الله عنّا نعمةٌ كبيرة، وإنَّ عفو الله عنّا نعمةٌ كبيرة، وإنَّ إمهال الله لنا نعمةٌ كبيرة، لأنَّ ذلك يجعلنا بعيدين عن عقوبته، ويجعلنا ننفتح على إمكانات التوبة والتراجع عن الذنب، الذي يزيل عنّا كلّ آثار المعصية وكلَّ آثار الخطيئة.

* * *

«الحمدُ لله خالقِ الخلق، باسطِ الرّزق، فالقِ الإصباح، ذي الجلالِ والإكرام، والفضلِ والإنعام، الذي بَعُدَ فلا يُرى، وقَرُبَ فشَهِدَ النَّجوى، تباركَ وتعالى».

الله مسبب الأسباب

وهنا تنفتح على صفات الله من خلال ما تتمثلهُ في حياتك، فأنت تعرف الله من خلال ما تشاهده وتراه، فأنت عندما تتطلّع إلى ما حولك، وترى الناس يتوالدون، ويتكاثرون، ويموتون، ويحيوْن، والحيوانات تتوالد وتتكاثر على الرغم من أنها تموت وتفنى، والنبات يموت في وقتٍ ويُخلق في وقتٍ آخر، وهكذا الجبال، والأنهار، والبحار، والكواكب، والشمس، والقمر، وكلّ شيءٍ يمكنُ لك أنْ تتعرّفه بما أعطاك الله من هذه الحواس التي تتعرّف فيها الأشياء، فقد زوّدنا الله بالبصر الذي نرى به الأشياء المرئية، وزوّدنا بالسمع لنسمع به الأشياء المسموعة، وزوّدنا باللّمس الذي نلمس به، وزوّدنا الله بالشم الذي نتعرَّف به ما يُشم، وبالذوق لنتعرّف به ما نتذوّقه، إضافةً للعقل الذي ندرك به الأشياء.

ونتطّلع إلى كلّ هذه المخلوقات، فنرى أنّها لم تخلق نفسها لأنَّ الشيء لا يمكن أن يتقدّم على نفسه ليخلق نفسه، ولم يخلقها شيءٌ ممّا حولها ومعها، لأنَّ كلّ شيء مخلوق لله، فلا يخلقُ شيءٌ شيئاً حتىٰ لو كان سبباً لوجوده، فأنت لم يخلقك أبواك وإن كانا وسيلة وجودك، لأنَّ الله هو الذي وضع في النُّطفةِ سرَّ الحياة وسِرَّ النموّ، وهو الذي خلق كل هذا النظام في التوالد والتناسل.

تماماً كما هي الأرض، فالله هو الذي خلق النبات بقدرته، وإنْ كان الفلاّح قد بذر

البذرة، لأنَّ الله هو الـذي وضع قانون الإنبات وهـو الذي خلق البذرة، وهكـذا حركة النبات وتفاعلهـا مع الأرض، والماء، والهواء، ومع كلّ العناصر. . الله خلق كلَّ شيء، ودور الإنسان إنما هو دور تنفيذي للنظام الذي خلقه الله سبحانه وتعالى.

«**الحمد لله خـالق الخلْق باسـط الرّزق**» وترى أنَّ النّـاس يعيشون، ويجدُ كـلُّ واحدٍ طريق رزقـه، وأنَّ الحيوانات تعيش في أعماق البحار، وفي آفـاق الفضاء، وعلى جنبات الأرض، ويجد كلّ واحدٍ منها رزقه، وترى النبات كيف يجد رزقه، وهكذا البحار كيف تتجدّد ولا تتبخّـر، وتجد رزقها في المطـر والأنهار التي تصبُّ فيهـا. وهكذا فهو بـاسط الرّزق، يبسط الرّزق لكلّ عباده مهما تكاثروا.

قال شخصٌ للإمام علي (ع)، في ما يُروىٰ عنه، وهو يستغرب عدد الناس لا يحصى منذ أنْ خلق الله آدم، وربّما يقول بعضهم: قبـل آدمكم هذا آلاف الآدميين إلى أن يرث الله الأرض. . ، فكيف يحاسبهم؟ فأجابـه الإمام جواباً لطيفـاً، قال: «**كما يرزقهم على كثرتِهم**».

إنَّ في الكرة الأرضيـة ـ الآن ـ مليـارات من البشـر، منتشرين في كلّ أنحاء الأرض، ومصادر رزقهم تختلف، وكذلك أوضاعهم وألوانهم وأشكالهم، فكيف ينظّم الله عملية الرزق بحيث لا يحجب عن أحدٍ رزقه؟ الحيوانات أيضاً، كيف يرزقها الله؟

عندما ترى أفلام البحر وصور البحـر؛ ملايين المخلوقات السمكيّة في البحر، كيف يرزقها الله؟

كذلك الحشرات التي لا تُدرك بالعين المجرّدة، إضافة إلى كلّ الحيوانات الموجودة في العالم. كيف يرزقها الله؟

«**الحمد لله، خالق الخلْق، باسـط الرّزق، فالق الإصباح**» هو الذي يُخرجُ الإصباح من قلب الظلمة، بعد أن يكون الجوّ ظلاماً ويكون الليل مطبقاً.

كيف يطلع الفجر؟ إذا راقبنا الفجر، نرى لمعة تظهـر، ثم تتوسّع وإذا بالكون يتحوّل إلى صباح وإلى نهار.

من الذي فلق الإصباح؟

فلقَ البحر أي شقَّهُ؛ الله يشقُّ الظلام ويُخرج الإصباح من قلب الظلام.

«**فالق الإصباح ذي الجلال والإكرام**» وأيُّ جلالٍ أعظمُ من جلالـهِ والخلق كلُّه دليل جلاله؟ «**ذي الجلال والإكرام**» لهُ كلُّ الكرامة ومنه كل الكرم والفضل، في ما يتفضّل به على عباده، والإنعام في مـا يُنعم به على عباده. وهذه الصفـات ليست صفات غيبية، بل هي حسّية بآثارها، فأنت تستطيع أن تعرف الله من خلال الجو المحيط:

يُشرق عليك الصباح فتتساءل من الذي فلق الصباح من قلب الظلام؟

وترى النّـاس يتحرّكون في أرزاقهم، وتـرى كلَّ الموجودات تتّجه إلى أرزاقهـا، فتفكّر من الذي أعطىٰ كلَّ شيءٍ رزقه؟

ثمّ تفكّر في كلِّ المخلوقات ـ وأنت تراهـا أمامك ـ فتفكّر من الـذي أعطىٰ كلَّ شيءٍ خلقه؟

ثم تتفكّر في كلِّ النِّعَم التي تحيط بك وبمن حولك، وبكلّ الفضل الذي يُسبغهُ الله عليك، وبكلّ العظمة التي يتمثّل بها الله من خلال مواقع العظمة، فتستطيع أن تزداد إيماناً بالله، ومعرفةً بالله، من خلال ما تشاهدُه.

لكن هناك فرقاً بين نظرتين:

هناك نظرةٌ بلهاء، وهناك نظرةٌ واعية. هناك إنسان يمرّ على الأشياء مرور الأبله فلا يفهم شيئاً، وهناك إنسان عاقل واعٍ يمرّ على الأشياء فيحاول أنْ يأخذ منها فكرة. والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿**انظروا ماذاً في السماوات والأرض**﴾[1] أُنظرْ نظر الواعي بحيث تجعل نظرك وسيلةً من وسائل التثقيف والدراسة. بحيث تتوقّف عند كلّ شيءٍ تُشاهدهُ لتدرس طبيعته، وتدرس دلالاتِه، وتدرس خلفيّاته، وتدرس نتائجه.. لا تجعل نظرك جهداً ضائعاً.. استفِدْ منه. فإذا كنت اليوم لا تستفيد من نظرتك للأشياء إلا بمقدار عشرة في المئـة، فحـاول في المرّة الثانيـة عنـدمـا تُحدّق إلى الأشياء، أن نستفيـد بمقـدار

(١) يونس؛ ١٠١.

عشرين في المئة، وهكـذا حتىٰ تتكامل لك صـورة الأشياء. وإذا لم تستطع أن تصل إلى نتيجة مئة في المئـة من خلال نظرك إلى ما تـراه، فإنَّ عليك أن تعمل على أنْ تستفيد من كلّ نظرةٍ فكرةً، ثم أفكاراً.

ينبغي للإنسان أنْ يكـون تلميذ الحياة، فالحياة هي أكبر مدرسـة، فما هذه الدروس التي ندرسها في المدارس إلا دروس أشخاص تعلّموا من الحياة فكتبوا تجربتهم.

لماذا نقتصر دائماً على أنْ ندرس تجارب الآخرين؟

لماذا لا نحاول أن نَصنع تجارب ننتج منها أفكاراً؟

يستطيع الإنسـان أنْ يتعلّم، ولكن بعض النّـاس يقـول بفخـر وغرور: أنـا طـالب جامعي، أو أستاذ جامعي أو أنا عالم أو مجتهـد، أنا أعلّم الناس، أنا أفهِّم النّاس، أنا أبيع النّاس عقلاً، لا أحد يعلّمني، لا أحتاج أن يعظني ويرشدني أحد.

إنَّ الذي يفكّر بهذه الطـريقة يبدأ بالتراجع، كـالبركة التي فيها ماء ولا نبـدّل ماءها بماء آخر، فهـي ـ في آخر الأمـر ـ إذا لم تجف، تتنـاقص وتتبخّـر. أو البحـار إذا لم يأتها إمداد من المطر، ومن الأنهار، والينابيع، فإنها ستتبخر.

وهكذا علمك يتبخَّـر إذا لم تُجدِّدهُ، وتحاول أن تزيـد عليه. ألا يتعفّن الماء الـراكد؟ العلم، أيضاً، يتعفّن إذا لم تُجدِّده، كما يقول الشاعر:

إنَّ الخـواطـر كالآبـار إنْ نزحَـتْ طابتْ وإنْ يبقَ فيها ماؤها أجنا

يجب أنْ تتجدّد دائماً، فالينابيع تتجـدّد، والآبار تتجدّد، والأنهار تتجدّد، والعلم، أيضاً، يتجدّد.

كيف نستطيع أنْ نُجدِّد هذا العلم؟ أنْ يكون كلّ واحد منّا تلميذ الحياة، فيتخذ من الحيـاة مدرسـة واسعة، يقـرأ في كتـاب الكون، ويتطلع إلى الشمس وإلى القمـر، وإلى البحار والأنهار، ويتطلع إلى الناس من حوله، يتطلع إلى كل ذلك بتأمل.

هنالك الكثير من الحالات يتعلـم فيها أستاذ الجامعـة من أصغر تلميـذ عنده، لأن

كل إنسان في الحياة له تجربته؛ طفل في بعض الحالات عنـده تجربة ليست موجودة عند من هو في سنّ الخمسين.

إذهب واجلس مع الفلاح وأنت في كلية الـزراعة، أو اجلس إلى البنّاء وأنت في كلّية الهندسة، تجد أنّك تستطيع أن تتعلّم من خبرة الفلاح ما قـد لم تتعلمه في كلية الزراعة، وتستطيع أنْ تتعلّم من خبرة البنّاء أكثر ممّا قد تتعلّمـه في كلّية الهندسة، لأنَّ هناك تجربة حيّة، وفي هـذا المجال يقـول علي (ع): «**في التجـارب عقلٌ مُستأنف**» أي أن التجربة تعطيك عقلاً جديداً.

ومن هنا، عندما يتحدّث الناس إليك، وعنـدما تسمع الناس يتحدثون، أو عندما تـرى الناس يتحـرّكون، اعتبر هـؤلاء موضع دراسـة، فقد تستفيـد من أسلوب هـذا في الكلام، وقد تستفيد من تجربة هذا في إقامة العـلاقات، وقد تستفيد من فكر هذا في ما يحملـه من فكر. وهـذا هو النظـر المنفتح الذي يحاول أنْ يجعل من الأشيـاء التي يراهـا موضع دراسة.

يقال إن أحد العلماء الكبار ـ من المراجع المجتهدين في النجف ـ كان يُلقي محاضراته على العلماء المجتهـدين، وهـذا ما يسمّـونـه بـدرس الخارج، وهذه الـدروس يحضرهـا الأشخاص الذين ربما يكون قـد مضى على وجودهم في الحوزة عشرون سنة، كما يحضر فيها بعض الأشخاص الذين يتابعون دراستهم منذ وقت قريب.

والطريقة المتبعة في الدراسات الحوزوية في درس الخارج، ان الأستاذ يلقي محاضرته، وإذا أراد أحد الطلاب، في أثنائهـا، أن يعترض على شيء فإنه يقف ويناقش الأستاذ، ثم يتابع الأستاذ درسه.

وفي بعض الحالات كان يأتي بعض الطلاب الذين انتهوا لتوهم من دراسة الكتب، فيعترض أحـدهم على الأستاذ الـذي هو مـن المراجع، ويستمع له الأستـاذ ثم يجيب. فقـال بعض التلامـذة المجتهدين لأستـاذهم: أنت تستمع للشخص الذي لـه قابليـة علمية، بـاعتبار أنّه ربّما تكون عنـده فكرة جديدة أو منـاقشات عميقة، أما هـذا فهو

جديد، ويحضر درسك لأوّل مـرة، فهو لم يتمكّن من العلم بالطريقـة التي يُمكن له بها أنْ يُعطي فكرة عميقة ومهمّة، فلماذا تستمع إليه؟

أجابهم: العلـم ليس دائماً بالتعلم، فقـد يكون نوراً يقـذفه الله في قلب مـن يشاء، فربما يكون هنـاك شخص عنده صفاء وروحانيـة وانفتاح على الله، فيُلقي الله الفكرة في قلبـه ولا يلقيهـا في قلب الإنسـان ذي الخمسين أو الستين سنـة، إذا كـان مـرتكبـاً للمعاصي، لأن المعاصي تغلق باب المعرفة، ولذلك، فأنا استمع إليه، لعل الحق يكون على لسانه.

يمكن أن تجد الحكمـة أو الحقيقـة أو الفكـرة عنـد إنسـانٍ لا يتمتّع بقـدرٍ كبير من العلم، ولا تجدها عنـد آخر، لأن حركـة الأفكار قد تـرتبط بصفاء النّفس، وقـد ترتبط بروحانيـة النّفس، وقد ترتبط بالجهـد العلمي. ومن هنا، على الإنسان أنْ لا يستخفّ بأحد.

هناك حديث يقول (خذ الحكمة ولو مـن أفواه المجانين) ترى شخصاً بلا عقل لكنه قد يتكلّم كلمة فتكون حكمة، وربّما يقول الطفل كلمة لا يقولها غيره.

الإنسان الذي يُرتّب وضعه في الحياة على أنْ يتعلم الحكمة أنّى وجدها، فإن معرفته وخبرته وحكمتـه ستكون في تطور دائم. ولكنَّ الإنسـان الذي يعتبر انّـه قد ختم العلم وانتهىٰ وبقي عليه أن يُعلِّم النـاس ولا يتعلَّم منهم، هذا الإنسان يبدأ بـالتراجع، لأنّه لن يستطيع بعد ذلك أن يتجدَّد في علمه.

لذلك نحن عندمـا نقرأ هذه الكلمات «**الحمد لله خالق الخلق، بـاسط الرّزق، فالق الإصباح، ذي الجلال والإكـرام، والفضل والإنعام**» فلنحـاول أنْ لا نكتفي بأنْ نتكلّم بهذه الكلمات حتىٰ نحصلَ على ثواب الدعاء، ولنحاول عندما نقول «**خالق الخلْق**» أنْ نُطلق كلَّ وعينا ونظـرنا في كلِّ الخلق من حـولنا لنكتشف من خـلال فكرنـا أنَّ الله هو الذي خلق، وهـو الذي رزق وهو الـذي فلقَ الإصباح، حتىٰ نـزداد بكلِّ نظرةٍ وبكلِّ فكرةٍ، وعياً ننفتحُ به على آفاق الإيمان الرحبة، لنعرف الله أكثر، وعندما نعرف الله أكثر فإنّنا نتقرب إليه أكثر.

الله قريب بعيد

ثم بعد ذلك عندما تريد أنْ تتصوّر الله في نطاق هذا الدعاء، تجد أنَّ الله بعيدٌ بعيد وقريبٌ قريب، فيه صفات البعيد، وفيه صفات القريب، فهو البعيد لأنّك لا تستطيع أن تحيط بذاته، ولا تستطيع أنْ تراه، الذي بعُـد فكأن علامة بُعده في ابتعاده عن إدراك المخلوقين ﴿**لا تدركه الأبصار وهـو يدرك الأبصار**﴾[1] وهو البعيد باعتبـار أنّه لا يُرى، بعيدٌ عن إدراك النّاس، فأنت تدرك الله مـن خلال خلقه، ولكنّك لا تستطيع أنْ تُدرك الله من خلال ذاته، لأنَّ الله هو المطلـق الذي لا يحدُّه شيء، ولا يستطيع أنْ يعرف ذاته شيء، حتىٰ الأنبياء لا يستطيعون أنْ يعرفـوا الله كما هو في ذاته، لأنَّ الأنبياء مهما علَتْ درجتهم فهم محدودون، والله هو المطلق.

«**الذي بَعُد فلا يُرى**» فهو البعيد في سرِّ ذاته والبعيـد عنك في وجوده، ولكنّه قريب إليك «**وقَرُبَ فَشَهِدَ النّجوى**» ﴿**ما يكون من نجوى ثلاثةٍ إلاّ هو رابعهم ولا خمسةٍ إلا هو سـادسهم ولا أدنىٰ من ذلك ولا أكثر إلاّ هـو معهم**﴾[2] فهو قريب بحيـث انّك عندما تجتمع مع اثنين في غـرفة مغلقة، فـإنّك تعرف انَّ هنـاك ثالثاً معكم هـوالله، وإذا كنتم ثلاثة فإنَّ هناك رابعاً، ﴿**ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقربُ إليه من حبل الوريد**﴾[3] الله سبحانه وتعالى هو أقرب إليك، ﴿**يعلم خائنة الأعين وما تُخفي الصدور**﴾[4] قريب منك حتىٰ انّـه ليست هناك فـاصلة بينك وبينه، وهـذا هو سرّ أنْ تُحسَّ بحضور الله معك، لأنَّ الفكرة الموجودة عندنا، غالباً أنَّ الله بعيد فمن أين يرانا؟

وإن فلانـاً قريب منا، ورجل المخـابرات قـريب، والشرطة قريبـة، ولكن الله بعيد ويومه بعيد! . . ولكن ﴿**إنّهم يرونه بعيداً* ونراه قريباً**﴾[5].

---

(١) الأنعام؛ ١٠٣.

(٢) المجادلة؛ ٧.

(٣) قَ؛ ١٦.

(٤) غافر؛ ١٩.

(٥) المعارج؛ ٦، ٧.

تمر الأيـام والليـالي، فمن عمر الخامسـة إلى العشرين إلى الثـلاثين فـالخمسين . . ، كيف هو إحسـاسنا بـالزمن؟ لا أحـد يحس إلاّ بالحالـة الموجودة! وإذا بـالله يسأل يوم القيامة : ﴿**كم لبثتم في الأرض عدد سنين* قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم**﴾[1] .

يجب أنْ نشعر أنَّ الله قريب منّا، وهو أقـرب إلينا من حبل الوريد، فالله ﴿**يحول بين المرء وقلبه**﴾[2] . . هنالك قـرب حقيقي يجعلنا نَشعـر أنّ الله أقرب إلينـا من أي أحد، بحيث يكون إحساسنا بحضوره معنا أقوى من إحساسنا بحضور النّاس من حولنا .

ولكن إذا أردت أنْ تقوم بعملٍ يُستحىٰ منه وبقربك طفل مُميِّز، فهل تقدم عليه؟

طبعاً لن تقوم به، حتى إذا كان عملاً حلالاً.

أمّا بـالنسبة لله، فإنّنـا نقتل، ونزني، ونسرق، ونعمل كلَّ شيء، ولا نستحـي منه، مثل قصـة المرأة المؤمنة التي تـروى عن أهل البيت (ع) ومفادهـا : أنَّ هناك رجـلاً كان راكباً في البحـر فانكسرت به السفينة، ثمَّ نجـا علىٰ خشبةٍ ووصل إلى جزيـرة، وكان في الجزيرة بساتين، ولكن ليس فيها بشر، وصدفةً رأى امـرأة جميلة هناك لوحدها، فدخل الشيطان في عقله فحاول أن يعتدي عليهـا ولم تستطع أنْ تدفع عن نفسها، فعندما همَّ باعتدائه رأى انَّ المرأة ترتعد رعدة الخائف من شخص يراها، وكأن هناك شخصاً تخاف منه ـ أبوها أو أخوها ـ فكيف يكون ارتعادها وارتجافها؟

فالتفت إليها وقال : ليس هناك من يرانا، فلماذا ترتعدين والجزيرة خالية؟

قالت له : ولكنّي أستحي من الله أنْ يرانا علىٰ هذه الحالة .

قال لها : أنت تستحين من الله وتَخشيْن منه، إذاً ما حالي أنا؟!

فكأنما حدثت عنده صحوة إيمانية، فقام من عندها ولم يُكمل اعتداءه، ومشىٰ حتىٰ التقىٰ براهبٍ في الطريق . والـرهبان كانوا يعيشون في عزلة عـن النّاس، في أعالي الجبال

---

(١) المؤمنون؛ ١١٢، ١١٣ .

(٢) الأنفال؛ ٢٤ .

ويعبدون الله، سبحانه وتعالى، فشغلهم العبادة، وهم يختلفون ـ طبعاً ـ عن رهبان هذه الأيام، فالرهبنة صارت رسمية بعد أن كانت عفوية. فترافقا في الطريق، وكان الوقت صيفاً وأشعّة الشمس حادة.

فالتفت الراهب إليه وقال: فلندعُ الله ـ أنا وأنت ـ أنْ يُرسل لنا غمامةً تظلّلنا من الشمس. فقال له هذا الشخص: أنا عشت حياتي بدون أنْ أعمل عمل خير، لم أكنْ أصلي ولا أصوم فبأي عين أرفع يدي لله وأدعوه؟ ولم يوافق.

فقال الراهب: أنا راهب، قضيت عمري في عبادة الله فأنا أدعو وأنت قُلْ آمين، (آمين تعني: اللهم استجِبْ).

فقبِل الرجل وما لبثا إلا وجاءت الغمامة ومشيا في الطريق حتى وصلا مفترق طريق، فودَّع الشّاب الراهب وإذا الغمامة تترك الراهب وتلحق بالشاب، فنظر الراهب مستغرباً، وتبع الشاب واستوقفه قائلاً: إنَّ هذه الغمامة جاءت من أجلك وليس من أجلي، فكلمة آمين التي قلتها هي التي استجابها الله ولم يستجب دعائي، ففهّمني ماذا عملت؟ كيف نظر الله إليك بعين الرحمة أكثر ممّا نظر إليَّ؟

قال: أنا أُصدِقك الحديث، فانَّ حياتي لا تُشرِّف من ناحية طاعة الله، ثم روى له ما كان من أمره حتى وصل إلى قصته مع المرأة المؤمنة.

فقال الراهب: إنَّ الله قد غفر لك، وقدّر لك توبتك وخوفك منه في الوقت الذي ليس هناك أحد.

وهكذا استطاعت تلك المرأة أنْ تصنع عنده إحساساً بحضور الله، بحيث انّه استحى من الله في ما كان يريد أن يُقدم عليه كما استحت تلك المرأة في ذلك.

هذه هي حالة الإحساس بحضور الله، ويستطيع الإنسان أنْ يعيشها بنفسه.

ليس ضرورياً أنْ يكون إحساسنا بالأشخاص وبحضور الأشخاص من خلال الرؤية العينية، فقد يكون حضور بعض النّاس بآثارهم أكثر من حضورهم

بأشخاصهم. والله حاضرٌ في كلِّ شيء، حاضر في الشمس التي تُشرق علينا، وفي القمر، وفي الماء الذي نشربه، وفي الهواء الذي نتنفّسه، وفي كلِّ شيء، والشاعر يقول:

فواعجباً كيف يُعصى الإلـ ـهُ أم كيف يجحده الجاحدُ

وفي كلِّ شيءٍ له آيةٌ تدلُّ على أنّه واحدُ

فنحن نرى الله في كلِّ شي، وفي ذلك يقول الإمام علي (ع): «ما رأيت شيئاً قطُّ إلاّ رأيت الله معه وفيه وقبله وبعده».

«**الذي بَعُدَ فلا يُرى وقَرُبَ فشَهِد النّجوى، تبارك وتعالى**» تبارك وتعالى له المجد وله العلوّ. وهذه الصفات هي صفات عظمة الله تعالى.

وهناك صفات في المقارنة بين الله وبين الناس، فنحن عادةً ـ حسب طبيعتنا وواقعنا ـ نستغرق في الناس؛ فلان عظيم، فلان كبير، فلان بطل، فلان ملك وهكذا.. وكثيراً ما يكون استغراقنا بالنّاس شاغلاً لنا عن الاستغراق في الله، وفي كثير من الحالات نحن نذكر النّاس وننسى الله ﴿**وتخشى النّاس والله أحقّ أنْ تخشاه**﴾[1].. والصفات التي سنأتي على شرحها هي صفات تتعلق بوعي الإنسان لرّبه مقارناً بخلقه.

***

«**الحمدُ لله الذي ليس لهُ منازعٌ يعادله، ولا شبيهٌ يشاكله، ولا ظهيرٌ يعاضده، قهرَ بعزّته الأعزّاء، وتواضعَ لعظمتِهِ العظماء، فبلغَ بقدرتِهِ ما يشاء**».

الله غني عن الخلق

«**الحمد لله الذي ليس له منازعٌ يعادله**»: لو تطلّعنا الآن إلى كلّ القوى الموجودة في الكون، وإلى كلِّ الأقوياء الموجودين في الكون، فقد نرى أناساً يتمردون على الله، وينازعون الله سبحانه وتعالى في ما يريده، ولكن ليس هناك من يُعادل الله ويساويه في

(١) الأحزاب؛ ٣٧.

قوّته وقدرته وسيطرته، لأنَّ كلَّ صاحب قوة قوّته مستمدةٌ من الله، فهو الذي أعطاه القوّة، ومهما كانَ قوياً فإنَّ قوّته محدودة. ولو طوّفنا في الكون كلّه فإنّنا لا نجد هناك أحداً يعادل الله ويوازنه ويساويه في عظمته.

وإذا كان الأمر هكذا، فمعنى ذلك أنَّ علينا أن نتبع الأقوى ونترك الأضعف عندما تتعارض إرادة الأقوى والأضعف. فلو كان هناك إنسان أقوى وإنسان أضعف ودارَ الأمر بين أن نمشي مع الأقوى أو مع الأضعف فإننا بحسب واقع الحياة سنمشي مع الأقوى.

«**الحمد لله الذي ليس له منازع يعادله ولا شبيه يشاكله**» لا يشبهه شيء ﴿**ليس كمثلِه شيء**﴾[1] كلّ شيء تصوّرته فانّه غير الله، ولا يشبه الله في قليل أو كثير، فإذا كان «لا شبيه يشاكله» فمعنى ذلك انه فوق كلِّ أحد، وأنَّ كلَّ الناس لا يملكون شيئاً يقتربون به منه.

لذلك ليس هناك في الكون، لا نبي ولا وصي نبي، ولا ملك، ولا جبّار، فيه ذرّة من الألوهية، لأنّ الذي يكون عنده قليل من الألوهية يكون مشابهاً لله.

كل الناس عبيد لله.. الله وحده هو ربّهم وهو الإله، فليس هناك ربع إله أو نصف إله أو خمس اله.. الكل مخلوق، كلّهم مربوبون لله، وكلّهم مخلوقون لله.

«**ولا ظهيرٌ يعاضده**»، الظهير هو المساعد أو المناصر الذي تستظهر به على الآخرين. والله لا يحتاج لأحد ليعاضده. ألا يقول الله لموسى ﴿**سنشدُّ عضُدَك بأخيك**﴾[2] وكلمة يعاضد مأخوذة من العضد، تقول فلان عضدي: أي أتقوّى به. فالله لا يحتاج لأحد بل كلُّ الناس محتاجون إليه وهو الغنيّ عنهم جميعاً: ﴿**أن القوّة لله جميعاً**﴾[3] ﴿**يا ايها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنيُّ الحميد**﴾[4]. فالله لا يحتاج

---

(١) الشورى؛ ١١.
(٢) القصص؛ ٣٥.
(٣) البقرة؛ ١٦٥.
(٤) فاطر؛ ١٥.

لأحدٍ، وعندما نقرأ في القرآن الكريم ﴿**ولينصرنَّ الله من ينصره**﴾[1]. أو ﴿**يا أيها الذين آمنوا إنْ تنصروا الله ينصركم ويثبّتْ أقدامكم**﴾[2]. ليس معناه أنّك تنصر الله في ذاته لحاجته إلى نصرتك، ولكنَّ المقصود أنْ تنصر دينه، أنْ تنصر أولياءه. . هذه هي النصرة لله سبحانه وتعالى، لأنه لا يحتاج إلى مساعدة أبداً، ﴿**إنّما أمرهُ إذا أراد شيئاً أن يقول له كُنْ فيكون**﴾[3].

الله قوي عزيز

«**قهر بعزّته الأعزّاء**»؛ المقصود بالأعزّاء هم الأقوياء. لا يكون الإنسان عزيزاً إلاّ إذا كان قوياً، فالقوّة هي عمقُ العزّة وقياسها، ولكن الله «**قهر بعزّته الأعزّاء**».

وعندما تسير بجنازة يستحب أن تقول: «**سبحان من تعزز بالقدرة والبقاء وقهر عباده بالموت والفناء**»، لأنّك عندما تؤمن بأنَّ الله قهر كلَّ عباده بالموت والفناء وأنّه وحده هو الباقي، فإنَّ معنى ذلك أنْ تنظر إلى كلِّ عباد الله حتى الذين يتجبّرون، وحتى الذين يستكبرون نظرة الإحتقار أمام الله؛ (كل جليلٍ عندك صغير، وكلّ شريفٍ جنب شرفك حقير).

«**قهر بعزّته الأعزّاء**» لأنَّ الجميع يمرضون ويموتون. . يفتقرون ويحتاجون إلى الله.

وهناك حديث عن الإمام الحسن (ع) يقول «من أراد عزّاً بلا عشيرة، وهيبةً بلا سلطان، فلينتقل من ذلِّ معصية الله إلى عزِّ طاعتهِ».

«**وتواضع لعظمته العظماء**» لأنَّ كلَّ عظيم عندما يتطلَّع إلى عظمة الله فانّه يعيش الشعور بالحقارة أمام الله سبحانه وتعالى، لأنَّ أيَّ عنصرٍ من عناصر العظمة هو مستمدٌّ منه.

«**فبلغ بقدرته ما يشاء**» قدرة الله تتحرّك في خط مشيئته، وفي الآية الكريمة يقول

---

(١) الحج؛ ٤٠.
(٢) محمد؛ ٧.
(٣) يس؛ ٨٢.

﴿ومن يتَّقِ الله يجعل له مخرجاً * ويرزقه من حيث لا يحتسب، ومن يتوكل على الله فهو حسبه، إنَّ الله بالغُ أمره، قد جعل الله لكلِّ شيءٍ قدرا﴾[1]. وهو نظّم الحياة كلها تنظيماً كاملاً.

* * *

«الحمدُ لله الذي يجيبني حينَ أناديه، ويسترُ عليَّ كلَّ عورةٍ وأنا أعصيه، ويُعظِّمُ النعمةَ عليَّ فلا أجازيه، فكم من موهبةٍ هنيئةٍ قد أعطاني، وعظيمةٍ مَخُوفةٍ قد كفاني، وبهجةٍ مونقةٍ قد أراني، فأُثني عليهِ حامداً وأذكرهُ مسبِّحا».

نعم الله على عباده

ثم ينطلق الإنسان في حالة تحبّب، وفي حالة تحدّث عاطفي مع الله، في مقام تذكار ألطافه ونعمه: **«الحمد لله الذي يجيبني حين أناديه»** عندما «أناديه كلّما شئت لحاجتي، وأخلو به حيث شئت لسرّي، من غير شفيعٍ فيقضي لي حاجتي». وليس هناك في الكون من يجيب ندائي إلا ربي.

«ويسترُ عليَّ كلَّ عورةٍ وأنا أعصيه» والمعاصي تتلاحق في حياتي، المعاصي الصغيرة والكبيرة التي لو اطّلع الناس عليها لرجموني بالحجارة ولفضحت أمامهم، ولكنَّ الله يستر عليَّ وأنا أعصيه.

«ويُعظِّم النعمة عليَّ» يعطيني مالاً وصحّة وأملاً وأولاداً وما أشبه ذلك **«فلا أجازيه»** لا أكافي النعمة بمثلها، وقد ورد في دعاء أبي حمزة الثمالي **«تتحبَّبُ إلينا بالنِّعم ونعارضك بالذنوب، خيرك إلينا نازل وشرّنا إليك صاعد، ولم يزُل ولا يزال ملكٌ كريم يأتيك عنا بعملٍ قبيح فلا يمنعك ذلك من أنْ تحوطنا بنعمك وتتفضل علينا بآلائك، فسبحانك ما احلمك وأعظمك وأكرمك مبدئاً ومعيداً»**.

ثمَّ يتطلَّع الإنسان لنفسه ليرى آثار النعمة عليه: **«فكم من موهبةٍ هنيئةٍ قد أعطاني»**

---

(١) الطلاق؛ ٢، ٣.

انك تأكل وتشرب وتلبس وتستمتع وتتلذّذ وتنام وتنطلق . . هذه كلّها مواهب الله التي جعلت معيشتك هانئة .

«**فكم من موهبةٍ هنيئةٍ قد أعطاني وعظيمةٍ مخوفةٍ قد كفاني**» ثم يرجع الإنسان إلى تاريخه : كم هناك من الأخطار التي مرَّ بها في تاريخ حياته ، ولكنَّ الله كفاه تلك الأخطار، ليس هناك أحد منّا وإلا ويجد انه مرّ بأخطار، سواء كانت أخطار مرض أو أخطار سلاح أو أي نوع من أنواع الأخطار.

«**وبهجةٍ مونقةٍ قد أراني**» الله أعطاني نضارة الوجه ونضارة الجسد ، وأعطاني بهجات الحياة ، وأعطاني كل ما يجعل من وجودي وجوداً منفتحاً بكلِّ مجالاته في الحياة ، فإذا كان الله قد أعطاني من مواهبه ، وكفاني المخوفات وأراني البهجات ، فإن عليَّ أن أقوم بواجب الثناء على الله : «**فأثني عليه حامدا**» بحيث أحمدهُ في كلِّ حالاتي «**واذكرهُ مسبِّحاً**» أنطلق بحمد الله في كلِّ وقت وانطلق بتسبيح الله في كلِّ وقت ، حتى أستشعر بحمدي له كلَّ مواقع الثناء وحتى أستشعر بتسبيحي له كلَّ مواقع العظمة .

* * *

«**الحمدُ لله الذي لا يُهتك حجابه ولا يُغلق بابه ، ولا يُرَدُّ سائِله ، ولا يُخَيَّبُ آمِله**» .

ذنوب العبد واستجابة الدعاء

هذه الكلمات فيها حديثٌ عن علاقتنا بالله عندما نريد أن نسأله ، وعندما نريد أنْ نطلبَ منه .

إنَّ ذنوب العباد ومعاصيهم قد تحول بينهم وبين الله سبحانه وتعالى ، لأنَّ هناك ـ كما نقرأ في دعاء كميل «**اللهم اغفِرْ لي الذنوب التي تحبس الدعاء**» ـ ذنوباً تحبس الدعاء وتمنعهُ من أنْ ينفتح على الله سبحانه وتعالى ، لأنَّ هذا المذنب قد ابتعد عن الله ، وعن مواقع رحمته من خلال هذه الذنوب .

وإذا وضع الله حجاباً بينه وبين أحدٍ من خلقه، فإنَّ أحداً لا يستطيع أنْ يهتكَ هذا الحجاب، أي لا يستطيع أنْ يخترقه، ولا يستطيع أنْ يزيله، لأنَّ ما وضعه الله لا يستطيع أيّ مخلوقٍ أنْ يرفعه.

ومن هنا، لا بدّ للإنسان إذا شعر أنَّ هناك حجاباً بينه وبين الله يمنعه من أن ينفتح عليه، لا بد من أنْ يتوسّل إلى الله، وأنْ يتعرّف السّبل التي تزيل هذا الحجاب عن قلبه، وقد ورد في بعض الآيات القرآنية ﴿**بلْ رانَ على قلوبهم ما كانوا يكسبون**﴾[1] أي انَّ ذنوبهم تحوّلت إلى ما يشبه الرّين وهو الغشاء الذي يحجب القلب عن الإنفتاح على الله سبحانه وتعالى.

وهناك بعض الأحاديث تقول: إنَّ الإنسان إذا أذنب ذنباً نبتت في قلبه ـ من خلال الذنب ـ نقطة سوداء فإذا تاب، زالت، وإذا امتدّ بذنوبه، توسَّعت حتى يسودَّ القلب وينتكس فيصير أعلاه أسفله، وأسفله أعلاه، فيصير القلب مغلقاً، وعندما يكون القلب مغلقاً فإنه يحتجب عن رحمة الله.

كذلك إذا كان لسان الإنسان مستودعاً للقذارات الكلامية، وكان لسانه لسان الفُحش والبذاء والسباب والشتائم، فإنَّ دعاء الإنسان لا يرتفع إلى الله إذا دعى ربه بمثل هذا اللسان، لأنَّ هذه الكلمات تصير حجاباً بين الإنسان وبين الله سبحانه وتعالى.

فيجب على الإنسان دائماً أنْ ينظّف لسانه من الكلمات التي يُبغضها الله، أن ينظِّف قلبه من المعاني التي لا يرضاها الله، حتىٰ لا يكون هناك حجابٌ على القلب يحجبُ القلب عن ربّه، وحتىٰ لا يكون هناك مانعٌ في اللسان يَمنعُ الدعاء من أنْ ينطلق.

وقضية القرب إلى الله والبعد عنه ليست هي قضية المسافات؛ فالله ليس في مكان، إنما هو «**بَعُد فلا يرى وقرب فشَهِدَ النّجوى**» فقربنا من الله هو أنْ تكون عقولنا،

---

(١) المطففين؛ ١٤.

وقلوبنا، وأرواحنا، قريبة إلى الله من خلال أعمالنا، وأفكارنا، ومشاعرنا، فالبعد عن الله والقرب منه إنّما هما من خلال ما يحمله القلب من مشاعر وأحاسيس، وما يحمله العقل من أفكار، وما تحمله الحياة من أعمال، فذلك هو الذي يقرّب الإنسان إلى الله، أو يبعده عن الله.

«**الحمد لله الذي لا يُهتك حجابه ولا يُغلق بابه**» هذه هي النقطة الثانية، اننا إذا أردنا أنْ ننطلق إلى الله في كلِّ وقت بحيث لا تكون هناك حواجز نفسية ولا حجاب، فالله ليس عنده دوام رسمي. كلّ النّاس الذين نقصدهم، سواءٌ كانوا علماء أو وجهاء أو أغنياء أو زعماء، لهم وقت معيّن للمقابلة، فإذا جئت خارج الوقت المعيّن، فمن الصّعب أنْ تقابله باعتبار أنَّ طبيعة تنظيم الأوقات تفرض ذلك، ولكنَّ الله لا يُغلق بابه في أيِّ وقت، فبإمكانك أنْ تدعو الله في أيِّ وقت، سواء كان النّاس نائمين أو يقظين، وفي أيِّ وضعٍ تكون، فالله لا يُغلقُ بابهُ في أيِّ وقت.

وقد ورد في بعض الأدعية: «**بابهُ مفتوح لداعيه، وحجابه مرفوعٌ لراجيه**» فأبواب الله سبحانه وتعالى لا تُغلق دون أحد، وفي كل وقت تستطيع أن تدعو، حتىٰ في دعاء الصباح تستطيع أن تُبدِّل بعض الكلمات وتقرأه في المساء، ودعاء المساء كذلك، وحتى دعاء السحر تستطيع أن تقرأه في النهار.

فأنت تستطيع أن تدعو الله سبحانه وتعالى في كلِّ وقتٍ، وأنت واثقٌ بأنّ باب الله مفتوح لك، وليس عليك إلاّ أنْ تفتح قلبك للّه، وأنْ تحرّك لسانك في الدعاء إلى الله، وأنْ تنطلق برجائك إلى الله لترى أنَّ باب الله مفتوحٌ وواسعٌ سعة رحمته: ﴿**ورحمتي وسِعَت كلَّ شيء**﴾[1].

ومن هنا، فإن الإنسان لن يشعر في أيّ وقت ـ عندما تحلُّ به المشاكل والمصائب والبلايا وتشتدّ عليه الضغوط ـ أنَّ أبواب الله مغلقة دونه. فأبواب الله مفتحة، ولكن أنت تغلقها على نفسك من خلال ذنوبك، وأنت تفتحها لنفسك من خلال أعمالك وطاعتك.

---

(١) الأعراف؛ ١٥٦.

ونحن نلاحظ في الخطبة المعروفة عن النبي (ص) «**أيّها الناس، إنَّ أبواب الجنان في هذا الشَّهر مفتحة فاسألوا ربكم أن لا يغلقها عليكم**». نحن نغلقها على أنفسنا، لأن الإنسان يحصد دائماً نتيجة أعماله، ﴿**ظهر الفساد في البرّ والبحر بما كسبت أيدي النّاس**﴾[1] ﴿**ذلك بأن الله لم يك مغيِّراً نعمةً أنعمها على قومٍ حتىٰ يُغيِّروا ما بأنفسهم**﴾[2].

«**ولا يُغلق بابه، ولا يُردُّ سائلهُ**» الله سبحانه وتعالى لا يردُّ سائلاً عن بابه، عندما تكون المصلحة في استجابه الدعاء، لأنَّ الإنسان كالطفل، قد يطلب بعض أطفالنا أشياء منّا ممّا لا صلاح لهم فيه، وقد يطلب الإنسان من ربِّه ما لا صلاح له فيه، لكنَّ الله من حيث المبدأ لا يردُّ سائلاً لأنّه سأل، وإنّما يردُّه لأنّه قد يسأل ما لا مصلحة له فيه، أو قد يسأل ما فيه مضرّةٌ للعباد؛ فلو أن شخصاً ـ مثلاً ـ يدعو على الناس في الليل والنهار، فالله لا يستجيب دعاءه حسب مزاجه وحسب عقده النفسية، لأنَّ رحمةِ الله تقتضي أنْ لا يؤذي أحداً لمجرّد سؤال أحد مع عدم استحقاقه لذلك.

«**ولا يُخَيِّبُ آمله**» الله، سبحانه وتعالى، عند رجاء كلِّ راجٍ، وعند أملِ كلِّ آمِل، فالله فتح للنّاس باب الأمل لرحمته وباب الرّجاء لعطائِه، ولذلك فإنَّ على الإنسان أنْ يدعو الله، وهو يثق بأنَّ حاجته مقضية، بمعنىٰ أنْ تكون عنده ثقة بالله علىٰ نحوٍ لو لم تكن هناك موانع لاستجابة دعائِه ولتحقيق مأموله لكانت المسألة الطبيعية أنَّ حاجته مقضية. أنْ نثق بالله سبحانه وتعالى، والله عند ظَنِّ من أحسنَ بهِ ظناً.

* * *

«**الحمد لله الذي يُؤمِنُ الخائفين، وينجّي الصالحين، ويرفعُ المستضعفين، ويضعُ المستكبرين، ويُهلِكُ ملوكاً ويستخلفُ آخرين**».

---

(١) الروم؛ ٤١.

(٢) الأنفال؛ ٥٣.

الله نصير المستضعفين

«**الحمد لله الذي يُؤمِنُ الخائفين**» أتينا الآن للفقرات التي تتحدث عن صفة الله في واقع القوة والضعف، وواقع الأمن والخوف.

هناك خائفون يخافون من الآخرين، ويخافون من الأوضاع المحيطة بهم. وهناك صالحون يتعرّضون للأخطار، وهناك مستضعفون يعيشون تحت ضغط المستكبرين، وهناك مستكبرون يطغَوْن على النّاس بغير حق، وهناك ملوكٌ يُخيَّل إليهم أنَّ ملكهم دائم، وبذلك فإنَّ ظلمهم دائم. هنا عندما نواجه هذه الحالات؛ كيف نتصوّر الأمنَ من الخوف؟ وكيف نتصوّر النجاة ممّن يريد بنا الهلكة؟ وكيف نتصوَّر استضعافنا وكيف نخرج منه؟ وكيف يكون تصوّرنا للمستكبرين وللملوك الظالمين؟ من هو الذي يحلُّ لنا هذه المشكلة الموجودة في كلِّ مكان؟ هنا من خلال الدعاء نتطلَّع إلى الله، إذا خِفْنا فالله هو الذي يؤمننا من الخوف «**الحمد لله الذي يؤمن الخائفين**». فعندما كان النبي(ص) في حالة الخوف القىٰ الله عليه السكينة ﴿**إذْ يقول لصاحبِه لا تحزن إنَّ الله معنا فأنزَلَ الله سكينته عليه وأيَّدهُ بجنودٍ لم تروْها**﴾[1] كذلك عندما انطلق المؤمنون في عهد النبي(ص) وفي ما بعد ذلك عندما خوّفهم الناس بالناس ﴿**الذين قال لهم النّاس إنَّ الناس قد جمعوا لكم فاخشَوْهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل* فانقلبوا بنعمةٍ من الله وفضل لم يمْسَسْهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضلٍ عظيم* إنّما ذلكم الشيطان يُخوِّف أولياءَه فلا تخافوهم وخافونِ إن كنتم مؤمنين**﴾[2] ليكن خوفك من الله وسيلةً لأمنكَ من الناس، باعتبار أنَّ الله هو الذي يؤمن الخائفين، وبذلك يستطيع الإنسان أن يحصل علىٰ السكينة الروحية، وعلىٰ الطمأنينة القلبية، عندما يتوكّل على الله، وعندما يلقي بأمرهِ كلِّه إلى الله سبحانه وتعالى.

«**ويُنجّي الصالحين**»؛ الصالحون في فكرهم، والصالحون في عملهم، الصالحون في خطّهم لا بدَّ أنْ يواجهوا الأخطار لدىٰ الذين لا يوافقون علىٰ الصلاح الفكري والروحي

---

(١) التوبة؛ ٤٠.

(٢) آل عمران؛ ١٧٣، ١٧٤، ١٧٥.

والعملي، ويعتبرون مسألة الصّلاح مسألةً معقّدةً بالنسبة إليهم، لأنّهم ساروا على خط الفساد، ولـذلك عندما كـانوا من الطـالحين أخذتهم العقدة ضـدَّ الصالحين. فبعض النّاس لديـه عقدة من المؤمن؛ لديه عقـدة من الذي يصلّي، ولديه عقـدة من الإنسان الأمين، ولـديه عقـدة من الإنسان العفيف، بحيث انَّـه لا يطيق وجوده، فيحـاول أنْ يستخدم كل الـوسائل من أجل إهـلاكه وإضعـافه ومحاصرته. وهـذه الأمور مـوجودة ونراها في حياتنا.

إذا عـاش الصـالحون هذه الأخطـار، فإلى أين يتـوجّهـون وهم قد لا يملكـون قـوةً يستطيعون من خلالها أنْ يواجهوا هذ الواقع؟

هنا تقول هـذه الفقرة إنَّ الله يُنجّي الصالحين، فهو الذي يجعل لهم من أمـرهم فرجاً ومخرجاً، وهـو الذي يحرسهم من حيث لا يحترسون، ويـرزقهم من حيث لا يحتسبون، ولهذا فإنَّ علىٰ الإنسان الذي يعيـش علىٰ خطّ الصلاح أنْ يكونْ على ثقةٍ بربـه وبأنه لنْ يخذلـه وإنّما سيكفيـه من كلِّ سـوء ﴿**أليس الله بكـافٍ عبـده ويخوّفـونك بـالـذين من دونه**﴾[1].

«**ويرفع المستضعفين**» إذا أخلصَ المستضعفون للّـه، وكانوا سـائرين في طريق الله، ولم يخضعـوا للمستكبرين، ولم ينحرفـوا في خطوط المستكبرين، وفضّلـوا السَّير في خطّ الإستقامة على أساس توحيـدِ الله سبحانه وتعالى، فإنَّ الله يرفعهم ﴿**ونريدُ أنْ نَمُنَّ علىٰ الذيـن استُضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهـم الوارثين**﴾[2] فالله هو الـذي يرفع المستضعفين في ما يهيئـه من الأجواء، ومن الوسـائل، ومن الأوضاع، التي تستطيع أن تصعد بهم إلى أعلى الدرجات.

«**ويضع المستكبرين**» إنَّ المستكبرين ليسوا قضـاء الناس وقـدَرهم، بحيث يمثّلون ضريبةً مطلقـة علىٰ حياة النّاس، لأنّنـا عندما نـدرس الواقع فإنّنـا نجد أنَّ الله لا يترك لمستكبرٍ أنْ يطغىٰ في استكبـارِه، وأن يَخلُـدَ في ذلك، ولعلَّ دراستنـا لتبـدّلات العـالم

(١) الزمر؛ ٣٦.
(٢) القصص؛ ٥.

وتغيّراته في زماننا وفي الأزمنة السابقة، سواء كان على مستوى القوى الكبرى، أو على مستوى القوى الصُّغرى، فإنّنا نجد أنّه لا يمرُّ على العالم وقت إلاّ ونجد مستضعفاً يرتفع ومستكبراً يهلك. هذا شيء واقعي، هناك قوى في العالم لم يكن الإنسان يتصوَّر أنها يمكن أن تسقط، وإذا بها تسقط سقوطاً سريعاً وكأن الأمر خيال.

مثال ذلك: سقوط الإتحاد السوفيتي؛ الدولة التي كانوا يعبّرون عنها وعن أميركا بالقوتين العظميين، أو الجبارتين. وإذا بالتآكل يظهر في داخل هذه القوة العظمى، وتبين أنها لا تملك الخبز الكافي لإطعام شعبها، ولا تملك المواد الإستهلاكية الضرورية. وقد انكشف هذا الواقع في الزلزال الذي حدث في أرمينيا، حيث لم تستطع دولة في حجم الإتحاد السوفياتي أن تواجه نتائج الزلزال بقواها الخاصة، بل أخذت تستنجد بدول العالم لتأتيها بأطبّاء وأدوية وأغذية، ومنذ ذلك الوقت بدأ ينكشف الإنهيار الداخلي.

وكذلك أميركا التي تمثّل قوّة عظمى من الناحية العسكرية والسياسية، قد بدأ التآكل في داخلها من الناحية الإقتصادية، فهناك أزمات إقتصادية صعبة، ولذا تحاول أنْ تستخدم قوّتها العسكرية وقوتها السياسية في سبيل حل مشكلتها الإقتصادية. ولديها مشكلة الجريمة، فعندما ندرس إحصاءات الجريمة في أميركا نراها تفوق إحصاءات أكثر البلدان الأخرى. ولديها مسألة المخدّرات، وهي الآن تحارب المخدّرات من باب حفظ الأمن القومي، لأنَّ الشّعب بدأ يتحوّل إلى شعبٍ مدمن.

لا نقول إنّها ستسقط بين ساعة وأخرى؛ ولكن عندما يأتي أمر الله، فإن هذا الكيان الضخم سينهدم، كما ينهدم الجبل حينما يفرغ داخله، لأن الأسس هي التي تحمل البنيان فإذا تداعت هي انهار هو بالكامل.

وعندما يدرس الإنسان حركة الكون وتوازناته، ويدرس حركة المستكبرين والمستضعفين، يرى أنَّ هنالك نظاماً موجوداً ولكلّ شيء وقته، ولكل آيةٍ أجل، مثلما لكلّ إنسان أجل، فإذا جاء الأجل انتهى الأمر؛ فالدول لها أجل والمجتمعات لها أجَل،

والحضارات لها أجل، وكلّها سائرة حسب التوازن الذي أودعه الله في عمق الكون، من خلال قوانين وسنن الكون.

فبعض الناس يتصوّر أنَّ الله، سبحانه وتعالى، عندما يغضب على شخص فإنّه سينهيه، ولكن الأمر ليس كذلك؛ لأن الله خلق الكون على أساس قوانين، فهو يتصرّف حسب الحكمة في ما أودعه من القوانين والسنن الكونية التي تحفظ التوازن. ثمَّ لماذا يستعجل الله؟

نحن نستعجل لئلا تفوتنا المسألة، ولكن كما يقول الدعاء: «**وإنَّما يَعجل من يخاف الفَوْت**» فأين يهرب المستكبرون والمستضعفون؟.. ﴿**من لم يرضَ بقضائي فليخرج من أرضي وسمائي**﴾.

«**ويهلك ملوكاً ويستخلف آخرين**»... في زماننا تحدث الإنقلابات والثورات بين فترة وأخرى، فترى شخصاً في أعلى قمة وإذا به يصبح مواطناً عادياً، أو نراه في السجن أو على خشبة الإعدام! ﴿**قلِ اللهم مالكَ المُلْك تؤتي المُلْك من تشاء وتنزع الملك ممّن تشاء وتُعزُّ من تشاء وتُذِلُّ من تشاء بيدك الخير إنَّك على كلِّ شيءٍ قدير**﴾[1] إنَّ قدرة الله تحيط بالكون كلّه، والأمور كلّها بيد الله.

معنى ذلك أن علينا أن لا نقع تحت تأثير اليأس من أية قوة ظالمة فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿**ولا تهنوا ولا تَحزنوا وأنتم الأعلَوْن إن كنتم مؤمنين* إن يمْسَسْكم قرحٌ فقد مس القومَ قرحٌ مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس**﴾[2]. وهذا ما يعطينا الثقة بأنَّ علينا أن نواصل المسيرة، حتى تتجمّع شروط سقوط هذا الظالم، أو هذه الدولة، وارتفاع دولة أخرى. لأن المسألة ـ كما ذكرنا ـ مرتبطة بشروط توازن الكون. فكلّ شيء له شروطه، وإذا لم تحقّق الشروط لا يحدث، لأن الله يحرك القضايا من خلال حكمته.

* * *

(١) آل عمران؛ ٢٦.

(٢) آل عمران؛ ١٣٩، ١٤٠.

«الحمدُ لله قاصمِ الجبَّارين، مُبيرِ الظالمين، مُدركِ الهاربين، نكالِ الظالمين، صريخِ المستصرِخين، موضِعِ حاجاتِ الطالبين، مُعتَمَدِ المؤمنين».

لا ملجأ منه إلا إليه

ونتابع الدعاء في حمد الله على صفاته التي تتّصل بطريقة مواجهته للحالات السلبية أو الحالات الإيجابية من خلقه، فهناك جبّارون يتجبّرون ويبغون على الناس بغير حق، وهناك الظالمون، وهناك العاصون المجرمون الذين يحاولون أو يُخيَّل إليهم أنهم يستطيعون الهروب من الله سبحانه وتعالى، والنجاة من عقابه، وهناك المعذّبون في الأرض الذين يعيشون الآلام، ويعيشون الضعف، ويعيشون المشاكل، فيصرخون ويستصرخون الله سبحانه وتعالى لينقذهم من ذلك، وهناك أصحاب الحوائج الذين يعيشون حياتهم ولهم حاجاتهم في حياتهم الخاصة وفي حياتهم العامة وفي أوضاعهم المتنوعة، فينفتحون على الله في حاجاتهم تلك، وهناك المؤمنون الذين يؤمنون بالله ويعيشون الثقة به، ولذلك فإنّهم يعملون على أنْ يتوكّلوا عليه وأنْ يعتمدوه في كلّ أمورهم.

عندما نستلهم هذه الصفات، صفات الله مع خلقه، «**الحمد لله قاصم الجبّارين**» فإننا نتصوّر الله سبحانه وتعالى أمام حالات الجبروت في الأرض، هؤلاء الذين يستكبرون في الأرض، والذين يستعلون على النّاس، وهؤلاء الذين يتجبّرون حتى يحاولوا أن يخيّلوا للناس أنَّ جبروتهم تمثّل كياناً صلباً لا يمكن لأحدٍ أنْ يكسره، ولا يمكن لأحدٍ أن يقصمه، ويأتي عقاب الله فيقصم الجبّارين؛ يقصم ملكهم وقوّتهم، ويقصم كلّ ما يتمثلون به من حالات التماسك في الحياة.

وعندما نتصوّر الله سبحانه وتعالى بهذه الصفة، فإنّ ذلك يوحي إلينا بأنّنا عندما نقف بين جبروت الله وبين جبروت من يُخيَّل إليهم أنّهم جبابرة، فإنَّ علينا أنْ نعرف أنّه لا قيمة لجبروت النّاس مهما امتدوا في قوّتهم وفي سلطانهم أمام جبروت الله الذي يقصم كلَّ جبّار.

وعندما نقرأ في القرآن الكريم قصة فرعون، وقصة عاد، وقصّة ثمود، وكثيراً من القصص التي حدّثنا الله فيها عن هؤلاء الجبابرة، سواء كانوا أفراداً يُخيَّل إليهم أنّهم أرباب، أو كانوا جماعات من خلال ما يملكون من قوة، فإننا نعرف، من خلال قراءتنا لكتاب الله، أنَّ الله، سبحانه وتعالى، قصم الجبّارين في التاريخ، وهو قادرٌ على أن يقصم الجبّارين في الحاضر والمستقبل، فلا نيأس من رَوْح الله مهما كانت الأوضاع ومهما امتدّ الجبروت.

«**مبير الظالمين**» وهكذا عندما نواجه أوضاع الظالمين في الأرض، سواء كانوا ظالمين صغاراً، أو كانوا ظالمين كباراً في حالات المظلومين الذين يعيشون تحت تأثير ظلمهم، فإنَّ الله قادر على إفناء الظالمين وجبروتهم.

«**مدرك الهاربين**» عندما يحاول بعض الخلق الذين يكفرون بالله والذين يعصونه ويتمرّدون عليه، عندما يفكّرون في أنْ يهربوا منه متصورين أن ليس لله إلاّ حيّز خاص من الكون، فإنَّ الله يدرك هؤلاء أينما ذهبوا، سواء صعدوا إلى الفضاء، أو نزلوا إلى أعماق البحار، لأنّ الله، سبحانه وتعالى، في السماء ملكه، وفي الأرض ملكه، في البحار ملكه، وفي الدنيا ملكه، وفي الآخرة ملكه، فأين يهربون وأين يذهبون؟

وهذا ما نستوحيه من فقرة الدعاء المعروف، عندما يخاطب الإنسان ربَّه: «**هاربٌ منك إليك**» فأنا عندما أهرب منك فإلى أين أهرب؟ أهرب من موقعٍ من ملكك لأنطلق إلى موقعٍ آخر في ملكك.. فأين المهرب؟ وأين الفرار؟

«**نكال الظالمين**» الله يفني الظالمين ويهلكهم وينكّل بهم في الدنيا، وذلك بأن يُسقط ظلمهم ويُضعفهم، وبأنْ يُبعدهم عن ساحة السلطة، ويبعدهم عن كلِّ ساحة القوة.

«**صريخ المستصرخين**» الله إذا استصرخه عباده المتألمون المقهورون، في أيّ شيءٍ ممّا يريدون أنْ يتخلّصوا منه، فهو الذي يستجيب لصراخهم وينصرهم ويرعاهم برعايته.

«**موضع حاجات الطالبين**» هو الذي ترتفع إليه كلّ الحاجات، وهو الذي يتقبّل

كلّ الطلبات، لأنّه الرب الذي أعطىٰ الوجود خلقه، وهو الذي يدّبره من خلال نعمهِ، فهو وحده الموضع لحاجات الطالبين، وليس لأحدٍ مثل هذا الدور، لأنّ النّاس عندما يعطون، فهم يعطون من خلال عطاء الله، وعندما يقضون لك حاجاتك، فهم يقضونها من خلال ما ألهمهم الله، سبحانه وتعالى، في ذلك، وما جعلهم قادرين عليه.

«**مُعتمد المؤمنين**» هوالذي يعتمد عليه المؤمنون ويتوكّلون عليه، لأنَّ معنىٰ إيمان الإنسان بالله هو أن يؤمن بأنَّ الله هو كل شيء في الكون، وأنَّ الله هو كلّ شيءٍ في الحياة، وأنَّ الله يهيمن على الأمر كلّه، وهو الذي يسيطر علىٰ الأمر كلّه، وهو الذي يُتوكَّل عليه، ومن يتوكّل على الله فهو حسبه، وهو الذي يُعتمد عليه، ومن اعتمد على الله سبحانه وتعالى كان الله عند حسن ظنّه في كلِّ ما يريد ويحب.

***

«الحمدُ لله الذي من خَشْيَتِهِ ترعُدُ السماءُ وسُكّانُها، وترجفُ الأرضُ وعُمّارُها، وتموجُ البحارُ ومَن يسبحُ في غَمَراتِها».

سطوة الله على كل شيء

ففي هذه الفقرة نشعر بقوّة الله سبحانه وتعالى وتأثيرها على كلِّ خلقه؛ فعندما تتمثل السماء ومن فيها، وعندما تتمثّل الأرض ومن يسكنها، وعندما تتمثّل البحار ومن يسبح في غمراتها، عندما تتمثّل كلّ هذه المخلوقات عظمة الله وقوته، في ما تستطيع أنْ تتمثّله من مواقع قوّته ومن مواقع عظمته، فإنّها لا تستطيع أن تتماسك أمام ذلك، ولا تستطيع أنْ تستقر.

لو تصوّرت السماء ربّها، ولو تصوَّر سكّان السماء ربّهم، لأحسّوا بالرجفة وبالإهتزاز. وهكذا لو أنَّ الأرض تصوّرت ربّها، وأنَّ عُمَّار الأرض تصوّروا الله في مواقع عظمته، فإنّهم لا بدَّ أنْ يصابوا بالرجفة، وهكذا تنطلق البحار لتموج موج الهيبة من الله، وموج الخوف من الله، عندما تتصوّر الله في عظمته.

وقد عبّر الله عن ذلك في أكثر من موقع، وأراد لنا أنْ نعيش هذا المعنىٰ عندما نسمع كلماته، فالله يقول: ﴿**لو أنزلنا هـذا القرآن على جبلٍ لرأيته خاشعاً متصـدّعاً من خشية الله**﴾[1] فإذا كانت كلمات الله تؤدي إلى ذلك، وتـوجب ذلك، فكيف هو تصوّر الله في عظمته، وفي قوّته، وفي كلّ مواقع كبريائه؟

وقـد جاء في بعض الآيـات: ﴿**وما قـدروا الله حقّ قـدره والأرض جميعاً قبضتـه يوم القيامة والسماوات مطويّاتٌ بيمينه**﴾[2] فإذا كانت الأرض والسماء والبحـار ترتجف من خشيةِ الله، وترتعد من خوف الله، فكيف هو الإنسان الذي يستطيع أنْ يُدرك بعقله ما لا تستطيع أنْ تـدركه المخلـوقـات، ويستطيع أنْ يتعرّف مـواقع عظمـة الله، سبحانـه وتعالى، وسرَّ قـوة الله في ما لا يستطيعه أحدٌ غيره من مخلـوقات الله؟ كيف يمكن أنْ لا يعيش هذا الإنسان الخوف من الله والخشية منه؟

ولكنّ مشكلة الإنسان هي غفلته. ومشكلته انّـه يستغرق في النّاس أكثر ممّا يستغرق في الله، ويستغرق في الأشياء من حـوله أكثر ممّا يستغرق في عظمـة الله.. وهذا هو سرُّ غفلته، وسرُّ عدم خوفه من الله سبحانه وتعالى.

لـذلك لا بدّ لكـلّ إنسان أنْ يـدبّـر أمره، وأنْ يفتح قلبـه دائماً على الله من خـلال التفكير بمواقع عظمة الله، والتفكير بمواقع نعمة الله.

***

«الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنّا لنهتديَ لولا أنْ هدانا الله»

الحمد لله على هدايته

عنـدما تشعـر بأنّ الله قد هـداك لتـوحيده، وأن الله قـد هداك لإسـلامه، وهـداك لطاعته، وأن الله قـد وجهك وجهة الخير، وعندما تـرى نفسك مؤمناً، مهتـدياً، تقياً، مطيعـاً لله، سبحانـه وتعـالى، فعليك أن تعرف أنَّ هـذه نعمـةٌ من أفضل النِّعم، ومن

(١) الحشر؛ ٢١.
(٢) الزمر؛ ٦٧.

أعظم النِّعم عليك. وأيّـة نعمة أعظم من أنْ تعـرف الله، أنْ تؤمن بـه، وأن تستقيم في طريقه، لتحصل من ذلك على خير الدنيا والآخرة؟

ولذلك، فإنَّ علينا، دائماً، أنْ نستشعر نعمة الله في الهداية، تماماً كما نستشعر نعمة الله في الصحّة، وفي الرّزق، والأمن، وفي كلِّ الأمور، لأنَّ هذه النِّعم نعمٌ طارئة وزائلة، ولكنَّ نعمـة الهداية هي النّعمـة الكبرى التي يحصل بها الإنسـان على رضى الله، وعلى خير الدنيا والآخرة.

وقد ورد في الأدعيـة أنَّ هناك حمداً وثنـاءً لله يحمل في داخله الشّكـر. أنْ نحمد الله على الهدى ونعرف أنَّ الله هو الذي هدانا، لأنَّ الله هـو الذي أعطانا العقل الذي نفكّر بـه، وأعطـانـا الحواس التي نستطيع أنْ نتعـرّف بها على الأشيـاء التي تـدلّنـا على الله، سبحانه وتعالى، وأنزل علينا رسله وكتبه، فأعطـانا الهداية في وجودنا في ما حرّكهُ في كلِّ مواقع هذا الوجود، وأعطانا الهدايـة من خلال رسالته، ومن خلال رسله، ومن خلال كتبه، ولولا أنَّ الله أعطانا سبيل الهداية لأنفسنا، وسبيل الهداية في الرسالات التي أنزلها علينـا، لما أستطعنا أنْ نجـد سبيلاً للهـداية، فهـو الهادي لنـا في كلِّ موقعٍ من مـواقع الضلال.

* * *

«الحمـدُ لله الذي يخلقُ ولم يُخلق، ويَـرزقُ ولا يُـرزق، ويُطعِمُ ولا يُطعَم، ويميتُ الأحياءَ ويُحيي الموتىٰ، وهو حيٌّ لا يمـوت، بِيَدِهِ الخير وهو على كلِّ شيء قدير».

الله مصدر كل شيء

«**الحمد لله الذي يخلقُ ولم يُخلق**» كلّ شيء منطلقٌ من خلال خلق الله، أمّـا هو فلم يخلقه أحـد لأنّه الأزلي، الأبـديّ، السرمدي، الـذي ليس من الأشياء الحادثـة والقوى الحادثة، وإنّما يحتـاج إلى الخلق، من لم يكن ثمَّ كـان، أمّا الله سبحـانه وتعـالىٰ، فهو لم يدخل في دائرة العدم ليحتاج إلى خالقٍ يخلقه.

ولذلك فإنَّ السؤال الذي يسأله بعض النّاس، منْ خلق الله؟ هو سؤال خاطىء؛ فالله سبحانه وتعالى هو الذات التي نتصوّرها من دون أنْ نتصوّر عدماً قبلها، وبعض الناس يتصوّر أنَّ قضية الله مثل أي شخص، لم يكن ثمّ كان.

نعم، كلّ من لم يكن ثم كان نحتاج لأنْ نقول: من خلقه؟ ولكن لا يمكن أن يدور هذا السؤال حول الله، لأنّه هو أساس الوجود. فإذا أردنا أنْ نفترض انَّ وجوده كان في عدم فمن خلق وجوده؟

لا بد أن هناك شخصاً، فمن خلق ذلك الشخص؟ وهكذا لا بد أنْ نصل في آخر سلسلة الفرضيات إلى فرضية ليس هناك قبلها عدم وهو الله. فكلُّ شيء نتصوّره انّه لم يكن ثم كان فهو ليس الله، إنما وجود الله من خلال ذاته لا من خلال شيء آخر قبله.

«**ويَرزق ولا يُرزق**» هنا نسأل لماذا قال: «**لم يُخلق**» ثم قال: «**لا يُرزَق**»؟ أي لماذا أتىٰ بـ (لم) هناك و(لا) هنا؟

لأنه إذا كان هناك خلق فهو لا يتكرر. إذاً لا يصحّ أن نقول: «**لا يُخلق**»، فإذا نفينا الخلق في الماضي فليس هناك مجال لافتراض تجدّد الخلق! أمّا في الرزق فيختلف الأمر «**ويَرزق ولا يُرزَق**» لأنَّ الرزق يتجدّد، اليوم يوجد رزق وغداً كذلك، فالله يرزق النّاس ما داموا في الحياة، ويرزق المخلوقات والموجودات، ولكنّه لا يُرزق، ولا يحتاج لأحد، لأنَّ الرزق يعني الحاجة، والله غنيٌّ عن كلّ شيء.

«**ويُطعِمُ ولا يُطعَم**» الله يُطعم الناس من خلال ما يهيىء لهم من وسائل الطعام في ما يؤكل، ومن وسائله في ما يستخدمونه للإطعام، كالشفتين واللسان والمعدة وما إلى ذلك.

«**ويميت الأحياء ويحيي الموتىٰ**» يميت الأحياء باعتبار أنَّ سنَّة الله في الكون انّه يخلق الناس، ويفرض عليهم سنّة الحياة وسنة الموت. وهو الذي يُحيي الموتىٰ عندما يبعثهم يوم القيامة.

«**وهو على كلِّ شيء قدير**» فلا حدَّ لقوّته ولا حدَّ لقدرته.

كلّ هذه الجولة ـ من أوّل دعاء الإفتتاح إلى هذه الكلمات ـ تعلمنا كيف نتصوّر الله

في مواقع عظمته، وكيف نتصوّره في رعايته لخلقه، وكيف نتصوّره ـ سبحانه وتعالىٰ ـ في علاقاته بمخلوقاته، سواء من أطاعهُ ومن عصاه، وكيف نتصوّر الله، سبحانه وتعالى، في خصائصه؛ فهو الخالق، وهو الرّازق، وهو المُطْعِم، وهو المحيي، وهو المميت، وهو القادر على كلّ شيء. . تلك هي صفات الله، وكلّ صفة من صفات الله في هذا المجال تقابلها صفة أخرى، فالله الخالق والآخرون المخلوقون، والله الرّازق والآخرون المرزوقون، والله المطعم والآخرون المطعمون، والله المحيي والآخرون الذين يحصلون على الحياة، والله المميت والآخرون هم الميتون، والله القادر والآخرون هم العاجزون وهكذا.

* * *

«اللهم صلِّ علىٰ محمدٍ عبدِك، ورسولِك، وأمينِك، وصفيِّك، وحبيبِك، وخيرتِك من خلقك، وحافظِ سرِّك، ومُبلِّغِ رسالاتِك، أفضلَ، وأحسن، وأجمل، وأكمل، وأزكى، وأنمى، وأطيب، وأطهر، وأسنى، وأكثرَ ما صلَّيْتَ وباركت، وترحَّمتَ وتحنَّنت، وسلَّمتَ على أحدٍ من عبادكَ وأنبيائِكَ ورُسُلِك، وصفْوَتِك، وأهلِ الكرامةِ عليكَ من خلقِك».

علاقتنا بالرسل من خلال رسالاتهم

هذا الفصل الثاني من دعاء الإفتتاح، ففي الفصل الأول كان الحديث كلّه بما هو أهله، وبما ينبغي لكرم وجهه وعزّ جلاله، وبما يزيدنا معرفةً بالله ووضوحاً في آفاق عظمة الله ونعم الله. أمّا في هذا الفصل فإنّه ينطلق للصلاة على رسول الله (ص) وعلى الأئمة من أهل بيته(ع).

عندما نطلب من الله أنْ يصلّي على نبيّه، وعلى أوليائه، وعلى أنبيائه، فإنَّ معنىٰ ذلك أنّنا نطلب من الله نْ يرفع درجتهم، لأنَّ الصلاة من العبد هي الدعاء، أما من الربّ فهي المغفرة لمن ابتليَ بالذنوب، وهي رفع الدرجة لمن كان معصوماً من الذنوب.

نلاحظ في القرآن الكريم أنَّ الله يتحدّث عن الصلاة علىٰ الصابرين، وعن الصلاة على المؤمنين، فنحن نقرأ ﴿**الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنّا لله وإنّا إليه راجعون* أولئك عليهم صلوات من ربّهم ورحمة**﴾[1] فالله يصلّي علىٰ الصابرين وتلك هي أعلى الدرجات. إنَّ الله كما يصلّي على رسوله وعلى رسله فإنّه يصلّي على الصابرين، وصلاة الله على الصابرين هي مغفرة الله لهم، وعفو الله عنهم، ورفع الله لدرجتهم، وهكذا نجد في آية أخرى ﴿**هو الذي يُصلّي عليكم وملائكته**﴾[2] فكما انَّ الله وملائكته يصلّون على النبي، الله يصلّي على المؤمنين وملائكته يصلّون عن المؤمنين، أي ان الله يغفر للمؤمنين ذنوبهم، ويرفع درجتهم، والملائكة يطلبون من الله أنْ يغفر للمؤمنين ذنوبهم، وأن يرفع درجتهم.

وعلى هذا الأساس، فإنَّ صلاتنا على النبي (ص) هي دعاؤنا له أنْ يرفع الله درجته أكثر. وعندما نقرأ في بعض الأدعية: «**أعطِ محمداً أفضل ما سألك، وأفضل ما سُئِلت له، وأفضل ما أنت مسؤولٌ له إلى يوم القيامة**» هنا نريد أنْ نتفهّم ما هو دور الصلاة على رسول الله وأوليائه وأنبيائه في مسألة الإيمان؟

هناك نقطتان: فهناك مسألة تتّصل بنا، ومسألة تتّصل برسول الله (ص). فالمسألة التي تتّصل برسول الله (ص) هي أنْ نطلب من الله أن يرفع درجته، وأنْ يزيد في قربه إليه. أما المسألة التي تتّصل بنا فهي إحساسنا الدائم بالإعتراف بالجميل لرسول الله وبالإرتباط برسول الله، بحيث نتمثّل رسول الله (ص) فنرى كما ورد في بعض الأدعية، «**حمّلته رسالتك فأدّاها، وأمرته بالنُّصح لأمّته فنصح لها**»، وفي دعاء يوم الجمعة: «**أدّى ماحمّلته إلى العباد، وجاهد في الله عزّ وجل حقّ الجهاد، وأنّه بشّر بما هو حقٌّ من الثواب، وأنذرَ بما هو صدقٌ من العقاب**» فأنت تتمثل رسول الله (ص) لا من خلال شخصه لترتبط به ارتباطاً شخصياً، كما يفعل النّاس الذين يتغزّلون بجماله، ولكنّك تتصوّر رسول الله من موقع رسالته: «**حمّلته رسالتك فأدّاها، وأمرتهُ بالنّصح لأمّته فنصح لها**».

---

(١) البقرة؛ ١٥٦، ١٥٧.

(٢) الأحزاب؛ ٤٣.

وعندما تـذكر رسول الله دائماً ـ من خـلال الصـلاة عليه ـ من موقـع رسالته، فإنّك بذلك تتعرّف علاقتـك برسول الله، وهي علاقتك بصاحب الرسـالة، لأنَّ رسالته التي عانىٰ ما عاناه من أجلها، هي الرسالة التي أرسله الله بها إليك وإلى الناس، فهو قد قام بـالجميل حيث هيّأ لك الوسـائل من خـلال جهده ودعـوتـه وتبليغه، لكي تـرتفع في معرفتك بخطّ المسؤولية، وفي معرفتك بالوسيلة التي تتقرّب بها إلىٰ الله سبحانه وتعالى.

من هنا، كان هذا الأدب الإسلامي الـذي علّمنا الله إيّاه في القرآن لأنَّ الله قال ﴿**إنَّ الله وملائكتـه يصلّون على النبيّ يا أيّها الـذين آمنوا صلّوا عليـه وسلّموا تسليماً**﴾[1] فالله أراد منّـا أنْ نتحـرّك على أسـاس أنْ نصلّي عليـه، وأنْ نسلّم عليـه دائماً، كما يصلّي الله عليـه، وكما يصلّي الملائكة عليـه دائماً. وهذا الأدب الإسـلامي من أجل إيجاد العلاقـة الوثيقة بيننا وبين الرسول (ص) بحيث أنّنا نتذكّـره وندعو له من خلال ما نستشعره من جميلِهِ الـذي أدّاهُ لنا في رسالته، وبـذلك نُخلص لهذه الرسالـة لأنَّ رسول الله (ص) إذا كان كبيراً بالرسالة ﴿**إنّا أرسلناك شاهداً ومبشّراً ونذيراً**﴾[2] كان كبيراً مـن خلال أنَّ الله اصطفاه مـن بين خلقه، واختـاره من بين خلقه لـرسالتـه، فهو كَبُر بـالرسـالة وكَبُرت الرسالـة به، وأعطىٰ الرسالة من كـلّ طاقته، واستطاع أنْ يتأدّب بالـرسالة، وأنْ يُثبت مواقفه من خلال الرسالة.

وهذا التفـاعل بين رسول الله وبين رسالتـه هو الـذي جعل منه رسولاً صـامتاً، أي جعل الرسالة تتحرّك في كلِّ كيانه، فكان خُلقُه القرآن، كما جعل شخصيته أيضاً حركةً من أجل الرسـالة، وهـذا المعنىٰ يجعل عندنـا ارتباطاً بـرسول الله من خـلال الرسـالة. وبذلك نتحسس دائماً عندما نذكره مسألة الرسـالة، وكيف يجب أنْ نرتبط بالرسالة من خلال ارتباطنا به، لأن الله سبحانه وتعالى لم يجعل ارتباط المسلمين برسول الله من خلال شخصه. ولذلك قال لهم: ﴿**وما محمدٌ إلاّ رسولٌ قد خلتْ من قبله الرسلُ أفإن مات أو قُتل انقلبتم علىٰ أعقـابكم ومن ينقلب على عقبيـه فلن يضرّ الله شيئـاً وسيجـزي الله**

---

(١) الأحزاب؛ ٥٦.

(٢) الفتح؛ ٨ ـ الأحزاب؛ ٤٥.

الشاكرين﴾[1] أي إذا مات محمدٌ أو قُتل فإنَّ عليكم أنْ تستمروا في رسالته لأنّها رسالة الله . . ﴿**ما كان محمد أبا أحدٍ من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين**﴾[2].

لا يمكن أنْ نفصل بين رسول الله وبين رسالته، كما يفعل بعض النّاس، حين يستغرق في المواليد، ويذهب للزيارة، ويصرف الكثير من المال لزيارة رسول الله، ولكنّه ليس مستعدّاً لأن يدفع شيئاً من المال في سبيل تقوية مواقع رسالة رسول الله. فلو قلت له: اصرف مالاً من أجل الإسلام، فالإسلام يحتاج لمالك سواء كان إسلام الدعوة أو إسلام الجهاد، فهو غير مستعد، ولكن إذا أراد أن يَذهب للزيارة فهو مستعد لأن يبيع كلّ ما عنده ليذهب، لأنه يعتبر الزيارة أمراً شخصياً. ولكن الأمر ليس كذلك، فعندما تزور النبي (ص)، أو تزور الأئمة (ع)، أو تزور الأولياء شخصياً، فإنما تزورهم لتجدّد عهداً بهم، ولتتمثّل في زيارتك لهم كلَّ المعاني التي تتمثّل في عظمة شخصياتهم. . هذه هي الزيارة.

لنأخذ زيارة وارث للإمام الحسين (ع) مثالاً على ذلك، فإننا لا نرى فيها شيئاً شخصياً:

«**السلام عليك يا وارث آدم صفوة الله. السلام عليك يا وارث نوح نبيّ الله. السلام عليك يا وارث إبراهيم خليل الله، السلام عليك يا وارث موسىٰ كليم الله. السلام عليك يا وارث عيسىٰ روح الله. السلام عليك. . .**» وهكذا فالزائر يتحدّث عن الحسين (ع) باعتبار انّه سار في الخط الذي بدأته الرسالات. . «**أشهد أنّك قد أقمت الصلاة، وآتيْت الزكاة، وأمرت بالمعروف، ونهيت عن المنكر، وعبدت الله مخلصاً حتىٰ أتاك اليقين**».

هنالك الكثير من النّاس يزور الحسين (ع) ويقيم مجالس العزاء، ويضرب بالسيف على رأسه في أيّام عاشوراء ولكنّه لا يصلّي ولا يصوم، أو يصلّي وليس مستعداً لأنْ يدفع الحقوق الشرعية وهو الذي يقول «**أشهد أنّك قد أقمت الصلاة وآتيت الزكاة**». فتقول

---

(١) آل عمران؛ ١٤٤.

(٢) الأحزاب؛ ٤٠.

له إدفع يـا فلان زكـاة مالك فيقول: لا، أنـا أقيم العزاء، وأضع الطعـام واعمل كذا. أليس هناك من يـزور الحسين (ع) ويحيي مراسم عاشوراء، وفي الوقـت نفسه يرفض أنَّ تتحجب ابنته أو زوجته، بل يأمرها بالسفور وينهاها عن الحجاب، ويأمرها بالإنفتاح على غير خط الله، وينهاها عن الإنفتاح على خطّ الله؟.

الصلاة على النبي وآله ليست مجرد تقليد

فيجب أنْ تكـون علاقتنـا بالنبي والأئمـة علاقـة إسلاميـة. يُروى عن الإمـام زين العابدين (ع) انّه قال: «**حُبّونا حبَّ الإسلام**»، كما يُروى، في الكافي، عن الإمام الباقر (ع) انّه قال: **أفيكفي الرجل أنْ يقول أحبّ علياً وأتـولاّه، ثم لا يكون فعالاً ؟! فرسول الله خيرٌ من علي. أفيكفي الرجل أن يقول أحـبّ رسول الله ثمّ لا يعمل بسنّته؟!**» إلى أن قال: «**من كان ولياً لله فهو لنا ولي، ومن كان عدواً لله فهو لنا عدو، والله لا تُنال ولايتنا ـ أهل البيت ـ إلاّ بالورع**».

إذاً، معنىٰ الصلاة على النبي (ص) وعلى أنبياء الله وأوليائه، ليس مجرّد تقليد نمارسه دون وعي، ولكن لكي نتذكر رسول الله في ما عاناه من تبليغ رسالة الله، ومن الجهاد في سبيل الله حتىٰ لا ننسىٰ ذلك كلّه فنستمـر في هذا الطريق. . نتـذكّره فنتذكر رسـالته، ونتذكّره فنتذكّر تعبه، ونتذكّر دعوته، ونتذكّر جهاده، لننطلق لنكون من الدعاة إلى الله كما سيأتينا في الدعاء.

الأنبياء والأئمة (ع) عبيد الله

لاحظوا الصفات التي جـاء بها الدعاء: «**اللهم صلِّ على محمـدٍ عبدك**» فأوّل شيء نتمثّله هو عبد الله. فلماذا أكّدت هذ الكلمة أولاً؟

لأنَّ أعلى ما يعظَّم بـه الإنسان عند ربّه هو إخـلاصه في العبودية لـربّه، فكلّما كنت عبداً لله أكثـر، كنت قريبـاً لله أكثر، وكنت حـرّاً أمام الشيطـان وأمام أوليـاء الشيطان أكثر. ولذلك فإن الأنبياء والأولياء إنّما كبُروا وعظُموا من خلال كونهم عباداً لله.

الكلمة المعروفة للإمام علي (ع) في مناجاته «**كفىٰ بي عزّاً أنْ أكون لك عبداً**»: منتهىٰ العز أن تقبلني أنْ أكـون عبداً لك، لأنّك عندمـا تقبلني عبداً لك، تجعلني أتقلّب في ساحات رحمتك ونعمتك ورضوانك. «**كفىٰ بي عزاً أنْ أكون لـك عبداً، وكفىٰ بي فخراً أنْ تكون لي رباً، أنت كما أحبّ فاجعلني كما تُحب**». فالعبودية هي موقع العظمة في شخصية الإنسان المؤمن نبياً كان أو ولياً.

والنقطة الثانية: أنْ تـذكر هذه الكلمة أمام كلّ من يتمثّلهُ النـاس في مواقع العظمة حتى يبتعدوا عن الغلـوّ في شخصه، لأن تذكـر العظماء في مواقع عظمتهم قـد ينحرف بنا عن الطريق بحيث نصل إلى مـرحلة الغلو، وقد نصل إلى حد أن نـؤلّه بعض الأنبياء مثلاً، خصـوصاً إذا كـانت عنده معجـزات كبيرة، كما يفعل بعض الناس بـالنسبة إلى عيسىٰ (ع)، بـاعتبار أنّه يُبرىء الأكمـه والأبرص ويحيي الموتـىٰ. وكان يقول انـه يفعل ذلك بإذن الله، ولكن الناس استغرقـوا في ذاته واستغرقوا في ما شاهـدوه من أفعاله ومن كرامته، فابتعدوا عن أنْ ينظروا إليه من موقعه الذي لا يبتعد عن العبودية لله.

لا بدّ ـ دائماً ـ عندما نتـذكّر رسـول الله أن نقـول انه عبده: «**أشهـد أنَّ محمداً عبده ورسوله**»، كذلك عندمـا نتذكّر أمير المؤمنين علياً (ع) علينا أنْ نقـول هو عبد الله ووليّ الله، وهكذا كلّ إمامٍ من الأئمة.

نحن نلاحظ في زيـارتنا لـلإمام الحسين (ع) في مقام بيـان عظمة الحسين: «**أشهد أنك أقمت الصلاة، وآتيت الـزكاة، وأمرت بالمعروف ونهيـت عن المنكر، وعبدت الله**» كنت المخلص في عبادتك لله سبحانه، وتعالى «**وعبدت الله مخلصاً حتىٰ أتاك اليقين**».

«**اللهم صلِّ على محمدٍ عبـدك ورسولك**» تذكرهُ وتصلّي عليه، من مـوقع أنك تذكره برسـالته، لتظلّ الرسالـة في وعيك ولتعرف مسؤوليتك عن الـرسالة من خلال مـا كان النبي مسـؤولاً عن الرسالـة، سـواء كان ذلك في عملـك الرسالـي، أو كـان ذلك في دعـوتك من أجـل الرسالـة، أو في جهـادك من أجل الـرسـالـة وتعزيـزك لمواقـع الرسالـة.

الرسول أمين الله وصفيّه وحبيبه

«**عبدك ورسولك وأمينك**» كان الأمين، ليس على المال فقط، فتلك كانت عند قريش عندما كانوا يسمّونه (الصادق الأمين)، ولكنّه كان الأمين على الوحي والأمين على الأمة، كان الأمين علىٰ الوحي، فلم يزِد حرفاً ولم يُنقص حرفاً، وكان الأمين على الرسالة فكانت كلّ حياته في كلّ جزئياتها وكلياتها منسجمةً مع الرسالة.

يُروى في سيرته انّه وقف في آخر حياته، وكان في أيام مرضه الذي توفِّيَ فيه، وقف ليقول للنّاس: «**أيّها النّاس إنّكم لا تُمسكون عليَّ بشيء إنّي ما أحللْتُ إلاّ ما أحلَّ الله وما حرّمتُ إلاّ ما حرَّم الله**»، وفي رواية «**إنّي ما أحللْتُ إلا ما أحلَّ القرآن وما حرّمتُ إلاّ ما حرَّم القرآن**». بحيث أراد أنْ يقول لهم: كنت أميناً علىٰ الرسالةِ في تبليغي إيّاها لكم، كما كنت أميناً على الرسالة في تطبيقها علىٰ نفسي، بحيث لم أنحرف شعرةً عن خطِّ الرسالة كلّها.

كان الأمين علىٰ وحي الله وكان الأمين علىٰ الأمّة، أعطىٰ الأمّة من فكره، ومن جهده ومن كلِّ طاقةٍ يملكها. وبهذا نتمثل رسول الله أميناً على وحي الله، وأميناً علىٰ الأمّة، وقد قال الله لنا: ﴿**لقد كان لكم في رسول الله أسوةٌ حسنة**﴾[1] اقتدوا به، كونوا الأمناء كما كان، وكونوا الدعاة إلى الله كما كان.

«**وصفيك**» لأنّه الذي اصطفيته من بين الناس فكان المصطفىٰ لك، وكان المختار من قبلك للنبوّة وللرسالة.

«**وحبيبك**» كان الحبيب الذي أحببته، ولم تحبَّه يا رب من أجل شيءٍ في جسده، فأنت الذي خلقت جسده، ولكنّك أحببتَه بما تحبُّ به الأنبياء والأولياء، أحببته من خلال عظمة الإيمان بك في عقله، ومن خلال عظمة الإخلاص لك في قلبه، ومن خلال عظمة جهاده في سبيلك. أحببته لأنّك قُلت لنبيِّك أنْ يقول للنّاس الذين يريدون أنْ يُعبِّروا عن حبِّ الله وأنْ يطلبوا حبَّ الله لهم: ﴿**قلْ إنْ كنتم تحبون الله**

---

(١) الأحزاب؛ ٢١.

فاتَّبِعوني يُحببْكم الله﴾[1] فالله يحبُّ عباده سواء كانوا أنبياء أو أولياء من خلال توحيدهم، ومن خلال صفاء إيمانهم، ومن خلال إخلاصهم له في أقوالهم وأفعالهم وعلاقتهم.

«**وحبيبك وخيرتك من خلقك**» أنت اخترته من بين خلقك، ومن ألقاب رسول الله (المختار)، (المصطفىٰ المختار) أي الذي اصطفاه الله من بين خلقه واختاره من خلقه.

الرسول (ص).. حافظ سرّ الله

«**وحافظ سرّك**» فالله سبحانه وتعالى أودع لدى الأنبياء أسراراً، وأراد لهم أنْ يتحرّكوا بها حسب ما أوكله إليهم في ما يبلّغونه وفي ما لا يبلّغونه، فكان هو حافظ السرّ.

«**ومبلِّغ رسالاتك**» لأنّه بلَّغ رسالتك، وكان أميناً على ذلك حتىٰ في ما قاله الله سبحانه له في آخر ما أنزله عليه وهو ولاية أمير المؤمنين (ع) قال له: ﴿**يا أيّها الرسول بلِّغ ما أُنزلَ إليك من ربّك وإنْ لم تفعل فما بلَّغتَ رسالته**﴾[2] وإذا كنت تخاف من النّاس لأنهم قد يقولون جعل الخلافة لابن عمّه ﴿**والله يعصمك من النّاس**﴾[3].

هنا، بعد أنْ يبيّن صفات الرسول التي يستحقّ من خلالها أنْ نذكرهُ بالصلاة دائماً بين يدي الله، يريد أن يبيّن ويقول يا رسول الله بعد أنْ بلغتَ في عقولنا وفي قلوبنا هذه المرتبة فإنّنا لا نرضىٰ لك إلاّ بأفضل الصلوات، بحيث لا يرقىٰ إلى صلاتنا عليك أحدٌ، ولذا يأتي: «**صلِّ على محمدٍ عبدك، ورسولك، وأمينك، وصفيّك، وحبيبك، وخيرتك من خلقك، وحافظ سرّك، ومبلّغ رسالتك، أفضل، وأحسن، وأجمل، وأكمل، وأزكىٰ، وأنمىٰ، وأطيب، وأطهر، وأسنىٰ، وأكثر، ما صلّيْت، وباركت، وترحمت، وتحننت، وسلمت، على أحدٍ من عبادك، وأنبيائك، ورسلك، وصفوتك، وأهل الكرامة عليك من خلقك**» الصلاة التي تتميّز بأنّها أجمل الصلوات، وأطهرها وأكثرها نموّاً بحيث لا ترقىٰ إليها صلاة على أحدٍ من عبادك وأنبيائك. «**وباركت**» ولا نطلب

---

(١) آل عمران؛ ٣١.

(٢) و (٣) المائدة؛ ٦٧.

منك الصلاة له وحسب، إنما نطلب أنْ تجعل محمداً مباركاً عندك، أنْ تباركه وأنْ تنمّيَ قدره وترفع درجته «**وترحّمت**» أن ترحمه بما ترحم به أنبياءك «**وتحنَّنت**» أنْ تعطيه الحنان الذي تعطيه لكلّ أوليائك.

***

«اللهم وصلِّ علىٰ عليٍّ أميرِ المؤمنين، ووصيِّ رسولِ ربِّ العالمين، عبدِك، ووليِّك، وأخي رسولِك، وحجَّتِك على خلقِك، وآيتِك الكبرى، والنَّبأِ العظيم».

عظمة أهل البيت في عبوديتهم لله

في أجواء الصلاة على رسول الله (ص)، لا بدّ لنا أن نلتقي بالصلاة علىٰ (آله)، وقد ورد عن رسول الله(ص): «**لا تُصلّوا عليَّ الصلاة البتراء**» قيل له: (وما هي الصلاة البتراء) قال: «**أنْ تُصلّوا عليَّ ولا تُصلّوا على الآل (أهل بيتي)**».

وهكذا رأينا أنّ جميع المسلمين ينطلقو في ما يُسمّىٰ بـ (الصلاة الإبراهيمية) وهذه الصلاة هي: «**اللهم صلِّ على محمدٍ وآل محمد كأفضل ما صلَّيْت علىٰ إبراهيم وآل إبراهيم في العالمين**»، وتسمّىٰ بـ(الصلاة الإبراهيمية) التي يُصلّىٰ فيها علىٰ النبي وآله من خلال الصلاة على إبراهيم وآله.

وليس المقصود بـ (آل محمد) كلَّ من انتسب إلى رسول الله (ص)، فهناك الكثيرون المنتسبون إلى رسول الله، المنحرفون عن دينه ونهجه، وعن خط الإستقامة في حياته وعن خط الـ (آل) بشكل عام.

المقصود بـ (أهل البيت) هم الذين عناهم الله في قوله ﴿**إنّما يريد الله ليُذهب عنكم الرجّس أهل البيت ويطهّركم تطهيرا**﴾[1] وهم في زمان رسول الله (عليٌّ وفاطمة والحسن والحسين) ثم جاءت الأحاديث لتشمل كلمة (أهل البيت) الأئمة التسعة المعصومين

---

(١) الأحزاب؛ ٣٣.

من ذريّة الحسين (ع). ولـذا عندمـا يقال «آل محمد» المقصـود بها الزهـراء (ع) وبعلها وبنوها وليس المقصود كلّ من انتسب لرسول الله (ص).

ومن الطبيعي أنّ مسألـة الصلاة علىٰ آل البيت ليست بلحـاظ قرابـة آل البيت، أو بلحاظ قرابـة الأئمة لرسول الله، ولكن بلحاظ خـلافتهم عن رسول الله، وبلحاظ أنّهم يمثّلون الإمتـداد الفكري والروحي والعملي لخطّ الـرسالـة.. هذا هو الأسـاس في هذا الموضوع، وإلاّ فلرسول الله أكثر من ابن عم فلماذا لا يكـونون كعليّ؟ ولرسول الله أقرباء أيضـاً، فلماذا لا يكونـون كالحسن والحسين، فـالقضية ليست القـرابة، وإنّما الكفـاءة الروحيـة والكفاءة العلميـة والعملية، التي انطلق بها أئمة أهـل البيت(ع) حتىٰ صاروا بالمرتبة التي يستحقون فيها أنْ يجعلهم الله حججاً على عبادهِ.

ويحدثنا هذا الـدعاء عن الصلاة على رسول الله، والصـلاة على آله بالتفصيل، لأنّ المقصـود بهذا الدعـاء هـو أنْ يستذكـر النّـاس أئمة أهـل البيت (ع) واحداً واحـداً، وليتعرّفوا آفاقهم، وليتعرّفوا علاقتهم بهم.

ما هي علاقتنـا بهم؟ هل هي مجرّد علاقة إسم للإمامة نمنحهم إيّـاه؟ أم أنّها علاقة خطٍ نلتزمه من خلال الإرتباط بهم، وننفتح على مسؤوليتنا من خلال ذلك؟

إنَّ مسألة محبّة أهل البيت، ليست مسألة عاطفية نتمثّلها في الدموع التي نذرفها على مصائبهم، وفي الأفـراح التي تتحرّك بها من خـلال أفراحهم، وإنّما المسألـة هي مسألة الولاية، والولاية هي مسألة خط، هم أولياء الله ونحن نواليهم، بمعنىٰ أنْ نلتزم خطّهم ونهجهم وأن ننفتح على حياتهم من خلال ولايتهم لله.

هذا هو الأساس، وهـذا هو الذي أُريد لنا أن نعيشه في دعـاء الإفتتاح، ولذا فقيمة دعاء الإفتتاح أنّـه يُربّي في الإنسان المؤمن ـ كلّما قـرأه ـ مسألـة الولاية لأهل البيت(ع)، ومسألـة الإلتزام بهم، ومسـألة السير على نهجهم، ومسألـة اعتبـارهم حجج الله علىٰ الخلق.

من الطبيعي أنَّ أفضل الأئمة أولّهم علي (ع)، وهناك كلام في أبحاث علماء الكلام؛

انّه هل أنَّ الأئمة في ترتيب فضلهم كترتيب أسمائهم؟

بعضهم يقول كذلك، والبعض يقول: لا، انّ الأئمة سواسية في الفضل، ولكنَّ علياً (ع) هو الذي يفضلُ الجميع.

«**اللهم وصلِّ علىٰ عليٍّ أمير المؤمنين**» اللهم ارفع درجته، اللهم قرّبه إليك أكثر ممّا هو قريب إليك. فعلي هو مَنْ يملك هذه الصفة، وقد ورد في الأحاديث أنَّ هذه الصفة أُعطيت له يوم الغدير، ولهذا قال بعض الصحابة له: (بخٍ بخٍ لك ياعلي أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن) فكان مولى المؤمنين وأمير المؤمنين باعتبار أنّه يملك الولاية التي تعطيه هذه الإمرة.

«**ووصيّ رسول رب العالمين**» وهذه هي النقطة التي نلتزمها في خط ونهج أهل البيت، وهي الإعتراف لعليٍّ بأنّه خليفة رسول الله، وأنّه وصيّ رسول الله الذي أوصىٰ له بالخلافة وبالإمامة عندما قال: «**يا علي، أما ترضىٰ أنْ تكون منّي بمنزلة هارون من موسىٰ إلا أنّه لا نبيَّ بعدي**» والله حدّثنا عن موسىٰ(ع) عندما تحدّث عن أخيه قال: ﴿**واجعل لي وزيراً من أهلي* هارون أخي* اشدُدْ به أزري* وأَشركه في أمري* كي نسبّحَك كثيراً**﴾[1]. فدور علي هو دور الوزير، ودور الوصي، ودور الخليفة، لكنّ الفرق أن هارون كان نبياً.

«**عبدك**» هنا ركز علىٰ عبودية عليٍّ لله كما رُكِّزَ على عبودية محمدٍ (ص) لله، لجهتين:

الجهة الأولى: هي أنَّ عظمته كانت من خلال عبوديته، فعليٌّ (ع) كان يعيش العبودية لله كأفضل ما تكون العبودية لله، فكان يعيش عبودية الخضوع، والخشوع، والإبتهال، والتواضع لله، ألا تقرؤون دعاء كميل الذي يقول: «**فإنّي عبدك الضعيف، الذليل، الحقير، المسكين المستكين**» إنه يتحدث مع الله بمنطق عبوديته.

والجهة الثانية: هي أنّنا عندما نذكره بالعبودية، فإنَّ ذلك يمنعنا عن الغُلوِّ فيه، كما غالى فيه أناسٌ، أعطوه صفة الربوبية فاتّخذوه رباً وإلٰهاً بطريقةٍ أو بأخرى. عندما نقول

---

(١) طه؛ ٢٩ ـ ٣٣.

انَّ علياً عبد الله فإنّنا نستشعر أنَّ علياً مهما عظُم في فضائله ومهما كبُر في صفاته، فإنّه لا يمكن أنْ يرتفع عن موقع العبودية لله إلى الموقع الذي يعيش فيه شيئاً من معنىٰ الألوهية.

فعليٌّ عبد الله، وعظمته أنّه أخلص لله العبودية، فهو الذي قال عنه رسول الله ـ وهو يريد أن يعطيه الصفة الكبيرة ـ : «**لأعطينّ الراية غداً رجلاً يُحبُّ الله ورسوله ويُحبُّه الله ورسوله**» قضية عليٍّ انّه كان يحبُّ الله ويحبُّ رسوله من خلال حبِّه لله، وبذلك استحقَّ محبّة الله له ومحبة الرسول له، واستحقّ كلّ هذا التعظيم والتكريم، لأنَّ الإنسان كلّما عبد الله أكثر، وكلّما أحبَّ رسوله أكثر، اقترب من الله أكثر.

علي (ع) ولي الله وحجته على خلقه

«**ووليّك**» عليٌّ وليّ الله من خلال أنّه الناصر لله، وهو وليٌّ لله من خلال أنّه عاش في كلِّ حياته لله؛ باع نفسه لله، ودعا إلى الله، ونصر الله في كلّ مواقع النّصرة، وانطلق بفكره ليكون فكرُه كلّهُ لله سبحانه وتعالى، وبذلك استحقّ أن يكون وليّ الله، الذي يحبُّه الله، ويحبُّ الله. فهو يوالي الله، سبحانه وتعالى، من موقع إخلاصهِ لله، والله يعطيه هذه الولاية من خلال حبِّه له ومن خلال رضاه عنه.

«**وأخي رسولك**» إنها المؤاخاة التي أقامها رسول الله (ص) عندما جاء من مكة إلى المدينة، وأراد أن يربط العلاقات بين المسلمين من مهاجرين وأنصار، المهاجرين بعضهم مع بعض، والأنصار بعضهم مع بعض، والمهاجرين والأنصار بعضهم مع بعض، وأراد أنْ يقول لهم إنّكم قد أصبحتم إخواناً، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿**فألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً**﴾[1]، وأن الإيمان أصبح بمثابة النسب، وأصبح صفةً كصفة النسب، ويحمّل الإنسان مسؤوليةً من خلال هذه الصفة التي تقترب من مسؤولية النسب. فلذلك آخىٰ بين بعض المسلمين والبعض الآخر، وعليٌّ واقف لم يؤاخِ بينه وبين مسلمٍ آخر.

---

(١) آل عمران؛ ١٠٣.

وكأنَّ رسول الله أحسَّ من عليٍّ أنّه يتساءَل: لماذا تركه؟ قال: «**أما ترضىٰ أنْ تكون أخي في الدنيا والآخرة**»؟ فكان الأخَ لرسول الله في الإيمان وهو ابن عمّه في النسب وهو صهره في النسب، ولكنَّ أخوته هي أعمق ما يكون في صلته برسول الله ولذا قال الشاعر:

لو رأى مثله النبي لآخاه وإلا لأخطأ الإنتقاء

يعني أنَّ أخوّة رسول الله (ص) لإنسان آخر ليست شيئاً سهلاً، والشاعر يقول: لو أنَّ رسول الله لم يرَ في عليٍّ المرتبة العليا التي تعيش أجواء الرسالة لما آخاه، لأنَّ رسول الله لا يتحرّك من موقع عاطفي، ولكنّه يتحرّك من موقع الإسلام كلّه.

«**وحجَّتك على خلقك**» هو الحجّة علىٰ الخلق لأنَّ الله سبحانه وتعالىٰ أعطىٰ علياً من الموقع، ومن الفكر، ومن الطاقات ما يحتج بها على خلقه، بأنّكم عندما يكون عليٌّ بينكم ـ وهو الذي تترسّمون منهجه ـ فإنَّ الحجّة تقوم عليكم، لأن علياً لا يترك مشكلةً إلاّ ويحلّها، ولا سؤالاً إلاّ ويجيب عنه، ولا يترك عقدةً إلاّ ويحلّها. فعليٌّ (ع) الإنسان الذي تقوم به حجّة الله علىٰ الناس، ونحن عندما نزور الإمام علي نقول: «**السلام عليك يا أمين الله وحجّته على عباده**» فهو الحجّة على العباد.

«**وآيتك الكبرى**» لأنَّ الآية لله هي التي إذا شاهدها النّاس أدركوا عظمة الله، والناس عندما يشاهدون علياً في علمه وبطولته وكلّ صفاته، فإنّهم يرون في عليٍّ الآية الكبرى التي تدلّ على الله.

«**النبأ العظيم**» هناك تفسير في قوله تعالى ﴿**عمَّ يتساءَلون* عن النبأ العظيم**﴾[1] يرى أنَّ المراد بالنبأ العظيم هو عليٌّ (ع). فإذا ثبتت صحة الرواية كان من قبيل الإستيحاء لا من قبيل المعنى المراد باللفظ.

صلِّ اللهم على عليٍّ الذي نتمثّل فيه هذه الصفات التي تعظّمه عندك وتقرّبه إليك، وتعظّمه عندما تجعل منه الحجّة علينا بين يديك.

* * *

(١) النبأ: ١، ٢.

«وصلِّ علىٰ سبطي الـرحمة وإمـامَي الهدى؛ الحسنِ والحسين؛ سيّـدي شباب أهل الجنة».

الحسن والحسين(ع) سيدا شباب أهل الجنة

وننطلق من عليٍّ (ع) لنلتقي بـالحسن والحسين: «**الحسن والحسين إمامـان قاما أو قعدا**»، «**الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنة**» هما سبطا الرحمة، سبطا رسول الله، وهنـاك فرق بين كلمـة الحفيد وكلمـة السبط، فالحفيـد يُطلق على ابن الإبن، والسبط يُطلق على ابن البنت، هما سبطا الرحمة، سبطا رسول الله الذي أرسله الله رحمةً للعالمين.

«**وإمامي الهدى**» في نص رسول الله (ص) في ما يـرويه المسلمون: «**الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة**» فنحن نحبّهما ونعظّمهما ونتّبعهما من خلال أنّهما الإمامان اللذان افترض الله علينا طاعتهما.

وعلى هذا الأساس فإنّنا عندمـا ننطلق مع الحسن (ع) في صلحهِ من خلال الظروف التي كانت محيطة به، فإنّنا نرى شرعيّة الصلح من خلال أنّه الإمام المعصوم الذي رضاه رضى الله، ونهجه نهج الله.

وهكـذا نجـد أنَّ في ثـورة الحسين (ع) شرعية الثـورة في مـواجهـة الظلم، في نطـاق الظـروف الشرعية التي تفـرض حركـة الثـورة، تحت عنوان الأمـر بالمعـروف والنهي عن المنكـر، في الظـروف المماثلـة للظـروف التي عـاشهـا الإمـام الحسين (ع)، لأن الحسن والحسين أساس الشرعية، ولأنهما إماما الهدى اللّذان افترض الله طاعتهما على المسلمين.

***

«وصلِّ علىٰ الصدّيقةِ الطاهرةِ فاطمةَ الزهراءِ سيدةِ نساءِ العالمين».

فاطمةالزهراء (ع) سيدة نساء العالمين

عندما نلتقي بالـزهراء (ع) وهي من أهل البيت (ع) الذين أذهب الله عنهم الرّجس وطهّرهم تطهيرا، نعرف عصمتهـا، لأنَّ هذه الآية هي دليل العصمة في مـا يتحدّث فيه

العلماء، ونعرف قيمة الزهراء (ع) من كلمات رسول الله (ص): «**فاطمة أم أبيها**» و«**فاطمةُ بضعة مني**» وقد ورد ـ أيضاً ـ عن رسول الله (ص) أنّها سيّدة نساء العالمين.

***

«وصلِّ على أئمة المسلمين: عليِّ بنِ الحسين، ومحمَّدِ بنِ علي، وجعفرِ بنِ محمد، وموسىٰ بنِ جعفر، وعليِّ بنِ موسىٰ، ومحمدِ بنِ علي، وعليِّ بنِ محمد، والحسنِ بنِ علي، والخلفِ الهادي المهدي، حُجَجِكَ على عبادِك، وأمنائِكَ في بلادِك، صلاة كثيرة دائمة».

الأئمة حجج الله على العباد والأمناءُ في البلاد

هؤلاء الأئمة التسعة من ذريّة الحسين (ع) في عقيدتنا وفي التزامنا هم حجج الله على عباده، وهم أُمناء الله في بلاده، هم حجج على عبادِهِ في ما يملكون من موقع ومن علم تقوم به الحجّة على النّاس، وأمناؤه في بلاده لأنّهم الأمناء على الإسلام، والأمناء على أمّة الإسلام، وعلى بلاد الإسلام، وعلى حاضر الإسلام ومستقبله، كما كانوا الأمناء على ماضي الإسلام.

«**صلاةً كثيرةً دائمةً**» لأنّنا ننطلق معهم دائماً في كلِّ الحياة ونقتدي بهم ونتّبع آثارهم ونستضيء بضوئهم، فهم كانوا الهداة لنا في الحياة، ولذلك فإنَّ علينا أنْ نذكرهم وننفتح عليهم دائماً، لنرتبط بهم دائماً في جميع مجالات الحياة.

***

«اللهم وصلِّ على وليِّ أمرِكَ القائمِ المؤمَّل، والعدلِ المنتظَر، وحُفَّهُ بملائكتِك المقرّبين، وأيِّدهُ بروحِ القُدُسِ، يا ربَّ العالمين.

اللهم اجعلهُ الداعِيَ إلى كتابك، والقائمَ بدينك، استخلِفْهُ في الأرضِ كما استخلَفْتَ الذين من قبلِه، مكِّنْ لهُ دينَهُ الذي ارتَضَيْتَهُ له، أبدِلهُ من بعدِ خوفِه أمنا، يعبدكَ لا يُشرِكُ بكَ شيئا.

اللهم أعِزَّهُ وأعْزِزْ به، وانصرهُ وانتصِرْ بـه، وانصُرْهُ نصراً عزيزا، وافتَحْ لهُ فتحاً يسيرا، واجعلْ لهُ من لدُنكَ سلطاناً نصيرا.

اللهم أظْهِـرْ بـه دينَك، وسُنَّـةَ نبيِّك، حتى لا يسْتَخْفِيَ بشيءٍ من الحقِّ مخافةَ أحدٍ من الخلق».

* * *

«اللهم وصلِّ على وليِّ أمـرِكَ القـائِمِ المؤمَّل، والعـدلِ المنتظَـر، وحُفَّـهُ بملائكتِك المقرّبين، وأيِّدهُ بروحِ القُدُسِ، يا ربَّ العالمين».

الانتظار الإيجابي هو المطلوب

بعد أنْ انطلق دعاء الافتتاح بالصـلاة على النبي (ص) وعلى الأئمة من بعده الذين هم حجج الله وأوليـاؤه، تحدّث عن الصـلاة بشكل خـاص على الإمام الحجـة المنتظـر (عج) بعد أنْ جرى ذكره في عداد ذكر الائمة (ع)، «**والخلف الهادي المهدي**».

لماذا جرى التركيز على الإمام الحجّة (عج) بشكل مستقل؟

لأنّه إمام زمـاننا، فلا بدّ لنـا أن نعبّر عن التزاماتنا بـإمامته، وعن مشاعـرنا تجاهه، وعن تطلّعاتنا إلى الله في دعم مـوقفه وموقعه، لأنَّ الأئمـة السابقين هم أئمتنا من حيث العقيدة ومن حيث الاتباع، ولكنهم لا يمثّلون مسؤوليتنـا المباشرة، باعتبار أنَّ امامتهم في حركتها الفعلية كانت تمثّل مسؤوليتهم تجاه النّاس الذين عاشوا معهم.

أمّا نحن فانّنا نتمثّل مسؤولية الإمام الحجـة (عج) بالنسبة إلينا، ومسؤوليتنا بالنسبة إليه، أمّا كيف يتمثل مسـؤوليته بالنسبة إلينا بشكل مباشر، فهـذا أمرٌ لا مجال للعلم به بشكل خاص، ولكنّنا نعرف أنَّ هناك دوراً ما له في هذا الاتجاه، ومسؤوليتنا أنْ نبقى في وعينا لعقيدة الإمامة، وفي وعينا لحركتها في حياتنا.

ويتمثّل حضوره فينا من خلال حضور المجتهدين العدول، فقد رُوي عنه (عج) في جواب من سألـه عمّا نفعل في حال غيبتـه: لمن نرجع؟ ومن نسأل؟ ومن الـذي يحلّ لنا

المشكلات؟ فقد رُويَ أنّه قال في جواب ذلك: «**وأمّا الحوادث الواقعة فارجعوا فيها إلى رواة حديثنا، فانّهم حجّتي عليكم وأنا حجّة الله عليهم**» رواة الحديث هم الذين يروون الحديث ويعقلونه ويفقهونه، ولذلك تُفسَّر هذه الكلمة بالمجتهدين والفقهاء العدُول، وهذا ما رُوي عن أبيه الإمام الحسن العسكري (ع) في الحديث عن مسألة مرجعية التقليد: «**وأمّا من كان من الفقهاء صائناً لنفسه، حافظاً لدينه، مخالفاً لهواه، مطيعاً لأمر مولاه، فعلى العوام أنْ يقلّدوه**» هذا منطلق مسألة تقليد الفقهاء العدول، ومن الطبيعي أن هذا في دائرة الخط العام ﴿**فاسألوا أهل الذّكر إنْ كنتم لا تعلمون**﴾[1]. ﴿**وما كان المؤمنون لينفروا كافّة فلولا نَفَر مِنْ كلّ فرقةٍ منهم طائفة ليتفقّهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلّهم يحذرون**﴾[2].

ومن هنا كان مصطلح نائب الإمام، فالفقهاء المجتهدون هم نوّاب الإمام. وجدير بالذكر أن النيابة عندنا على قسمين: نيابة خاصّة: وهي من عيَّنه الإمام في حياته، وهم السفراء الأربعة الذين كانوا في زمن الغيبة الصغرى، فهؤلاء نوّاب خاصون.

وهناك النيابة العامة، أي النواب العامون، وهم المجتهدون العدُول، وهؤلاء لهم مهمّة المرجعية: أنْ يرجع النّاس إليهم في أحكامهم بصفة أنهم نوّاب الإمام في الفُتيا وفي المرجعية، وأيضاً يرجع النّاس إليهم في القضاء، فهم نوّاب الإمام في القضاء، ويرجعون إليهم على مقتضى ولاية الفقيه العامّة في أمورهم العامة. فهناك خط فقهي يقول بأنّ الفقيه وليّ أمور المسلمين، في كلِّ أمورهم، كما هو النبي وليّ أمور المسلمين ﴿**النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم**﴾[3]. وكما أنَّ علياً وأولاده الأئمة (ع) أولياء المسلمين باعتبار انَّ النبي (ص) جعل هذه الولاية لعلي «ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم» قالوا: بلى، قال: «من كنت مولاه فهذا عليٌّ مولاه» يعني من كنت أولى به من نفسه فهذا عليٌّ أولى به من نفسه، وقد جُعلت بعد عليٍّ للحسن ثم للحسين... إلى الإمام الحجة (عج).

---

(١) النحل؛ ٤٣ ـ الأنبياء؛ ٧.

(٢) التوبة؛ ١٢٢.

(٣) الأحزاب؛ ٦.

هذه هي الولاية العامة التي يُشرف بها النبي على الأمة ليدير أمورها، ولتطيعه من خلال أنّه ولي الأمر كما تطيعه من خلال أنّه النبي المبلِّغ المرسل، وهي ثابتة أيضاً للأئمة. وهي تثبيت للفقهاء من خلال نظرية ولاية الفقيه، باعتبار ما ورد عن النبي (ص): «العلماء ورثة الأنبياء»، «العلماء أُمناء الرسل ما لم يدخلوا في الدنيا»، قالوا: وما دخولهم في الدنيا، قال: «اتّباع السلطان». أنْ يدخلوا مع السلطة الجائرة ليكونوا دعماً لها أو جزءاً منها. فإذا كان العلماء ورثة الأنبياء، والأنبياء لهم الولاية العامة فالعلماء أيضاً لهم الولاية العامة. هذه نظرية ولاية الفقيه التي يقول بها الإمام الخميني (قده)، والشهيد الأول قبله، وصاحب الجواهر، ونحن ممّن يقول بها أيضاً، وهناك اتجّاه يقلّص ولاية الفقيه في دائرة خاصة.

إذاً فإن الإمام الحجة (عج) ليس مفصولاً عن نشاطنا الثقافي والسياسي والاجتماعي، لأنّه موجود فينا من خلال الفقهاء الذين هم نوابه العامون، فليس هناك حالة فاصلة، ولذلك فعلينا أن ننطلق مع اسمه ومع موقعه كما لو كان حاضراً بيننا، فهو حاضر وإن كان غائباً عن الأنظار، ولذلك نجد في الدعاء للإمام:

«اللهم عجّل فرجه وسهل مخرجه» «اللهم كن لوليّك الحجّة بن الحسن في هذه الساعة، وفي كلّ ساعة، ولياً، وحافظاً، وقائداً وناصراً» حتى تشعر الأمة بأنَّ لها إماماً ترتبط به سواء من خلال ارتباط العقيدة أو من خلال حركة الفقهاء العدول.

وهناك نقطة يجب أن تُفهم، أنّه ليس كلّ «شيخ» هو نائب للإمام، بل المجتهد العدل الذي يكون مجتهداً في فهم كتاب الله وسنة نبيّه بحيث يستطيع أن يستنبط الأحكام الشرعية من الأدلة الشرعية، وان يكون عدلاً في دينه: **«مطيعاً لأمر مولاه مخالفاً لهواه»**؛ مستقيماً على جادة الشرع، متعقلاً في كلماته، وأفعاله، وعلاقاته، وفي سلوكه، فلا بدّ أنْ يجتمع لديه علم الإسلام وعمل الإسلام، وهذا هو الذي يُرجع إليه في الفتيا إذا كان الأعلم بناءً على نظرية تقليد الأعلم، وهو الذي يُرجع إليه في القضاء.

وهناك حقيقة أخرى يجب أن نعرفها، وهي: أن بعض الناس يتقاضون عند كلّ رجل دين، فالقضاء على قسمين: هناك قضاء التحكيم، وهو انّ شخصين يتراضيان

أن ما حكم به فلان قبلنا به، ولا يشترط في قاضي التحكيم أنْ يكون مجتهداً، ولكن قاضي الشرع، الذي يحكم: حكمت ان هذا البيت لفلان أو حكمت أنّ فلانة زوجة فلان، أو حكمت أن فلاناً قتل فلاناً، أو حكمت أنّ فلاناً يجب أنْ يُقتصّ منه.. الخ، هذه الأحكام لا تجوز إلاّ للمجتهد العدل ولا تنفذ إلاّ من المجتهد العدل، فلو ذهب شخص وقدّم دعوى عند شيخ غير مجتهد وأصدر الشيخ حكماً أنَّ المال لك، والطرف الثاني لم يكن راضياً، فلا يجوز لك أنْ تأخذ المال بحكمه لأنّه ليس مجتهداً.

الفقهاء كلّهم يفتون أنّه لا بدّ من أنْ يكون القاضي مجتهداً، ولهذا نحن نعاني مشكلة هذه الأيام على مستوى القضاة الرسميين والقضاة الحزبيين، لأن حكمهم لا ينفذ شرعاً، لكن إذا كان حكم تراضٍ فانّه صحيح، أما الحكم الشرعي فلا يجوز لك أنْ تأخذ المال بحكم قاضٍ غير مجتهد، إلا إذا تراضيت وتصالحت مع خصمك.

ومن هنا، فالإمام الحجة موجودٌ في حركتنا العامة على مستوى التقليد، وعلى مستوى القضاء، وعلى مستوى الولاية من خلال نظرية الولاية.. موجود في الفقهاء الذين يلون هذه الأمور، ونحن ننظر إليهم من خلال انّهم نواب الإمام، باعتبار خط النيابة العامة: «فارجعوا إلى رواة أحاديثنا» «وأما من كان من الفقهاء صائناً لنفسه، حافظاً لدينه، مخالفاً لهواه، مطيعاً لأمر مولاه، فعلى العوام أن يقلدوه».

إننا نحتاج دائماً أن نحسّ بوجود الإمام. ودعاء الافتتاح من الأدعية التي أريد لها أنْ تكون وسيلة من وسائل التوعية التي يحسّ فيها الإنسان المؤمن بخط الإمامة بحضور الإمام الحجة (عج)، ولذلك يدعو له في غيبته كما يدعو له في حضوره، فهو وليّ الأمر: ﴿**اطيعوا الله واطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم**﴾[1].

«**اللهم وصلّ على وليّ أمرك القائم**» كلمة القائم تعني قيامه بالسيف، وقيامه بالسلطة، وقيامه بالمسؤولية عندما يأذن الله له بذلك، وهناك تقليد ـ ليس واجباً ـ في الوسط الشيعي عندما تُذكر كلمة القائم فإن النّاس يقومون. فما هي إيحاءات هذا التقليد أو هذه العادة التي اعتادها الشيعة في إيران وفي العراق والهند والباكستان؟

---

(١) النساء: ٥٩.

قد يوحي هذا بالاحترام، أو يوحي بالاستعداد للقيام معه، فعندما يقال القائم المؤمّل ونقوم فكأنّنا نقول له نحن نقوم معك في حركتك وثورتك وانطلاقتك، فهي عملية إيحاء نفسي.

«**القائم المؤمّل**» الذي نؤمّله أن يقود الحياة وأن يقود الأمة، «**والعدل المنتظر**»: هو الذي تجسّد فيه العدل. وعندما نَصِف شخصاً بصفة العدل ونقول: فلان عدل، فلا يعني العدل صفةً للشخص إنما دلالة على أنَّ العدل يمثل ذاته وشخصيته بحيث يتجسّد فيه، وهو «**العدل المنتظر**» باعتبار انَّه حسب الحديث النبوي المعروف ـ سيخرج «ليملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما مُلئت ظلماً وجورا» فهو الذي يقيم قواعد العدل الشامل.

وكلمة المنتظر تعني معنى الانتظار، والناس يختلفون في فهمهم لمرحلة الانتظار، فيتصور البعض ان معنى انتظار الحجة (عج) هو أنْ يجلس في بيته وينتظر الإمام ليقرع عليه الجرس، أنْ يا فلان، أنا خرجت. ومن هنا، فإن بعض الناس يقولون إنهم ليس عندهم أي مسؤولية، يصلّون ويصومون ويحصّلون كفاف يومهم وليسوا مسؤولين عن العالم، الإمام الحجة هو المسؤول عن العالم فعندما يأتي سنخرج.

بل انَّ بعض الناس ـ ومنهم شيوخ كبار وعلماء ـ يتطرّفون فيتصورون أنه لا يجوز القيام بأي حركة إسلامية من أجل الثورة على الظالم، ومن أجل إقامة حكم الله في حال الغيبة، لأنهم يرون أنّ كلّ راية تخرج قبل قيام القائم هي راية ضلال، وعلى حسب هذه الفكرة تعتبر راية الإمام الخميني (رض) راية ضلال كأنهم يريدون أن يقولوا إنَّ الإسلام تجمّد من زمن الأئمة (ع)، وعلى الناس ـ كما يقولون ويتصوّرون ـ أن يشجعوا الحكم الظالم ولا يواجهوا الحكم الظالم ويسقطوه ولا يجربوا إعادة الإسلام، وهذا الفكر هو فكر جامد متحجرّ، فالله أرسل النبي للناس كافة وللأزمنة كافة.

هناك بعض الأحاديث قد تكون صادرة عن الأئمة (ع) لأنَّ هناك بعض الناس قد يثورون ليكونوا ولاة أمر الناس، وهم ليسوا في موقع الشرعية. لنفرض أنَّ شخصاً في زمن الأئمة ـ الذين هم ولاة الأمر ـ ينطلق ويثور على أساس أن يقف في مواجهة

الأئمة، فهذه راية ضلال، أما شخص يثور من أجل أن يطبّق الإسلام ويستهدي بخط أهل البيت (ع) وينفتح على مسألة الإمام المهدي (عج) ويهتف باسمه ويحاول أن يمهّد لدولته فكيف تكون هذه الراية راية ضلالة؟!

فهذه الفكرة متحجرّة جامدة ناشئة من عدم الوعي في فهم الإسلام، وفي فهم آيات القرآن والأحاديث، وأصحاب هذه الفكرة يفرحون إذا ما كثرت المظالم في العالم، ويفرحون لسيطرة «إسرائيل» على فلسطين، وسيطرة أميركا على العالم، لأن ذلك ـ باعتقادهم ـ سيقرّب من فرج الإمام (عج).

ولكنّنا لا نحترم هذا الفكر لأنه يعني أنّ الله ربط كلّ المفاهيم الإسلامية من العدل، والحرية، والعزّة، والكرامة، والإسلام بشخص، وهذا غير ممكن.

ثمَّ إنَّ الإمام الحجّة ليس أعظم من النبي، فعظمته من خلال انّه هو من خلفاء النبي، والله يقول: **﴿وما محمد إلاّ رسول قد خلتْ من قبله الرسل أفإن مّات أو قُتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً﴾**[1].

ويخاطب المسلمين بقوله: **﴿ولتكن منكم أمّة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون﴾**[2]. **﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾**[3]. **﴿. . . الظالمون﴾**[4]. **﴿. . . الفاسقون﴾**[5].

ففي كلّ المجالات، وفي كلّ زمان ومكان، قد تختلف الأساليب والوسائل والظروف والخطط، ولكن لا يجب أنْ يتجمّد الإسلام وتتجمّد قضيّة العدل في العالم، ونحن لا نقول ذلك لحالة مزاجية، بل إن مفهومنا هذا هو من القرآن.

نحن نفهم مسألة الانتظار هي أنْ ننتظر الإمام الحجة (عج) كجنودٍ له، مثل

---

(١) آل عمران؛ ١٤٤.
(٢) آل عمران؛ ١٠٤.
(٣) المائدة؛ ٤٤.
(٤) المائدة؛ ٤٥.
(٥) المائدة؛ ٤٧.

الجندي عندما ينتظر القيادة، فيجب أن يتدرّب كل يوم، وإذا كان نائب القائد موجوداً فيجب أن يمشي معه، وأن ننتظره في الطريق الذي نلتقيه فيه، فالإمام لا يأتي إلى بيوتنا، بل سيأتي إلى الطريق والحياة العامة حيث يجدنا قد هيّأنا له الأجواء.

عندما تنتظر شخصاً ما ألا تهيّىء له كلّ الأجواء؟

يجب أن تُهيّىء الأرض، أن تكون هناك أرضٌ يعبد فيها الله، أن تكون هناك أمةٌ تتحرك من خلال خط الله ورسوله، أن تكون هناك بعض الأجواء التي تنفتح على حركة العدل الشامل، حركة الإسلام. وقد لا نستطيع أن نجعل الإسلام يشمل العالم، لكننا نستطيع ـ على الأقل ـ أن نهيّء أمكنة يتحرك فيها الإسلام بحيث تكون ممهدة له.

الانتظار الإيجابي هو أن تعطي كلَّ قوتك وطاقتك كفرد، وكأمّة في سبيل التمهيد له وتهيئة الأجواء له، لهذا نحن جميعاً مسؤولون عن الإسلام.

وعندما نقرأ الدعاء علينا أن ننطلق على أساس الشعور بالمسؤولية الإسلامية؛ فمثلما ندعو ان ينصر الله وليّه، ندعو أنْ نقوم نحن بمسؤوليتنا.

«**اللهم وصلِّ على وليّ أمرك، القائم المؤمَّل، والعدل المنتظر، وحُفَّه بملائكتك المقرّبين**» حتى يشعر بالأمن والطمأنينة والقوة، «**وأيّدهُ بروح القدس يا ربَّ العالمين**» وروح القدس هو الذي يؤيد الله به أنبياءه وأولياءه، فيعطيهم لطفاً من لطفه، وروحاً من روحه، حتى يُثبّتهم على ما هم فيه.

«**اللهم اجعله الداعي إلى كتابك**» اجعله في موقعه، وفي حركته في الحياة، اجعل له انطلاقة الدعوة إلى كتابك، لأنّها دعوة نبيِّك، «**والقائم بدينك**» الذي يقوم برعايته، ويقوم بحركته ومنهجه، والذي يقوم بتحقيق أهدافه.

«**استخلفه في الأرض كما استخلفت الذين من قبله**» اجعله خليفتك في الأرض كما استخلفت الذين من قبله من أوليائك وأنبيائك، «**مكّن له دينه الذي ارتضيته له**» بمعنى قَوِّهِ.. وهنا يستوحي الآية الكريمة: ﴿**ونريد أنْ نمنَّ على الذين أستُضعِفوا في**

الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين * ونُمكِّن لهم في الأرض﴾[1]. أي أنْ نُثبِّت لهم مواقعهم وقوّتهم. وهنا نلفت النظر إلى انه ليس للإمام دين خاص.

فالحديث هنا يدور عن دين الله الذي سيقوم الإمام المهدي بنشره.

«**أبدلْهُ من بعد خوفه أمنا**» باعتبار أن الأخطار التي تحيط به قد تنشر الخوف من حوله، ولكنّه عندما يظهر سيشعر بالأمن الكامل لأنّه برعاية الله.

«**يعبدك لا يشرك بك شيئاً**» حتى يُؤكّد عبادتك في خطّ التوحيد.

«**اللهمّ أَعِزَّه**» اجعله العزيز في موقعه من خلال أنَّه القويُّ بك لأنَّ القوة هي التي تفرض العزّة، «**وأَعْزِزْ به**» اجعلهُ الذي يُعزُّ امّتك، «**وانصرهُ**» على أعدائه «**وانتصرْ به**» انتصر به لدينك، «**وانصرْهُ نصراً عزيزاً**» نصراً قوياً ليس فيه أيّة حالةٍ من حالات الهزيمة، «**وافتح له**» العالم كلّه، من خلال ما تفتحه على رسالته «**فتحاً يسيراً**» لا يكلّفه جهداً كبيراً، «**واجعلْ له من لدُنْك سلطاناً نصيراً**» اجعل له سلطاناً يستطيع أنْ ينصره ويحقق له كلّ أهدافه.

«**اللهم اظهِرْ به دينك**» اظْهِرهُ بمعنى أبْدِهِ واعلِنْهُ وقَوِّهِ «**وسنَّة نبيِّك**» حتى يكون من القوة بحيث يُظهر الدين كلّه ويُظهر الحق كلّه «**حتى لا يستخفي بشيء من الحق مخافة أحدٍ من الخلق**» ليكون مهيمناً على الواقع كلّه، من خلال ما تمنحهُ من قوةٍ ونصرةٍ وعزٍّ ورعاية..

* * *

«اللهم إنّا نرغبُ إليك في دولةٍ كريمة تعزُّ بها الإسلامَ وأهلَه، وتُذلُّ بها النفاقَ وأهلَه، وتجعلُنا فيها من الدُّعاةِ إلى طاعَتِك والقادةِ إلى سبيلِك، وترزُقنا بها كرامةَ الدنيا والآخرة».

---

(١) القصص؛ ٥، ٦.

«اللهم إنّا نرغبُ إليك في دولةٍ كريمة تعزُّ بها الإسلامَ وأهلَه وتُذلُّ بها النفاقَ وأهلَه».

التطلّع إلى دولة الإسلام

هذه الفقرة من الدعاء تُمثّل الإيحاء الدائم لكلّ مسلم ومؤمن يعيش في دولة الكفر، ويضطر إلى أن يتعاون مع كلّ أجهزتها، ويخضع لكلّ قوانينها التي لا تتناسب مع قوانين الشريعة الإسلامية.

وبذلك يعيش الإنسان المؤمن الملتزم المشكلة ـ دائماً ـ من خلال أنَّ نظام الدولة في قاعدته الفكرية لا ينسجم مع القاعدة الإسلامية في نظامها، وقانون الدولة لا ينسجم مع قانون الإسلام، وعلاقات الدولة لا ترتكز على الأسس الإسلامية للعلاقات، وبذلك يعيش الإنسان الازدواجية، بين كونه مواطناً في هذه الدولة، ترتبط مصالحه بكلّ أجهزتها، ويرتبط مصيره بكلّ أوضاعها وعلاقاتها، سواء كان مصيراً اقتصادياً أو سياسياً أو أمنياً أو عسكرياً أو أيَّ شيء أخر، وبين إسلامه الذي يفرض عليه أن لا يتعدّى حدود الله، وأن يلتزم أحكام الله، حتى لو لم يكن هناك دولة إسلامية، وهكذا يظل الإنسان حائراً بين التزامه الديني والتزامه القانوني.

عندما يعيش المؤمن هذا الواقع، فإنّه يبدأ التطلّع إلى دولة كريمة يحكمها الإسلام، فيكون الإسلام عزيزاً بها من خلال أنّه يمثّل قاعدتها وقانونها وخطّها وحركتها، ويُذلُّ النفاق بها، لأنَّ النفاق لا مكان له عندما يكون الإسلام هو المهيمن على الواقع كلّه.

ولا يكفي في تطلّعات الإنسان المسلم أن يعبّر عن تطلّعه وعن رغبته، بل لا بدَّ أنْ تتحوّل رغباتنا التي نقدّمها في دعائنا إلى الله، إلى حركة في حياتنا، لأنَّ الإنسان عندما يرغب في شيء، فإنّ من الطبيعي أن يهيّىء كلّ الوسائل للوصول إليه، فالناس جميعاً يرغبون، فالشاب مثلاً عندما يبدأ حياته يرغب في أن يتزوّج والفتاة ترغب في أن تتزوّج وأن يكون له أو لها بيت؛ فهل يكفي أن يأتي إلى المسجد ويقول: اللهم ارزقني زوجة صالحة وارزقني بيتاً جيداً؟ وهل تكتفي الفتاة بأنْ تقول اللهم ارزقني زوجاً صالحاً وبيتاً

عامراً؟ فهـذا لا يكفي، وإنّما يذهب الشاب ليعمل ويشتغل حتى تتوفر لـه الإمكانات المالية، ثـم يحاول أن يبحث عن الزوجـة الصالحة، وبالنسبـة للفتاة تبحث عـن الزوج الصالح، فالرغبة تتحرّك في حياة الإنسان لتتحول إلى عمل وسعي ونشاط.

كذلك نحن عندما نقول «**اللهم إنّا نرغب إليك في دولة كريمة تعزّ بها الإسلام وأهله وتذلّ بها النفاق وأهله**» ونعبّر عن رغبتنا هذه إلى الله سبحانـه وتعالى، فإنّ الله يقول لنا: أيّها المؤمنون الداعون، إذا كنتم ترغبون في هذه الدولة، فكيف هو سعيكم إلى إنشائها؟ وما هي نشاطـاتكم في سبيل تحقيقها؟ وما هو منهجكم في تعزيز الإسـلام لتقوم دولته؟ وما هو نهجكم في إذلال النفاق لتسقط دولته؟

فعلينا أنْ نقدّم جواباً وذلك بأن نعمل على تأييد كلّ حركة، وكلّ مشروع يعمل على إقامة الدولـة ولو في المستقبل، ونؤكّد دائماً لأنفسنا وفي مجتمعاتنـا أنَّ المسلم قد يتعايش مع دولـة الكفر، ومـع دولة النفـاق عنـدما تفـرض الضرورات ذلك، ولكنّـه لا يُعطي الشرعية إلاّ لدولة الإسلام القائمة على الأسس الإسلامية السليمة.

علينا ـ قبل كلّ شيء ـ أنْ نقيم دولة الإسلام في عقـولنا، وفي قلوبنا، وفي مشاعرنا، بحيث يكون مشروعنـا في كل خطواتنا في الحياة هو الـدولة الإسلامية، حتى لـو كانت الظروف غير ملائمة لـولادة الدولة الإسلامية، لأنّ عدم ملاءمـة الظروف لتكوين دولة إسلامية في هذا البلد أو ذاك لا يعني أن نعطـي الشرعية لغير الإسلام، بل نقول كما كنّا نقول دائماً إنّنا نتعايش مع الباطل ولا نعترف بشرعيته.

مثلاً لو أنَّ أي واحـد منّا أصيب بمرض في جسده، فمن الطبيعـي أنّه يضطر إلى أن يتعايش مع المرض.

ولكن إذا اضطـــررت إلى أنْ تتعـايش مع المرض فهـل معنى ذلك أنْ تعتبر المرض صحة؟

المرض يبقى مرضـاً، والكفر كفراً والنفـاق نفاقاً، فـالكفر لا يصبح إيماناً لمجـرّد انّه فـرض نفسه على الـواقع، والنفـاق لا يصبح إخـلاصاً لمجـرّد أنّـه مكّن نفسه في حيـاة

الناس، والضلال لن يكون الهدى لمجرّد أنّه أصبح الشائع في العصر.

لهذا يجب ـ دائماً ـ أن يكـون عندنا حدّ فاصل بين الكفـر والايمـان، بين الشريعة والقانون، بين الاستقامة والانحراف، ليبقى ميـزان الله هو ميزاننا، فنحن نقرأ في القرآن الكريم آيات: ﴿**وما كان لمؤمـنٍ ولا مؤمنةٍ إذا قضى الله ورسولـه أمراً أنْ يكون لهم الخِيَرَة من أمرهم**﴾[1]. أي إذا حكم الله والنبي بحكم فليس لك الحريـة لأن تقول (أقبل أو لا أقبل).

بعض النـاس يقـول: أنـا مسلم ولكني لست مقتنعـاً بـالحجـاب، ولست مقتنعـاً بتحريم شرب الخمـر، أو تحريم الرِّبا! فإذا كنـت مسلماً فأنت عبد الله وعليك أنْ تطيع أمر الله.

أليس عنـدنا في النظـام العسكـري نفِّذ ثمّ نـاقش، فهكـذا أمر الله نفِّـذ ثمّ اسأل، عليك أنْ تلتزم حكم الله في عقلك وقلبك وحياتك، ولا خيار لك، فليس عندك حرية أمام الله، ليس لك أن تقول: أصلّي أو لا أصلّي، فأنـا حر، أو أقبل أو لا أقبل أنا حر، بل أنت عبـد، فأن تكون مسلماً عليك أن تلتـزم: ﴿**إذْ قال له ربُّـه أَسْلِم قال أسلمتُ لربِّ العالمين**﴾[2]. فما دام الله هـو الذي جعل هـذا الخط، فيجب أن تمشي حتى لـو لم تفهم ما هو السرّ، أو ما هي الحكمة.

ينقل انه عندما كانت السيدة زينـب (ع) في مجلس يزيد، رأى أحد الشاميين طفلة من بنـات الحسين (ع)، وكـان المتعـارف لدى المسلمين أن السبـايـا يتحـولن إلى ملك اليمين، ويبدو أن هذا الشامي كان مقدماً عند يـزيد، فالتفت إلى يزيد وقال له: هبْ لي هذه الجارية (يقصد إحدى بنات الحسين (ع) التي كانت لا تزال صغيرة) فانتفضت زينب (ع) وقالت له ما مضمـونه: ويحك ليس لك ذلك ولا لأميرك. فغضب يزيد من هذا التحدّي وقال لها: لو شئت لكان لي ذلك، قالت له: إلاّ أنْ تدينَ بغير ديننا وتلتزم غير ملّتنا.

---

(١) الأحزاب؛ ٣٦.

(٢) البقرة؛ ١٣١.

فسكت يزيد وانتهر هـذا الشامي عندما أجابته بذلك. ومضمون هـذه الرواية هو: إنك يا يـزيد مـا دمت تدعي الإسـلام، فالإسـلام لا يجيز تملك سبـايا المسلمين، فإذا اردت تملكهن فأعلن خروجك عن الإسلام.

فعندما تقول امرأة مسلمة: أنا لست مقتنعة بالحجاب، أو رجل مسلم يقول لزوجته أو لابنته: أنا لست مقتنعاً بالحجاب، يقال له كما قالت زينب (ع) ليزيد: إلا أن تدين بغير ديننا، لأن الإسلام فرض الحجاب، ولأنَّ الله قال: ﴿**قُلْ لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يُدْنينَ عليهنَّ من جلابيبهنّ**﴾[1]. ﴿**ولا يبدين زينتهنّ إلاّ مـا ظهر منها**﴾[2]. فالشخص عندما يقول: أنا مسلم ولست مقتنعـاً بالحجاب، أو لست مقتنعاً بالرِّبا أو لست مقتنعاً بالخمر، ومـا إلى ذلك، فهذا غير ممكن، فإذا كنت مسلماً فيجب أن تلتزم بكلّ الأحكام الإسلامية.

كذلك نقرأ آية ثانية: ﴿**فلا وربِّك لا يؤمنون حتى يُحكّموك في ما شَجر بينهم**﴾[3]. يقول: لا يكون المسلم مؤمناً، ولا يكون المؤمن مـؤمناً إلاّ إذا جعل شريعتك ـ يا محمد ـ هي الحكم.

إذا صار هناك شِجـار أو نزاع بين الناس، وقالـوا: تعالوا نتحاكم إلى القـانون المبني على غير الشريعة فهؤلاء ليسـوا مؤمنين، حتى لو ذهبوا إلى الحج خمسين مرّة ولـو صاموا وصلّوا الدهر كلّه، فالله يقسم بنفسه ﴿**فلا وربِّك**﴾ وكم في ذلك من تأكيد! فلا يكفي أن يكون الشخص مؤمناً ان يصلّي ويصوم، ولا يكفي أن يذهب للحج وللعمرة، بل لا بدّ أن يلتزم في عقله وقلبه وحياته الرجوع إلى حكم الإسلام في كلّ خلاف ينشأ بينه وبين شخص آخر.

فإذا وقع خلاف بينك وبين زوجتك يجب أن ترجع لحكم الإسلام، وإذا وقع خلاف بينك وبين جـارك، أو بينك وبين شريكك، أو بينك وبين من اشتريت منه أو بعتـه،

---

(١) الأحزاب؛ ٥٩.
(٢) النور؛ ٣١.
(٣) النساء؛ ٦٥.

أو بينك وبين أي جهة أخرى في أي شأن من الشؤون، فعلامة أن تكون مؤمناً هي أن تحكّم الإسلام في ما اختلفت فيه، فإذا قلت أنا لا أتعرّف على الشرع أو الشريعة، وليس عندي إلا القانون والمحكمة والدولة، فمعنى ذلك انك لست مؤمناً. وهذا هو مفاد الآية الكريمة: ﴿**فلا وربّك لا يؤمنون حتى يُحكّموك في ما شَجَر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً**﴾[1] ونحن نرى الكثير من المؤمنين الذين يصومون شهر رمضان أو (رجب، شعبان، ورمضان) ويصلون النوافل وصلاة الليل، ولكن عندما تصل المسألة إلى مصالح مالية، أو عصبيّات عائلية أو عشائرية، أو قاتل ومقتول، فإذا بهم يقولون: تعالوا نحتكم إلى حكم العشائر، أو نحتكم إلى شرع الدولة، والبعض الآخر يسأل هل الشرع معه؟ ليتبع حكمه، فإذا لم يكن معه تحاكم إلى غيره!

الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿**وإذا دُعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريقٌ منهم معرضون * وإن يكن لَّهم الحقُّ يأتوا إليه مذعنين * أفي قلوبهم مَّرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم**﴾[2]. فالقرآن واضح بهذه المسألة. وقال: ﴿**ومن لم يحكم بما أنزل الله**﴾ لم يحكم بما أنزل الله في الاقتصاد، وفي الاجتماع، والسياسة، والأحوال الشخصية، وفي الجرائم، وفي كل شيء ﴿**ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون**﴾[3]. ﴿**ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون**﴾[4]. ﴿**ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون**﴾[5]. فيجب أن نحكم بما أنزل الله.

﴿**ثمّ جعلناك على شريعةٍ من الأمر فاتَّبعها ولا تتّبع أهواء الذين لا يعلمون * إنَّهم لن يُغنوا عنك من الله شيئاً**﴾[6].

---

(١) النساء؛ ٦٥.

(٢) النور؛ ٤٨، ٤٩، ٥٠.

(٣) المائدة؛ ٤٤.

(٤) المائدة؛ ٤٥.

(٥) المائدة؛ ٤٧.

(٦) الجاثية؛ ١٨، ١٩.

الدولة الإسلامية.. هدف نسعى لتحقيقه

من هنا علينا أن نتبنى الدولة الإسلامية في العالم بحيث تكون هي فكرنا الذي نفكّر به، حتى لو كان الواقع لا يساعد على التحقيق، ولكنّنا نظلّ نفكّر، ونطرح الفكرة، ونتعلّم من الآخرين. فهناك تيارات كثيرة موجودة في الواقع كالتيارات الشيوعية، والتيارات القومية، والاشتراكية، والليبرالية و. . . وكلٌ من هذه التيارات يدعو إلى فكره حتى لو لم تكن تساعده الظروف.

يُقال إنّه في فرنسا ـ وفرنسا جمهورية وليست مَلَكيّة ـ هناك اناس يطالبون بإعادة الملكية!.

فما دمت مقتنعاً بفكرتك فعليك أن تظلّ تنادي بها، فالأنبياء عندما أطلقوا فكرهم كانوا أفراداً، فالنبي كان وحده، فقال له الله: ﴿**إقرأ باسم ربّك الذي خلق * خلق الإنسان من علق * إقرأ وربّك الأكرم * الذي علّم بالقلم * علّم الإنسان ما لم يعلم**﴾[1]. ثم ﴿**يا أيُّها المدّثّر**﴾[2] لا تظل متدثّراً في فراشك من البرد ﴿**قُمْ فانذِر * وربّك فكَبِّر**﴾[3]. قم فأنذر حتى لو كنت لوحدك، فأنت صاحب الحق.

إذا سيطر الآخرون على بلادنا، فالغلبة: يوم لنا ويوم علينا، ولكن الخطورة هي إذا سيطروا على عقولنا، وإذا اقنعونا بأن ننسحب من الإسلام، ونطرح شيئاً آخر، بحجة أن الناس لا يتقبلون منا الإسلام، ومن ثمَّ ندعو إلى الديمقراطية أو الاشتراكية أو الليبرالية.

قد يقول شخص إنّ الإسلام فيه قليل من الاشتراكية، وآخر يقول إنَّ الإسلام فيه قليل من الديمقراطية أو هكذا. . . فإذا كان الأمر كذلك فلنأخذ الإسلام فلماذا نقفز إلى منهج الآخرين؟!

يجب أن نفهم القرآن جيداً، لنكون قرآنيين ﴿**وأنَّ هذا صراطي مستقيماً فاتّبعوه ولا**

---

(١) العلق؛ ١ ـ ٥.

(٢) و (٣) المدثر؛ ١، ٢، ٣.

﴿تتّبعوا السّبل فتفرق بكم عن سبيله﴾[1]. ما هو صراط الله؟ صراط الله هو الإسلام. . هنالك طريق من هنا أو من هناك فيجب أن نبقى على الصراط الذي يبدأ من الله وينتهي إلى الله، وهذا هو الذي يؤكد قوة الإسلام في الحياة.

فإذا لاحظنا الآن أنَّ العالم أصبح يتحدّث بمختلف مواقعه السياسية وفي كلِّ إعلامه الاستكباري بأنه تخلص من الخطر الشيوعي بسقوط الاتحاد السوفياتي، وبدأ عنده الخطر الإسلامي! يتكلّمون عن ذلك بكلّ صراحة أن الخطر في الإسلام، لأنّ الإسلام يمثلُ ديناً منفتحاً على العالم كلّه، ويحمل في داخله العناصر الحية التي تؤكدّ حقوق الإنسان، وتستطيع أن تحلّ المشكلة الاجتماعية للإنسان.

وقد قرأت في الصحف أنَّ سفير المانيا في أحد البلدان اعتنق الإسلام وألّف كتاباً في الإسلام باسم: (الإسلام هو البديل)، والآن هناك مشكلة دبلوماسية في المانيا أنّه هل يبقونه بعد أن صار مسلماً أم لا؟ باعتبار أن ذلك مخالف للقانون الألماني!

ولذا فالخطورة التي يشعر بها الغرب المستكبر هي ما يسميّه بالحركة الإسلامية الأصولية، ونحن لا نتبنّى هذه التسمية؛ (مسلمون أصوليون) إذ ليس عندنا مسلمون أصوليون ومسلمون فروعيون، فالإسلام هو كتاب الله وسنة نبيه، هذا هو الإسلام، ولكن قد يختلف فهمه. فهناك أناس يفهمونه بطريقة وآخرون يفهمونه بطريقة أخرى، فليس عندنا مسلم أصولي ومسلم غير أصولي. فإذا التزمت بالإسلام كما نزلَ على رسول الله (ص)، وكما شرَّعهُ رسول الله (ص) فأنت مسلم، وإذا لم تلتزم فأنت لست بمسلم، فالناس الذين يتسامحون بأحكام الإسلام وشريعته هم ليسوا مسلمين أساساً كما لاحظنا في الآيات القرآنية.

لهذا يشعرون بأنّ هنالك خطورة لأنّ الإسلام حاسم في مواجهة الاستكبار، وحاسم في مواجهة الظلم، وحاسم في مواجهة الاحتلال، وحاسم في مواجهة الفسق والضلال، وليس عنده أنصاف حلول. قد يكون المسلمون في رعايتهم للواقع يجمدون بعض نشاطاتهم في جانب، لكن عندما يجمدون الشيء ليس معناه أنْ يُلغوه، فهنالك

(١) الأنعام؛ ١٥٣.

فرق بين أن تجمد الموضوع في حالات الاضطرار وبين أن تلغيه، فهذا الشعار أطلقناه منذ مدّة طويلة: (نتعايش مع الباطل ولا نعترف بشرعيته) ليس عندنا شرعية غير الإسلام!

أذكر أنّ سفير فرنسا السابق جاءني في زيارة استغرقت ثلاث ساعات ونصف، وكان يناقشني: كيف تطرحون الإسلام في لبنان، ولبنان بلد فيه مسلمون ونصارى، وهذا الطرح يخلّ بالتوازن ويعقّد الأمور؟

فحاولت أن أُفهمُه أنَّ طرحنا ليس طائفياً فنحن عندنا فكر نقدّمه للعالم كلّه، للمسلمين ولغير المسلمين، هذا فكرنا والذي يقتنع به فأهلاً وسهلاً..، وإذا لم يقتنع فنحن لا نفرضه على أحد. ومثلما عندكم اشتراكيون وديغوليون ولكل اتجاه منهم فكره الخاص، كذلك لنا فكرنا الخاص. فإذا قبلنا الناس فسيصبح الحكم بيدنا، وإذا لم يقبلونا سنظل نسعى لتحقيق هذا الهدف.

ولم يستطع السفير أن يفرّق بين مفهوم الدين العربي، لأنه لا يفهم علاقة الدين بالتشريع، أو علاقة الدين بالحكم، أو علاقة الدين بالسياسة، ولم يستطع أن يستوعب هذه المسألة، لأنه يعتقد أن مسألة الدين هي من الذي يصير رئيساً للجمهورية وكم هي حصة المسيحيين؟

وبعد أن دار الحديث معه احببْتُ أن أتحدّث بطريقة النكتة فقلت له: مضى علينا وقت طويل ونحن نتكلّم في قضيّة لبنان وكيف نطرح الجمهورية الإسلامية في لبنان وكيف ذلك. فما رأيك انّي أفكّر الأن أنْ أطرح الجمهورية الإسلامية في فرنسا، فنحن عندنا الآن في فرنسا ما يقارب ثلاثة أو أربعة ملايين مسلم، ونحن نعمل على أن يسعى هؤلاء لإقناع الفرنسيين بالإسلام، ونطرح الجمهورية الإسلامية في فرنسا، وأنت تتكلّم عن لبنان، فما قيمة لبنان أمام هذا؟ فنحن نعمل على أسلمة العالم!! هكذا علّمنا نبيّنا محمد (ص)، ﴿**ما ارسلناك إلاّ كافةً للناس بشيراً ونذيراً**﴾[1]. الإسلام دين ودعوة للعالم كما انّ المسيحية دين تبشير. فالمسيحيون الآن يبشّرون ليجعلوا العالم كلّه مسيحياً، فلماذا

(١) سبأ: ٢٨.

من حقّكم أنتم أن تجعلوا الناس مسيحيين ونحن ليس من حقّنا ان نجعلهم مسلمين؟

نحن ندعو المسيحي للإسلام، وندعو الملحد واليهودي للإسلام لأنّ هذه دعوتنا **﴿ولتكنْ منكم أمّة يدعون إلى الخير﴾**[1]. **﴿وقل الحق من ربّكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾**[2]. نحن نبيّن الحقيقة وعلى الناس أن يختاروا ويتحملوا مسؤولية اختيارهم.

نحن لا نريد أن نفرض الإسلام بالإرهاب، ولكنّنا نعتقد انّ من حقّنا أن ندعو إلى الإسلام، فنحن دائماً نقول **﴿قلْ يا أيّها الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم﴾**[3]. هنالك أساس نتفق عليه، وهناك أشياء نختلف فيها ولكن **﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلاّ بالتي هي أحسن﴾**[4]. فكلمة سواء في ما نتفق عليه، إن لا نشرك بالله وأن لا يتخذّ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله، وبالجدال **﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلاّ بالتي هي أحسن﴾** باللطف والأساليب الحضارية، فلماذا يتشنّج أحد ما عندما ندعو إلى الإسلام؟

هناك أناس يقرؤون دعاء الافتتاح ويقولون كيف تتكلمون عن الجمهورية الإسلامية؟ وهم يقرؤون: «**اللهم إنّا نرغب إليك في دولة كريمة تُعز بها الإسلام وأهله**».

كيف يُعزّ الإسلام في الدولة إذا لم يكن قانونه هو قانون الدولة؟

«**وتذلّ به النفاق وأهله**» كيف يُذلّ النفاق إذا كان النفاق هو المسيطر؟

عندما تقرؤون هذه الفقرة ضعوا في داخل عقولكم وقلوبكم فكرة أن يحكم الإسلام كلّ مكان، وأن نعمل لذلك حتى لو كانت الظروف لا تلائم، لأن الظروف إذا لم تكن تلائم الآن فبعد عشر سنين ستكون أفضل، ففي إيران عندما جاء الإمام الخميني

---

(١) آل عمران؛ ١٠٤.

(٢) الكهف؛ ٢٩.

(٣) آل عمران؛ ٦٤.

(٤) العنكبوت؛ ٤٦.

(قـده) استفاد من الظـروف، وحرّك بعض الظـروف وصنع بعضهـا وسقط الطاغـوت وقامت دولة الإسلام.

فالله جعل لكلِّ شيء في الحيـاة أجلاً مسمى ﴿**وتلك الأيام نداولها بين الناس**﴾[1]. ﴿**تؤتي الملك مـن تشاء وتنزع الملك ممّـن تشاء**﴾[2]. نظل نعمل، إن وصلنا إلى هـدفنا فالحمد لله، وإن لم نصلْ نكن قد مهّدنا ورتّبنا الطريق.

مثل قصة الحكيم الفـارسي الذي كان عمـرهُ تسعين سنة ومرَّ به كسرى وهـو يغرس النخيل، والنخيل يحتاج لمدة طويلة حتى ينتج فقال له كسرى: انت عمرك تسعون سنة وتغرس نخـلاً! هل تؤمّل أن تأكل من هـذا النخل؟! فأجابه: غـرسوا فأكلنـا ونغرس فيأكلون! قال: آبـاؤنا غرسوا حتى تتكامل الأغـراس وتتكامل الأجيال فكلّ جيل يحقّق من جهده للجيل الآخـر ما يستطيع من نتـاج ليعطي الجيل الآخر نتاجـه للجيل الذي بعده وهكذا، فـالأجيال تتكامل بهذا، والحضارات تقـوم على هذا الأساس، كل جيل يعطي من جهده شيئاً للحضارة، ويعطي من جهده شيئاً للمستقبل.

كذلك فإذا كنـا لا نستطيع أنْ نقيم دولة إسـلامية الآن، فأولادنـا يستطيعون، وإذا كان أولادنـا لا يستطيعون، فأحفادنـا يستطيعون، فكلّ واحد يهيىء ويقـدم خطوة إلى الأمام، لماذا نيأس ﴿**إنه لا ييأس من رَوْح الله إلاّ القوم الكافرون**﴾[3].

لذلك علينا أن نعيش كما عاش المسلمـون في الدعوة الأولى: ساروا مع النبي (ص) وهو يحدّق في العـالم فكانوا يحدقون معـه في العالم، ولذلك تسـارع الفتح الإسلامي لأن النبي زرع في عقـولهم أنْ: كـونـوا العـالمين في إســلامكم، واستطـاعت الفتـوحـات الإسلامية أن تصل إلى الصين.

هنـاك ثقافـة تحاول أن تفصل بين المسلمين؛ فاللبنـاني لا ينبغـي لـه ـ حسب هـذه

---

(١) آل عمران؛ ١٤٠.

(٢) آل عمران؛ ٢٦.

(٣) يوسف؛ ٨٧.

الثقافة ـ أن يتدخل في بلد آخر، وهكذا كل مسلم يتحرك في نطاق بلده، ولا شأن له بالآخرين . . ولكن؛ «**من لم يهتم بأمور المسلمين فليس بمسلم**» و«**من سمع رجلاً ينادي: يا للمسلمين فلم يُجبْه فليس بمسلم**» .

فينبغي أن نعيش هذا الخط في عقولنا وأن نتذكره كلّما قرأنا دعاء الافتتاح، وحتى لو لم نكن نقرأ الدعاء، فلنحاول دائماً أن نحرك هذه الفقرة في حياتنا، لئلا تنطلق الهزيمة العسكرية أو السياسية لتفرض علينا الهزيمة الفكرية والثقافية .

عز المسلمين مسؤولية

إن هذه الفقرة من الدعاء تمثّل تطلّع المسلمين ـ في كلّ مكان ـ لأن يكون لهم دولة يُمكن أن تُعزَّ الإسلام وأهل الإسلام، وأنْ تُذلَّ النفاق وأهل النفاق، وأنّ شعار الدولة الإسلامية في كلّ مكان هو الشعار الذي ينبغي لكلّ مسلم أن يحمله في عقله وقلبه وكلّ حركته في الحياة .

كما أننا نستوحي من كلمة «**تعزُّ بها الإسلام وأهله وتذلُّ بها النفاق وأهله**» أنَّ على الإنسان المسلم أنْ يعمل على تعزيز الإسلام بحيث يكون الإسلام عزيزاً وقوياً في أيّ موقع من مواقعه، سواء كان ذلك في المواقع الاجتماعية عندما تتنوّع المجتمعات، أو في المواقع السياسية عندما تختلف السياسات، أو في المواقع الثقافية .

لا بدّ أنْ يكون الإسلام عزيزاً في كلّ موقع، فالطلاّب مثلاً عندما يكونون في مدارسهم وفي جامعاتهم لا بدَّ من أنْ يعملوا بمختلف الوسائل وبمختلف المواقع على أن يكون الإسلام عزيزاً، سواء كان ذلك على مستوى المواقع الطالبية، أو على مستوى المواقع الجامعية . . في أيِّ مجالٍ من المجالات بحيث يستشعر كلّ الناس الذين يعيشون في المحيط التربوي أنَّ الإسلام يمثّل قوةً وعزّةً في هذا الموقع أو ذاك، وأنَّ النفاق يواجه ذلّةً وضعفاً في هذا الموقع أو ذاك .

وهكذا عندما يتحرّك المجتمع في مختلف النشاطات الاجتماعية، لا بدّ للمسلمين من أن تكون لهم نشاطاتهم في مختلف القضايا الاجتماعية بحيث يكونون أعزّاء ويكون الإسلام عزيزاً في هذه المواقع .

وهكذا في المسألة السياسية لا بدّ أن يكون للخط الإسلامي قوّة وعزّة، ولا بدّ أن يكون المسلمون أعزّاء، في مختلف المواقع الأخرى العسكرية والأمنية وغيرها، بمعنى انه لا بدّ أنْ يحمل الإنسان مسؤولية عزّة المسلمين والمؤمنين والإسلام بحيث يعطي من فكره ومن جهدِهِ، ويتكامل مع المؤمنين ومع المسلمين الآخرين في هذا المجال، فقد قال الله **﴿ولله العزّة ولرسوله وللمؤمنين﴾**[1]. فقد جعل الله عزّة المؤمنين في سياق عزّته وعزّة رسوله، وإذا كان الإسلام عزيزاً فإنّ ذلك يعني الالتزام بعزّة الله وبعزّة رسوله، وإذا كان المسلمون أعزّاء فإن ذلك يعني الالتزام بعزّة المؤمنين في كلّ المجالات.

لهذا لا بدّ لنا في كلّ نشاطاتنا العملية من أنْ ندرس أيَّ نشاط وأيّة كلمة وأية علاقة، لندرس هل في هذه أو تلك عزّة للإسلام أم فيها إضعاف للإسلام؟

لا بدّ لنا أنْ نواجه كلّ مواقع النفاق، سواء كان نفاقاً إجتماعياً أو كان نفاقاً سياسياً أو نفاقاً دينياً. . لا بدّ أن نواجه كلّ مواقع النفاق بالإذلال وبالإضعاف، لأننا عندما نُذلُّ هذه المواقع ونضعفها فإنّنا نستطيع أن نبعد الإسلام عن أن يعيش موقع الضعف من خلال هذه المواقع.

ونقرأ في دعاء الإمام زين العابدين (ع) في الصباح في ما يوجهنا فيه إلى الأشياء التي تحقّق عزّة الإسلام وأهله، وذلّه النفاق وأهله: «**اللهم وفّقنا في يومنا هذا وفي جميع أيامنا لاستعمال الخير، وهجران الشر، وشكر النِّعم، واتّباع السُّنن، ومجانبة البدع، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحياطة الإسلام، وانتقاص الباطل وإذلاله، ونصرة الحق وإعزازه، وإرشاد الضال، ومعاونة الضعيف، وإدراك اللهيف**» بحيث أنّ الإنسان المؤمن يتحرّك في كلّ يوم من أيّامه، وفي كلّ ليلة من لياليه، من أجل تحقيق هذه الأمور التي يُعزُّ بها الإسلام وأهله ويُذل بها النفاق وأهله.

---

(١) المنافقون؛ ٨.

«وتجعلنا فيها من الدعاة إلى طاعتك» .

الدعوة إلى الله في كل مجالات الحياة

هذه هي الفقرة الثانية في هذا المجال، أن يطلب الإنسان من ربّه أن يوفّقه ليكون من الدعاة إلى طاعة الله سبحانه وتعالى، بحيث لا يكتفي الإنسان المسلم بأن يكون ملتزماً بإسلامه في نفسه، كما يقول بعض الناس: عليَّ أن أصلّي وأصوم وأعمل الواجبات وأترك المحرمات، وليس لي شغل بالآخرين، لأني لا أُحاسَب في قبور الآخرين ولا الآخرون يُحاسبون في قبري، إذاً فأنا مسؤول عن نفسي ولست مسؤولاً عن غيري. وبعض الناس يستشهدون بالآية الكريمة ﴿**يا أيّها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضرُّكم من ضلَّ إذا اهتديتم**﴾[1]. ويفسّرونها بأنهم ليسوا مسؤولين عن غيرهم إنّما هم مسؤولون عن أنفسهم، وهذا خطأ! عليك أن تقوم بمسؤولياتك، ومن مسؤولياتك هي الدعوة إلى الله. فبعض الناس يعتقد انَّ مسؤولياته فقط هي أنْ يصلّي ويصوم؛ ﴿**ولتكنْ منك أمّةٌ يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون**﴾ الله سبحانه وتعالى جعل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبين تماماً، كما انَّ الصلاة والصوم من الواجبات.

نعم، إنَّ عليك بنفسك، ولكن ما هي مسؤولياتك في نفسك؟ كما ان مسؤولياتك أن تصلي وتصوم، فإنّ من مسؤولياتك أن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر. أن تأمر أهلك بالمعروف ﴿**وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها**﴾[2]. ﴿**يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة**﴾[3] فأنت الآن مسؤول عن نفسك وعن أهلك وعن الناس من حولك أيضاً، فإذا قصرّت في ذلك فقد قصرّت في مسؤوليتك أنت، فهذه تختلف عن ﴿**لا يضرّكم من ضلّ إذا اهتديتم**﴾ لأنك عندما تترك الأمر

---

(١) المائدة؛ ١٠٥.

(٢) طه؛ ١٣٢.

(٣) التحريم؛ ٦.

بالمعروف والنهي عن المنكر، وتترك الدعوة إلى طاعة الله وتكون سلبياً في هذا المجال فقد قصرّت في حق نفسك، مثلما تترك الصلاة أو الصوم.

وعندما تطلب من الله أن يجعلك من الدعاة إلى طاعته: «**وتجعلنا فيها من الدعاة إلى طاعتك**» فمعنى ذلك انّك ترغب في ذلك، والله سبحانه وتعالى يقول لك: انا هديتك في هذا الإتجاه فعليك أن تتحرك، لا أنْ تجلس في البيت وتقول: اللهم اجعلني من الدعاة إلى طاعتك.

ومن هنا، إذا كنت ترى أناساً من أقربائك أو أهلك عاصين لله بعيدين عن طاعته منحرفين عن نهج الله سبحانه وتعالى، فإنّ من واجبك أنْ تدعوهم إلى طاعة الله، ولا تقل لنفسك لست مسؤولاً، فالله لم يجعل الإسلام مسؤولية أشخاص بعينهم، إنما جعله مسؤولية الناس كلهم.

فالإسلام ليس فيه كهنوت، كما في بعض الأديان، الإسلام مسؤولية المسلمين جميعاً بعلمائهم ومثقفيهم وطلابهم وتجارهم وجنودهم.. كلّ إنسان حسب إمكاناته، فإذا رأيت إنساناً يشرب خمراً أو يلعب قماراً أو يتجسّس للعدو أو لا يصلي أو لا يصوم، فعليك أن تعمل على دعوته إلى طاعة الله سبحانه وتعالى بالأسلوب الذي تملكه.

استعملوا الأساليب التي تستطيعون من خلالها أنْ تُغيِّروا أفكار الأشخاص الذين تبيعونهم أو تشترون منهم أو تنشئون علاقات معهم.. استخدموا هذه الأساليب لهداية الناس إلى دين الله سبحانه وتعالى.. استخدموا علاقاتكم وصداقاتكم في الدعوة إلى الله.

علينا أن نعتبر انَّ الصداقة تمثّل المفتاح الذي نفتح به عقول الناس على الله وعلى الإسلام لنستفيد من صداقاتنا في سبيل أن نهدي اصدقاءنا، كما يستفيد أعداء الله من صداقاتهم في سبيل إضلال عباد الله.

وهذه طبعاً ليست من دون مقابل، فلو أن شخصاً جاء وقال لك: إذا هديت إنساناً للإسلام فلك مئة ألف دولار، وإذا هديت إنساناً للصلاة والصوم فلك عشرة آلاف

دولار، وإذا جعلت إنساناً يترك شرب الخمر ولعب القمار فلك عشرة آلاف دولار، ألا يثير هذا اهتمامك؟ لا شك في انك ستترك عملك وتنصرف لهداية الناس. لكنك لا تثق بالحديث الذي قاله رسول الله (ص) لعليٍّ عندما أرسله إلى اليمن: «يا علي لئن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك ممّا طلعت عليه الشمس» (ولا يختص الحديث بهداية الرجال إنما هو يشمل النساء أيضاً).

ولكننا نكتشف في داخل نفوسنا عدم الثقة بوعد الله، أو عدم التصديق بالجنة وبالآخرة، لأنّه إذا وعدنا عبد من عباد الله بأيِّ شيءٍ من أمور الدنيا فإنّنا نتحمّس ونبادر وتملأنا الثقة، ولكن الله سبحانه وتعالى يقول ﴿**وسارعوا إلى مغفرة من ربّكم وجنةٍ عرضها السماوات والأرض**﴾[1] فالله يتحدّث عن الجنة وعن رحمته وعن الرزق والنعم، ولا أحد يعمل بما قال، فلماذا؟

لأنّنا لا نعطي الآخرة أهميّة، ولا نعطي الله أهميةً في نفوسنا.

ومن هنا علينا أنْ نربّي إيماننا حتى يكون الله أحبَّ إلينا من أنفسنا، وحتى يكون ديننا أحبّ إلينا من أيّ شيء آخر، لكي نستطيع أنْ نكون قوةً في الأرض.

عندما نقرأ هذا الدعاء لا بدّ أنْ نفكّر في أنْ نكون دعاة إلى طاعة الله، في الصغير من الأمور وفي الكبير منها، دعوة غير المسلمين إلى الإسلام، ودعوة المسلمين إلى الإلتزام بالإسلام.

فنحن إذا كانت اهتماماتنا، من الصباح إلى الليل، هي كيف نربح مؤمناً أو مسلماً لطاعة الله، أو كيف نربح إنساناً لطريق الله، عندما يكون عندنا هذا الإهتمام فسوف نستطيع أنْ نملأ الدنيا إسلاماً.

لنأخذ مثلاً على ذلك: اندونيسيا، أكبر البلدان في عدد المسلمين مع انّها لم يدخلها الفتح الإسلامي، فهذه الدولة التي فيها مائة وخمسون مليون مسلم، كيف جاءها الإسلام؟

---

(١) آل عمران؛ ١٣٣.

جاءها عن طريق التجّار المسلمين الذين كانوا يروّجون الإسلام بما يحملونه من أفكار وأحكام إسلامية . بينما المعروف عندنا انّ التجار يقولون : الدين ليس شغلنا!

الدين يمثّل وجود الشخص وصفته ، فمثلما تريد أن تربح زبائن لبضاعتك كذلك اربح زبائن لدينك واربح زبائن لالتزامك .

ثم ان علينا أن نتحمّل ما يقوله الناس بحقنا ، وما نتعرض له من أذى منهم . . فالمريض قد يشتم طبيبه عندما يحس بوجع العلاج ، ولكنه سيشكره حين يشفى .

قد لا تملك مالاً لتتصدّق ، أو ليس عندك جاه حتى تبذل جاهك ، ولكن لديك لسانك ، فاستعمله للدعوة إلى الله ، وحتى ابتسامك ، فأنت تستطيع أن تربح الناس إلى طاعة الله من خلال سلوكك «كونوا دعاةً للناس بغير ألسنتكم» ليَروْا منك الصدق والخير والورع ، فابتسامة جميلة ووجهٌ منفتح وصداقات قد نستفيد منها لتقريب الناس ، فعندما يحبّك شخص يُحبُّ فكرك ويحب خطك ، وهذه لها الثواب الكبير عند الله سبحانه وتعالى ، خصوصاً في الظروف الصعبة التي يتحرّك فيها الكفر من كل جانب من أجل أن يُبعد المسلمين عن الإسلام ، فنلاحظ الآن الاذاعات والتلفزيونات والمجلات وكل الوسائل تريد أنْ تُضلَّ الناس ، فهناك هجوم على الإسلام ، والهجومات تداهمنا في بيوتنا ، لذلك فإننا نحتاج إلى تحصين بيوتنا وأنفسنا ، وذلك بأن نتحول جميعاً دعاةً إلى طاعة الله سبحانه وتعالى . . .

«وتجعلنا فيها من الدعاة إلى طاعتك ، والقادة إلى سبيلك» .

صنع القيادة مسؤولية أمة

الرغبة الثالثة هي أن يجعلنا الله في موقع القيادة التي تقود الناس إلى طريق وسبيل الله ، وذلك بأن يعمل الإنسان على أن يجعل من نفسه قائداً للطريق إلى الله في أي موقعٍ من مواقع القيادة ، فلا يرضى لنفسه أن يكون مجرد إنسانٍ يقوده غيره ، بل ينمي فكره ويطور تجربته ويزيد خبرته بالمستوى الذي يستطيع أن يكون فيه في درجة المسؤول عن الناس والإسلام والخط الذي يتحرّك فيه الناس إلى الله سبحانه وتعالى ، وذلك بالمزيد من

الدراسة والتجربة والمشورة حتى يستطيع الإنسان أن يجعل من نفسه مشروع قائد، لأننا عندما نقتصر في مجتمعنا وتحرّكنا الإسلامي على أشخاص معينين ليكونوا في موقع القيادة فإنَّ من الممكن أن يأتي ظرف يذهب فيه هـؤلاء القادة عن الساحة، فهل تبقى الأمة من دون قيادة؟

لا بدّ أن يعمل الإنسان على أن يطوّر نيّته، ويطوّر خبرته، ويطوّر موقعه بحسب ما يملك من الظـروف التي يستطيـع أنْ يحرّكهـا في هـذا الإتجاه، لأنّ حـاجتنـا في الـواقع الإسلامي الـواسع إلى القيادات على مختلف المستويـات، هي حاجة ملّحـة وكبيرة جداً لأنَّ ذلك هو الذي يمكن أن يحفظ توازن الحياة الإسلامية وتوازن الواقع الإسلامي.

وكما اننـا نحتاج إلى قيـادات إسلاميـة في مجتمع الـرجال، فنحن أيضـاً بحاجـة إلى القيادات الإسلاميـة في مجتمع النساء، لأننا نريد للمجتمع النسائي أَنْ يتحـرّك إسلامياً في الدائرة النسـائية، حتى نستطيع أن نركـزّ الواقع النسائي على أسـاس الإسلام، ففي كثير من الحالات في العمل الإسلامي الثقافي أو الاجتماعي أو حتى في العمل الإسلامي السياسي، من الصعب جداً ـ إزاء الحدود التي فرضها الإسلام في الأحكام الشرعية في ما بين الرجـال والنساء ـ أن يتحرّك الرجـل في موقـع قيادي فـاعل في المجتمع النسائي. ولذلك لا بدَّ لنا من قيادات إسـلامية على مستوى الواقع الاجتماعي والثقافي والحركي في المجتمع النسائي لتتكـامل الحركة الإسلاميـة في تعاون الـرجال والنساء على مـا جاء في الآية الكريمة: ﴿**والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر**﴾[1]، حيث تكون لنا خطوط قيادية في داخل مجتمع المؤمنات، وخطوط قيادية في داخل مجتمع المؤمنين، لتتكامل هذه الخطوط في الحركة الإسلامية العالمية كلّها.

إذاً، عندما نقول «**وتجعلنا فيها من الدعـاة إلى طاعتك والقادة إلى سبيلك**» علينا أنْ نفكّر في تنمية قدراتنا من أجل أن نكون في موقع القيادة ولو كان ذلك الموقع محدوداً لأنَّ للقيادة درجاتها ومـواقعها. فالمهم أنْ لا يبقى الإنسان واقفاً مكـانه، بل عليه أن يعمل على أنْ يصعد في كـلّ يومٍ درجـةً من خلال إمكـاناتـه وطاقـاته، وهـذا ما يعطينـا إيّاه

(١) التوبة: ٧١.

الدعاء: «**اللهم اجعل مستقبل أمري خيراً من ماضيه، وخير أعمالي خواتيمها، وخير أيامي يوم ألقاك**».

«**وترزقنا بها كرامة الدنيا والآخرة**» وأن تجعلنا يا رب في هذه الدولة الكريمة ممّن ينطلق في خطّ رضاك، وفي خط طاعتك والدعوة إليك والجهاد في سبيلك، حتى نستطيع أن نحصل على كرامة الدنيا في ما تكرمنا به من نعمك، وفي ما تسبغه علينا من ألطافك، وكرامة الآخرة في ما تمنحنا من رضوانك ومحبّتك بالمستوى الذي نستطيع فيه أن نكون السعداء في الآخرة، الذين يحصلون على رضوانك وعلى نعيمك في جنتك.

* * *

«**اللهم ما عرّفتنا من الحقِّ فحمِّلناه، وما قَصُرنا عنهُ فبلِّغْناه، اللهم المُمْ به شَعَثنَا، وأشعَبْ به صَدْعنا، وأرْتُقْ به فَتْقنَا، وكثِّر به قِلَّتَنا، وأعِزَّ به ذِلَّتَنا، وأَغْنِ به عائِلنا، واقْضِ به عن مَغرمِنا، واجبر به فقرنا، وسُدَّ بِه خَلَّتَنا، ويَسِّر به عُسْرَنا، وبَيِّض به وجوهنا، وفك به أسرنا، وأنجح به طلبتنا، وأنجِزْ به مواعيدَنا، وأستجِبْ به دعوتنا، وأعطِنا به سؤْلَنا، وبَلِّغنا به من الدنيا والآخرة آمالنا، واعْطِنا به فوق رغبتِنا**.

يا خيرَ المسؤولين، وأوسَعَ المُعطين، إشفِ بِهِ صدورَنا، وأذهِبْ به غيظَ قلوبنا، واهدنا به لما اختُلِفَ فيه من الحقِّ بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراطٍ مستقيم، وانصرنا به على عدوِّك وعدوِّنا، إلهَ الحقِّ آمين.

اللهمَّ إنَّا نشكو إليك فقدَ نبيِّنا صلواتك عليه وآله، وغيبةَ وليِّنا، وكثرةَ عدوِّنا، وقلَّةَ عددنا، وشدَّةَ الفتنِ بنا، وتظاهرَ الزمان علينا، فصلِّ على محمد وآلِ محمد، وأعنَّا على ذلك كلِّه بفتح منك تعجِّله، وضرٍّ تكشفه، ونصرٍ تُعِزُّه، وسلطانِ حقٍّ تظهرُه، ورحمةٍ منَّك تُجلِّلُناها، وعافيةٍ منك تُلبِسُناها، برحمتك يا أرحم الراحمين».

* * *

«اللهم ما عرّفتنا من الحق فحمّلناه، وما قَصُرنا عنه فبلّغناه».

تقصّي الحق في كل مواقع الحياة

إنَّ معنى هاتين الفقرتين هو انّنا يا ربّي نعرف بعض الحق في ما نعرفه من العقيدة، ونعرف بعض الحق في ما نعرفه من الشريعة، ونعرف بعض الحق في ما نعرفه من كلّ القضايا التي تتحرّك في دائرة الحق على مستوى حياة الناس الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، اللهم حمّلنا مسؤولية هذا الحق، واجعلنا إذا عرفنا شيئاً من الحق ممن يحملون مسؤوليته، وذلك بالدعوة إليه حتى يتعرّف الناس هذا الحق الذي يجهلون، وبالعمل في سبيل تقويته وتأكيده من خلال نُصرتنا ودعمنا للحق، اجعلنا نحمل مسؤولية الحق الذي نعرفه ولا نكون مثل هؤلاء الذي تحدّثت عنهم في القرآن الكريم ﴿مثَلُ الذين حُمِّلوا التوراة ثم لم يحْملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا﴾[1]. إن القضية أنّهم حملوا التوراة في وجدانهم، ولكنّهم لم يحملوها في مسؤوليتهم، ولم يعملوا بها ولم يدعوا إليها ولم يُقوّوا مواقعها في الحياة، فكانت حالهم حال الحمار الذي يحمل الكتب دون أن ينتفع بها، لأنّ الإنسان عندما يحمل الحق ولا ينتفع به في نفسه ولا ينفعُ به غيره، فإن من الطبيعي أنْ يكون كالحمار الذي يحمل أسفارا (أي كتبا).

«**اللهم ما عرّفتنا من الحق فحمّلناه**» إجعلنا نتحمّل مسؤوليته في عملنا لدعوة الآخرين إليه وتركيز مواقفه في الحياة، «**وما قصُرنا عنه فبَلّغناه**» أما ما قصُرَت عنه معرفتنا وجهدنا من الحق الذي نجهله ونحتاج إلى جهدٍ كبير لنبلغه، فوفقنا اللهم لأن نبلغه وأن نعرفه، وأنْ نتحرّك فيه في جميع مجالات حياتنا.

ثمّ بعد ذلك يبدأ في حركة الحق في كل مجالات حياتنا: «**اللهم المُم به شَعَثَنَا**» هناك تركيز على هذه النقطة، يا رب إنَّ هناك مشاكل كثيرة تواجهنا في الحياة، مشاكل التفرّق والتمزقات التي تحصل في ساحتنا، والقِلّة التي يُمكن أن نُبتلى بها، والاذلال الذي يمكن أن يأتينا من الخارج. . وما إلى ذلك من مشاكل، يا ربّنا إننا نريد منك أنْ توفّقنا

---

(١) الجمعة؛ ٥.

لأنْ نَحُلَّ مشاكلنا بالحق لأننا إذا أردنا جمع الكلمة فلا بدّ أنْ يكون ذلك على أساس الحق، وإذا أردنا أن نرتقَ الفتق والتمزّقات التي تحصُل، فلا بد أن يكون الحق هو الأساس في ذلك. . إذا كُنّا في موقع القِلّة وَفِّقْنا أنْ نُكثِّر قِلّتنا بواسطة الحق، وإذا أذَلَّنا الآخرون فاجعلنا نطلب العزّة بالحق ولا تجعلنا نطلب العزّة بالباطل.

«**اللهم المُمْ به شعثنا**» الشعث هو التفرقة التي تحصل: المُمْ به ما تفرَّق من مواقفنا ومن مواقعنا وأوضاعنا. . «**وأشعَبْ به صَدْعنا**» أي التصدّع الذي يحصل في مجتمعنا وأمتنا وحركتنا ومسيرتنا، اجعلنا نستطيع صدَّ هذا التصدّع وتقويمه بواسطة الحق لا بواسطة الباطل. . «**وأرْتُقْ به فَتْقنا**» أيضاً ما ينفتق علينا من مشاكل الفتق الذي يحصل في مجتمعنا، اجعلنا نرتقهُ. عندما يحصل عند الإنسان فتق في ملابسه، ألاَ يرتُقه بواسطة الخيط والإبرة؟ فهنا كأنّه تمثيل وكناية عن الفتق الذي يحصل في دائرة وحركة المجتمع. «**وكثِّر به قلتنا واعزَّ به ذلتنا**» أي أن لا نكون كأولئك الذين قال الله عنهم ﴿**بَشِّر المنافقين بأنَّ لهم عذاباً أليماً * الذين يتّخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزَّة فإنَّ العزَّة لله جميعاً**﴾[1] أنْ لا نحاول أنْ نُعِزَّ أنفسنا بالكافرين فنجعل الكفر أو الباطل أساساً لعزّتنا، بل لا بدَّ من أن يكون الحق أساس عزَّتنا.

«**وأَغْنِ به عائلنا**» العائل هو الإنسان الذي أثقلته العيال ففرض الثقل نفسه على أوضاعه الاقتصادية والمادية، فأصبح في أجواء الفقر، عند ذلك أيضاً يطلب من الله أنْ يُحقِّقَ له الغِنى بواسطة الحق، ولا يُحقِّق له الغِنى بواسطة الباطل. . «**واقْضِ به عن مَغرمِنا**» أيضاً الإنسان المُثقل بالديون وحقوق الناس، إذا أراد أنْ يقضي دينه ويقضي ما للناس عليه من حقوق، فإنّه يطلب ـ كمؤمن ـ أن يقضي الله دَيْنهُ بالحق، ولا يقضي دينه بالباطل. . «**واجبر به فقرنا**» إذا افقرنا الزمان، فإنّنا نطلب منك يا رب أن تَجبُرَ فقرنا بالحق لا بالباطل، «**وسُدَّ به خَلَّتَنا**» عندما يكون هناك خلل في واقعنا الاقتصادي أو الاجتماعي أو السياسي أو الأمني، فإنّنا نطلب منك يا رب أنْ تَسُدَّ هذا الخَلَل بواسطة الحق، لا بواسطة الباطل، «**ويَسِّر به عُسْرَنا**» إقلِبْ يا رب عُسرنا إلى يُسرٍ

---

(١) النساء؛ ١٣٨، ١٣٩.

بواسطة الحق، لا بواسطة الباطل، «**وبَيِّض به وجوهنا**» إجعل وجوهنا مشرقةً، عزيزةً، كريمةً، بيضاء، من خلال الحق الذي ننطلق فيه ليُشرق وَجهُنا بالحق، لا بالباطل، «**وفك به أسرنا**»، إذا عشنا الأسر في أي موقع من مواقعه، فإننا نطلب منك يا رب أن تفك أسرنا بالحق لا بالباطل. «**وأنجح به طلبتنا**» إننا نريد منك يا رب أن تنجح لنا كل ما نطلبه ولكننا نريد أن يكون نجاحنا بالحق لا بالباطل. «**وأَنجِزْ به مواعيدَنا**» أنجِزْ به ما وعدْتنا من مغفِرتكَ ورضوانِك ولطفك وتيسيرك لنا الأمور، وحقّقه لنا بواسطة الحق الذي نتحرّك فيه، «**وأستجِبْ به دعوتنا**» إننا يا رب نريدك أنْ تستجيب دعوتنا بواسطة الحق وبشفاعة الحق، وبالدعوات الحق، «**وأعطِنا به سؤْلَنا**» أعطِنا ما نُريده وما نسأله بواسطة وببركة الحق، لأنّك يا رب تُعطي منْ يتحرك في سبيل الحق ما يريد جزاءً له على ذلك، «**وبَلِّغنا به من الدنيا والآخرة آمالنا**» بلّغنا بالحق يا رب، بالحق في العقيدة والشريعة وفي حركة الحياة، ما نريد من الآمال في الدنيا والآخرة، «**واعْطِنا به فوق رغبتِنا**» أعطِنا ببركة الحق ما نرغبه منك، وفوق ما نرغبه..

«**يا خير المسؤولين**» فلم يُسأَل أحد كما تُسأَل، «**وأوْسعَ المعطين**» فليس هناك مثلك من يُعطي «**واشفِ به صدورنا**» اشفِ بالحق صدورنا من الغيض والحقد والعداوة والحسد والنفاق ومن كلّ الأشياء التي تفرقنا، اجعل الحقَّ يا رب في قلوبنا وفي صدورنا، حتى ينطلق الحق ليشفي ببركته كلَّ هذه الأمراض الداخلية، «**وأَذهب به غيظ قلوبنا**» أذهب به هذا الغيض الذي ينطلق من حالات الانفعال والحسد والحقد وما إلى ذلك، «**واهدِنا به لِما اختُلفَ فيه من الحق بإذنك**» اهْدِنا بالحق الذي تلقيه في عقولنا وقلوبنا، واجعل الحق واضحاً وصريحاً حتى نستطيع ـ عندما نتحرك به ـ ان نعرف ما اختلف فيه الناس من الحق لنكون على بيِّنةٍ من أمرنا وعلى وضوح من أمرنا في جميع الأشياء، «**إنَّك تهدي من تشاء إلى صراطٍ مستقيم**» في ما تتلطَّفُ به علينا من إعطائنا إشراقة رؤية الحق في جميع الأمور، «**وانصرْنا به على عدوك وعدوّنا**» اجعلنا ننتصر بالحق في الفكر، والحق في الإحساس، والحق في الحركة والعمل والجهاد، اجعلنا ننتصر به على عدوّنا وعلى عدوّك.. «**اله الحق آمين**» اللهم استجِبْ لنا.

شكوى العبد إلى ربه

وينتهي هذا الدعـاء، ونحن في أيام الغيبة، غيبة الإمام عنّا، أيـام سيطرة الظالمين، وقلّة المؤمنين وكثـرة الكافـرين، وسلطة المستكبرين وضعف المستضعفين، إنّنـا في هذا الوقت لا نسقط أمـام ذلك كلّه، ولكنّنا نرفع الشكوى إلى الله، ومـن يرفع الشكوى إلى الله فإنّه يشعر بـالأمل الكبير، بأَنَّ الله سبحانه وتعالى سوف يحقق لـه النتائج كما حقَّقها ليعقوب النبي (ع) عنـدما قال: ﴿**انّما أشكـو بَثّي وحـزني إلى الله واعلمُ من الله مـا لا تعلمون**﴾[1]، فكشف الله عنه حزنـه بما حقَّقَ له من النتائج الإيجابية عنـدما أرجعَ إليه ولده وجميع أولاده سالمين.

«**اللهم إنّا نشكو إليك فقد نبيِّنا**»، وعندما فقدنا نبينا، فقدنا القوة التي كانت تصل الأرض بالسماء، وفقدنا اللّطف الروحي الـذي كان متمثّلاً بالنبي، وفقدنا نبراس الحق والفكر والشريعة والدين، «**وغَيْبَة وَلِيِّنا**» أيضا عندما غاب وليِّنـا الذي هو خليفة نبيِّنا، وهو الذي يعـرِّفنا الحقَّ عندما نجهلُـه، ويوقِفُنا على الحق عندمـا نختلف فيه، «**وكَثرةَ عدوّنا**» فـالعالم كلّـه الكـافـر والمستكبر يقف ضد الإسـلام، «**وقِلَّة عـددنا**» أمام كثرة الأعداء، «**وشِدَّةَ الفِتَـن بنا**» هـذه الخلافـات التي تحصل في مـا بين المسلمين، وهـذه المشاكل التي تتحدّى كـلَّ سلامتهم وأوضاعهم، «**وتظاهر الزمان علينا**» وحركة الزمان من خلال حـركة أهلِـه في سيطرته علينـا، وفي نُصرةِ أعدائنـا علينا، ولكنّنـا يا رب لن نسقط أمـام ذلك ولن نضعـف ولن نتراجع، وإنّما نلجأ إليك، «**فأَعِنّا على ذلك بفتح منك تُعجِّلهُ**» بفتح تفتح به الآفاق كلّها على الإسلام، وتفتح به الإسلام على كلِّ الآفاق «**وضُرٍّ تكشفُه**» أَنْ تكشف ما بنـا من ضُرّ في جميع حالاتنا، وفي جميع أحـوالنا، «**ونَصرٍ تُعزّه**» أَنْ تُحقِّقَ لنا النَّصر على أعـدائنا في كلِّ المعارك التي نخـوضها سواء كـانت معارك صغيرة أو كبيرة، «**وسلطان حقٍّ تُظهرهُ**» أنْ تُظهِر سلطان الحق، إمّـا بالشكل الكامل الذي يظهر فيه الحجّة (عج) أو بالشكل المحـدود الذي يتحرّك فيه من خلال أولياء الله والمجـاهـدين في سبيل الله، «**ورحمةٍ منك تُجلِّلنـاها**» وأنْ تُجلِّلنـا برحمتك وتُسبغَ علينـا

---

(١) يوسف؛ ٨٦.

رحمتك، في جميع مواقع حياتنا، «**وعافيةٍ منك تُلبسناها**» عافيةٍ في أجسادنا وأرواحنا وعقولنا، وعافيةٍ في كلِّ دنيانا، وعافيةٍ في كلِّ آخرتنا، «**برحمتك يا أرحم الراحمين**».

وبهذا نصير إلى ختام هذا الدعاء، لنجدَ فيه الدعاء الذي يربطنا بالله من خلال ما يحدّثنا فيه عن صفات الله، ويربطنا بالحق في ما يُحدِّثنا به في حركة الحق، ويربطنا بالقيادة في ما يحدثنا به عن حركة القيادة، ويربطنا به بالساحات التي يجب أن نُعدَّ أنفسنا لها.

ومن الممكن أن نقرأ هذا الدعاء في كلِّ ليلة من ليالي شهر رمضان، أو في غير شهر رمضان، أو في أيِّ وقت، من الأوقات، لأنَّ مفاهيمه ومعانيه ليست محصورةً في شهر رمضان، وإنّما هي منفتحة على الله، وعلى الحياة كلّها، وعلى الحقِّ كلِّه، وعلى المسؤولية كلِّها. إذا قرأناه فلنتدبر معانيه، ولنحاول أن نأخذ منه ثقافة تعرفنا بالله أكثر، وحركة تربطنا بالحق أكثر، وانطلاقة تربطنا بالمسؤولية أكثر.

والحمد لله رب العالمين.

دعـاء
الإمام زين العابدين
في وداع
شهر رمضان المبارك

«أَللَّهُمَّ يَا مَنْ لاَ يَرْغَبُ فِي الْجَزَاءِ، وَيَا مَنْ لاَ يَنْدَمُ عَلَى الْعَطَاءِ، وَيَا مَنْ لاَ يُكَافِئُ عَبْدَهُ عَلَى السَّوَاءِ، مِنَّتَكَ ابْتِدَاءٌ، وَعَفْوُكَ تَفَضُّلٌ، وَعُقُوبَتُكَ عَدْلٌ وَقَضَاؤُكَ خِيَرَةٌ، إِنْ أَعْطَيْتَ لَمْ تَشُبْ عَطَاءَكَ بِمِنٍّ، وَإِنْ مَنَعْتَ لَمْ يَكُنْ مَنْعُكَ تَعَدِّياً، تَشْكُرُ مَنْ شَكَرَكَ وَأَنْتَ أَلْهَمْتَهُ شُكْرَكَ، وَتُكَافِئُ مَنْ حَمَدَكَ وَأَنْتَ عَلَّمْتَهُ حَمْدَكَ.

تَسْتُرُ عَلَى مَنْ لَوْ شِئْتَ فَضَحْتَه، وَتَجُودُ عَلَى مَنْ لَوْ شِئْتَ مَنَعْتَه، وَكِلاَهُما أَهْلٌ مِنْكَ لِلْفَضِيحَةِ والْمَنْعِ، غَيْرَ أَنَّكَ بَنَيْتَ أَفْعَالَكَ عَلَى التَّفَضُّلِ، وَأَجْرَيْتَ قُدْرَتَكَ عَلَى التَّجَاوُزِ، وَتَلَقَّيْتَ مَنْ عَصَاكَ بِالحِلْمِ، وَأَمْهَلْتَ مَنْ قَصَدَ لِنَفْسِهِ بِالظُّلْمِ، تَسْتَنْظِرُهُمْ بِأَنَاتِكَ إِلَى الإِنَابَةِ، وَتَتْرُكَ مُعَاجَلَتَهُمْ إِلَى التَوْبَةِ لِكَيْلاَ يَهْلِكَ هَالِكُهُم، وَلاَ يَشْقَى بِنِعْمَتِكَ شَقِيُّهُم، إِلاَّ عَنْ طولِ الإِعْذَارِ إِلَيْهِ وبَعْدَ تَرَادُفِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ، كَرَماً مِنْ عَفْوِكَ يَا كَرِيم، وَعَائِدَةً مِنْ عَطْفِكَ يَا حَلِيم.

أَنْتَ الَّذي فَتَحْتَ لِعِبَادِكَ بَاباً إِلَى عَفْوِكَ سَمَّيْتَهُ التَّوْبَةَ وَجَعَلْتَ عَلَى ذَلِكَ الْبَابِ دَلِيلاً عَنْ وَحْيِكَ لِئَلاَّ يَضلوا عَنْه، فَقُلْتَ، تَبَارَكَ اسْمُكَ، ﴿تُوبُوا إِلَى الله تَوْبَةً نَصُوحاً عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يَوْمَ لاَ يُخْزِي الله النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا واغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِير﴾، فَمَا عُذْرُ مَنْ أَغْفَلَ دُخُولَ ذلِكَ الْمَنْزِلِ بَعْدَ فَتْحِ الْبَابِ وَإِقامَةِ الدَّلِيل.

وَأَنْتَ الَّذِي زِدْتَ فِي السَّوْمِ عَلَى نَفْسِكَ لِعِبَادِكَ تُرِيدُ رِبْحَهُمْ فِي مُتَاجَرَتِهِمْ لَكَ وَفَوْزَهُمْ بِالْوَفَادَةِ عَلَيْكَ وَالزِّيَادَةِ مِنْك فَقُلْتَ، تَبَارَكَ

اسْمُكَ وَتَعَالَيْتَ، ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلاّ مِثْلَهَا﴾ وَقُلْتَ: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ الله كَمَثَلِ حَبّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبّةٍ والله يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاء﴾ وَقُلْتَ: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقرِضُ الله قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفه لَهُ أَضْعافاً كَثيرةً﴾ وَمَا أَنْزَلْتَ مِنْ نَظَائرهنَّ فِي الْقُرآنِ مِنْ تَضَاعيفِ الحسنات.

وَأَنْتَ الَّذي دلَلْتَهُمْ بِقَوْلِكَ مِنْ غَيْبِكَ وَتَرْغِيبِكَ الَّذِي فِيهِ حَظهُمْ عَلَى مَا لَوْ سَتَرْتَهُ عَنْهُمْ لَمْ تُدْركهُ أَبْصَارُهُمْ وَلَمْ تَعِه أَسْمَاعُهُمْ وَلَمْ تَلْحَقْهُ أَوْهَامُهُمْ، فَقُلْتَ: ﴿اذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ واشْكُرُوا لِي وَلاَ تَكْفُرُون﴾ وَقُلْتَ: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُم لأَزِيدَنّكُم وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابي لَشَدِيد﴾ وَقُلْتَ: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُم إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبُرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُون جَهَنّمَ دَاخِرِين﴾ فَسَمَّيْتَ دُعَاءَكَ عِبَادَةً، وَتَرْكَهُ اسْتِكْبَاراً، وَتَوَعَّدْتَ عَلَى تَرْكِهِ دُخُولَ جَهَنَّمْ دَاخِرِين، فَذَكَرُوكَ بِمَنِّكَ، وَشَكَرُوكَ بِفَضْلِكَ، وَدَعوكَ بِأَمْرِكَ، وَتَصَدَّقُوا لَكَ طَلَباً لِمَزِيدِكَ، وَفِيهَا كَانَتْ نَجَاتُهُمْ مِنْ غَضَبِكَ، وَفَوْزُهُمْ بِرِضَاكَ، وَلَوْ دَلَّ مَخْلُوقٌ مَخْلُوقاً مِنْ نَفْسِهِ عَلَى مِثْلِ الَّذِي دَلَلْتَ عَلَيهِ عِبَادَكَ مِنْكَ كَانَ مَوْصُوفاً بِالإِحْسَانِ وَمَنعُوتاً بِالإِمْتِنَانِ وَمَحْمُوداً بِكُلِّ لِسان.

فَلَكَ الْحَمْدُ مَا وُجِدَ فِي حَمْدِكَ مَذْهَبٌ وَمَا بَقِيَ لِلْحَمْدِ لَفْظٌ تُحْمَدُ بِهِ وَمَعْنىً يَنْصَرِفَ إِلَيْهِ، يَا مَنْ تحمَّدَ إِلَى عِبَادِهِ بِالإِحْسَانِ والْفَضْلِ وَغمَرَهُمْ بِالْمَنِّ والْطَوْل، مَا أَفْشَى فِينَا نِعْمَتَكَ وَأَسْبَغَ عَلَيْنَا مِنَّتَكَ وَأَخَصَّنَا بِبِرِّكَ،

هـديتنا لـدينك الَّـذي اصْطَفَيْتَ وملَّتِكَ الَّتي ارْتَضَيْتَ وَسَبِيلكَ الَّـذي سَهَّلْتَ، وَبَصَّرْتَنَا الزُّلْفَةَ لَدَيْكَ وَالْوُصُولَ إلى كَرَامَتِكَ.

اللَّهُمَّ وَأَنْتَ جَعَلْتَ مِنْ صَفَـايَـا تِلْكَ الْـوَظَـائِفِ وَخَصَـائِصِ تِلْكَ الْفُرُوضِ شَهْرَ رَمَضَان الَّذي اختصصتـه مِنْ سَائِرِ الشُّهُور، وَتَخَيَّرْتَهُ مِنْ جَمِيعِ الأَزْمِنَةِ والـدُّهُور، وَآثَرتَـهُ عَلَى كُلِّ أَوْقَاتِ السَّنَةِ بِمَا أَنْـزَلْتَ فِيهِ مِنَ الْقُرْآنِ وَالنُّور، وَضَاعَفْتَ فِيهِ مِنَ الإيمان وَفَرَضْتَ فِيهِ مِنَ الصِّيَامِ وَرَغَّبْتَ فِيـهِ مِنَ الْقِيَـام، وَأَحْلَلْتَ فِيـهِ مِنْ لَيْلَـةِ الْقَـدْرِ الَّتِي هِيَ خَيرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْر.

ثُمَّ آثَـرْتَنَـا بِهِ عَلَى سَـائِرِ الأُمَمِ وَاصْطَفَيْتَنَـا بِفَضْلِكَ دُونَ أَهْلِ الْمِلَلِ، فَصُمْنَا بِأَمْـرِكَ نَهَارَهُ وَقُمْنَا بِعَوْنِكَ لَيْلَـهُ، مُتَعَرِّضِينَ بِصِيَامِهِ وَقِيَـامِهِ لِمَا عَرَّضْتَنَـا لَهُ مِنْ رَحْمَتِكَ وَتَسَبَّبْنَـا إلَيْهِ مِنْ مَثُـوبَتِك، أَنْتَ الْمَلِيءُ بِمَا رُغِبَ فِيهِ إلَيْكَ الْجَوَادُ بِمَا سُئِلْتَ مِنْ فَضْلِكَ، الْقَرِيبُ إلى مَنْ حَاوَلَ قُرْبَك.

وَقَدْ أَقَـامَ فينا هَذَا الشَهْـر مَقَامَ حَمْدٍ وَصَحبنا صُحْبَـةَ مَبْرُور وَأَرْبَحَنَا أَفْضَلَ أَرْبَاحِ الْعَالَمِين، ثُمَّ قَـدْ فَارَقَنَا عِنْدَ تَمَامِ وَقْتِهِ وَانْقِطَاعِ مُـدَّتِهِ وَوَفَاءِ عَدَدِه، فَنَحْنُ مُوَدِّعُوهُ وَدَاعَ مَنْ عَزَّ فِـرَاقُهُ عَلَيْنَا وَغَمَّنَا وَأَوْحَشَنَا انْصِرَافُهُ عَنَّا وَلَزِمَنَا لَهُ الذِّمَامُ الْمَحْفُوظُ وَالْحُرْمَةُ الْمَرْعِيَّةُ وَالْحَقُّ الْمَقْضِيّ.

فَنَحْنُ قَائِلُـونَ: السَّلامُ عَلَيْكَ يَـا شَهْرَ الله الأَكْبَرْ، وَيَا عِيـدَ أَوْلِيَائِهِ الأَعْظَمْ، السَّلامُ عَلَيْكَ يَا أَكْرَمَ مَصْحُوبٍ مِنَ الأَوْقَات، وَيَا خيْرَ شَهْرٍ فِي الأَيَّامِ والسَّاعَات، السَّلامُ عَلَيْكَ مِنْ شَهْرٍ قَرُبَتْ فِيهِ الآمَال، وَنُشِرَتْ فِيـهِ الأَعْمَال، السَّلامُ عَلَيْكَ مِنْ قَـرِين جلَّ قَدْرُهُ مَـوْجُوداً وَأَفْجَعَ فَقْـدُهُ مَفْقُـوداً وَمَـرْجُوّاً أَلَمَ فِـرَاقُـه، السَّـلامُ عَلَيْكَ مِنْ أَلِيفٍ آنَسَ مُقْبِـلاً فَسَرَّ

وَأَوْحَشَ مُنْقَبِضاً فَمَضَّ، السَّلامُ عَلَيْكَ مِنْ مُجَاوِرٍ رَقَّتْ فِيهِ الْقُلُوبُ وَقَلَّتْ فيهِ الذُّنُوب.

السَّلامُ عَلَيْكَ مِنْ نَاصِرٍ أَعَانَ عَلَى الشَّيْطَان، وَصَاحِبٍ سَهَّلَ سُبُلَ الإِحْسَان، السَّلامُ عَلَيْكَ مَا أَكْثَرَ عُتَقَاء الله فِيكَ وَمَا أَسْعَدَ مَنْ رَعَى حُرْمَتَكَ بِكَ، السَّلامُ عَلَيْكَ مَا كَانَ أَطْوَلَكَ عَلَى الْمُجْرِمِينَ وَأَهْيَبَكَ فِي صُدُورِ الْمُؤْمِنِين، السَّلامُ عَلَيْكَ مِنْ شَهْرٍ لاَ تُنَافِسُهُ الأَيَّام، السلام عَلَيْكَ مِنْ شَهْرٍ هُوَ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ سلام، السَّلامُ عَلَيْكَ غَيْرَ كَرِيهِ الْمُصَاحَبَةِ وَلاَ ذَمِيمِ الْمُلابَسَة.

السَّلامُ عَلَيْكَ كَمَا وَفَدْتَ عَلَيْنَا بِالْبَرَكَات وَغَسَلْتَ عَنَّا دَنَسَ الْخَطِيئَات، السَّلامُ عَلَيْكَ غَيْرَ مُوَدَّعٍ بَرَماً وَلاَ مَتْرُوك صِيَامُهُ سَأَماً، السَّلاَمُ عَلَيْكَ مِنْ مَطْلُوبٍ قَبْلَ وَقْتِهِ وَمَحْزُونٍ عَلَيْهِ قَبْلَ فَوْتِه، السَّلاَمُ عَلَيْكَ كَمْ مِنْ سُوءٍ صُرِفَ بِكَ عَنَّا وَكَمْ مِنْ خَيْرٍ أُفِيضَ بِكَ عَلَيْنَا، السَّلاَمُ عَلَيْكَ وَعَلَى لَيْلَةِ الْقَدْرِ الَّتِي هِيَ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْر، السَّلاَمُ عَلَيْكَ مَا كَانَ أَحْرَصَنَا بِالأَمْسِ عَلَيْكَ وَأَشَدّ شَوْقَنَا غَداً إِلَيْك، السَّلاَمُ عَلَيْكَ وَعَلَى فَضْلِكَ الَّذِي حُرِمْنَاهُ وَعَلَى مَاضٍ مِنْ بَرَكَاتِكَ سُلِبْنَاهُ.

أَللَّهُمَّ إِنَّا أَهلُ هذا الشَهْر الذي شَرَّفْتَنَا بِهِ وَوَفَّقْتَنَا بِمنِّكَ لَهُ حِينَ جَهِلَ الأَشْقِيَاءُ وَقْتَهُ وَحُرِمُوا لِشَقَائِهِمْ فَضْلَه، أَنْتَ وَلِيُّ مَا آثَرْتَنَا بِهِ مِنْ مَعْرِفَتِهِ وَهَدَيْتَنَا لَهُ مِنْ سُنَّتِه، وَقَدْ تَوَلَّيْنَا بِتَوْفِيقِكَ صِيَامَهُ وَقِيَامَهُ عَلَى تَقْصِير وَأَدَّيْنَا فِيهِ قَلِيلاً مِنْ كَثِير، أَللَّهُمَّ فَلَكَ الْحَمْدُ إِقْرَاراً بِالإِسَاءَةِ وَاعْتِرَافاً بِالإِضَاعَةِ وَلَكَ مِنْ قُلُوبِنَا عَقْد النَّدَم وَمِنْ أَلْسِنَتِنَا صِدْق الإِعْتِذَار، فَأَجِرنَا عَلَى مَا أَصَبنَا فِيهِ مِنَ التَّفْرِيطِ أَجراً نَسْتَدْرِكُ بِهِ الْفَضْلِ

الْمَرغُوبَ فِيهِ وَنَعْتَاضُ بِهِ مِنْ أَنْوَاعِ الـذُّخْرِ الْمَحْرُوصِ عَلَيْهِ، وَأَوْجِبْ لَنَا عُذْرَكَ عَلَى مَا قَصَّرْنَا فِيهِ مِنْ حَقِّكَ وَأَبْلِغ بِأَعْمَارِنَا مَا بَيْنَ أَيْدِينَا مِنْ شَهْرِ رَمَضَان الْمُقْبِلِ فَإِذَا بَلَّغْتَنَاهُ فَأَعِنَّا عَلَى تَنَاوُلِ مَا أَنْتَ أَهْلُهُ مِنَ الْعِبَادَةِ وَأَدِّنَا إِلَى الْقِيَامِ بِمَا يَسْتَحِقُّهُ مِنَ الطَّاعَةِ وَأَجْرِ لَنَا مِن صَالِحِ الْعَمَلِ مَا يَكُونُ دَرْكاً لِحَقِّكَ فِي الشَّهْرَينِ مِنْ شُهُورِ الدُّهُور.

أَللَّهُمَّ وَمَا أَلْمَمْنَا بِهِ مِنْ شَهْرِنَا هَذَا مِنْ لَمَمٍ اوْ إِثْمٍ أَوْ وَاقَعْنا فِيهِ مِنْ ذَنْبٍ وَاكْتَسَبْنَا فِيهِ مِنْ خَطِيئَةٍ عَلَى تَعَمُّدٍ مِنَّا أَوْ عَلَى نِسْيَانٍ ظَلَمْنَا فِيهِ أَنْفُسَنَا أَوْ انْتَهَكْنَا فِيهِ حُرْمَةً مِنْ غَيْرِنَا، فَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَاسْتُرْنَا بِسِتْرِكَ وَاعْفُ عَنَّا بِعَفْوِكَ وَلاَ تَنْصِبْنَا فِيهِ لأَعْيُنِ الشّامِتِينَ وَلاَ تَبْسُطْ عَلَينَا فِيهِ أَلْسُنَ الطَّاعِنينَ واسْتَعْمِلْنَا بِمَا يَكُونُ حِطَّةً أَوْ كَفَّارَةً لِمَا أنكَرْتَ مِنَّا فِيهِ بِرَأْفَتِكَ الَّتِي لاَ تَنْفَدُ وَفَضْلِكَ الَّذِي لاَ يَنْقُص.

أَللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ واجْبُرْ مُصِيبَتَنَا بِشَهْرِنَا، وَبَارِكْ لَنَا فِي يَوْمِ عِيدِنَا وَفِطْرِنَا وَاجْعَلْهُ مِنْ خَيرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْنَا وَأَجْلَبَهُ لِعَفْوٍ وَأَمْحَاهُ لِذَنْبٍ وَاغْفِرْ لَنَا مَا خَفِيَ مِنْ ذُنُوبِنَا وَمَا عَلَن.

أَللَّهُمَّ اسْلَخْنَا بِانْسِلاَخِ هذَا الشَهْرِ مِنْ خَطَايَانَا، وَأَخْرِجْنَا بِخُرُوجِهِ مِنْ سَيِّئَاتِنَا، وَاجْعَلنَا مِنْ أَسْعَدِ أَهْلِهِ بِهِ وَأَجْزَلِهِمْ قِسْماً فِيهِ وَأَوْفرِهِمْ حَظّاً منه.

أَللَّهُمَّ وَمَنْ رَعَى هذَا الشَّهْرَ حَقَّ رِعَايَتِه وَحَفَظَ حُرْمَتَهُ وَقَامَ بِحُدُودِهِ حَقَّ قِيَامِهَا وَاتَّقَى ذُنُوبَهُ حَقَّ تُقَاتِهَا أَوْ تَقَرَّبَ إِلَيْكَ بِقُرْبَةٍ أَوْجَبَتْ رِضَاكَ لَهُ، وَعَطَفَتْ رَحْمَتَكَ عَلَيْه، فَهَبْ لَنَا مِثْلَهُ مِنْ جُودِكَ وَأَعْطِنَا أَضْعَافَهُ

مِنْ فَضْلِك، فإنَّ فَضْلَكَ لاَ يَغِيضُ وَإنَّ خَـزَائِنَكَ لاَ تَنْقُص بَلْ تَفِيضُ وإنَّ مَعَادِنَ إحْسَانِكَ لاَ تَفْنَى وإنَّ عَطَاءَكَ لَلْعَطَاءُ الْمُهَنَّا.

أَللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِه، وَاكْتُبْ لَنَا مِثْلَ أُجُورِ مَنْ صَامَهُ أَوْ تَعَبَّدَ لَكَ فِيهِ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ.

أَللَّهُمَّ إنَّـا نَتُوبُ إلَيْكَ فِي يَـوْمِ فِطْرِنَـا الَّذِي جَعَلْتَـهُ لِلْمُؤمِنِينَ عِيـداً وَسُرُوراً وَلأَهْلِ مِلَّتِكَ مَجْمَعـاً وَمُحْتَشَـداً، مِنْ كُلِّ ذِنْبٍ أَذْنَبْنَـاهُ أَوْ سُـوءٍ أَسْلَفْنَاهُ أَوْ خَاطِرِ شَرّ أَضْمَرْنَاه، تَوْبَةَ مَنْ لاَ يَنْطَوِي عَلَى رُجُوعٍ إِلَى ذَنْبٍ وَلاَ يَعُـودُ بَعْـدَهَـا فِي خطيئَـةٍ، تَـوْبَـةً نَصُـوحـاً خَلُصَتْ مِنَ الشَّكِ وَالإِرْتِيَاب، فَتَقَبَّلْهَا مِنَّا وَارْضَ عَنَّا وَثَبِّتْنَا عَلَيْهَا.

أَللَّهُمَّ ارْزُقْنَا خَـوْفَ عِقَابِ الْوَعِيـدِ وَشَوْقَ ثَوَابِ الْمَوْعُـودِ حَتَّى نَجِدَ لَذَّة مَا نَدْعُوكَ بِهِ وَكآبَةَ مَا نَسْتَجِيرِ بِكَ مِنْهُ، وَاجْعَلْنَا عِنْدَكَ مِنَ التَّوَابِينَ الَّـذِينَ أَوْجَبْتَ لَهُمْ مَحَبَّتَكَ وَقَبِلْتَ مِنْهُمْ مُـرَاجَعَـةَ طَـاعَتِك، يَـا أَعْـدَلَ الْعَادِلِين.

أَللَّهُمَّ تَجَاوَزْ عَنْ آبَائِنَا وَأُمَّهَاتِنَا وَأَهْلِ دِيننا جَمِيعاً مَنْ سَلَفَ مِنْهُمْ وَمَنْ غَبَرَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَة.

أَللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّد وَآلِهِ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى مَلاَئِكَتِكَ الْمُقَرَّبين، وَصَلِّ عَلَيْهِ وَآلِهِ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى أَنْبِيَائِكَ الْمُرْسَلين، وَصَلِّ عَلَيْهِ وَآلِهِ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى عِبَادِكَ الصَّالِحِين، وَأَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ يَا رَبَّ الْعَـالمين، تُبَلِّغُنَا بَرَكَتَهَا وَيَنَالُنَا نَفْعُهَـا وَيُسْتَجَابُ بِهَا دُعَاؤنَا، إِنَّكَ أَكْـرَمُ مَنْ رُغِبَ إِلَيْهِ وَأَكْفَى مَنْ تُوُكِّلَ عَلَيْهِ وَأَعْطَى مَنْ سُئِلَ مِنْ فَضْلِهِ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِير».

إذا كان استقبال شهر رمضان للمؤمن، فرصةً للإنفتاح على الآفاق الرحبة الإلهية في امتداد المعاني الروحيّة التي يُراد له أن يعيشها في روحه وفي وجدانه، فإنّ وداع شهر رمضان، قد يحمل له بعضاً من الألم واللوعة، في ما يفتقده من أجواء، أو في ما يخسره من نتائج على مستوى الثواب الإلهي على الأعمال التي يحتويها هذا الشهر في واجباته ومستحبّاته، مما يجعل الإنسان خاضعاً للمشاعر السلبية، تماماً كما لو كان في واحةٍ خضراء وانتقل إلى صحراء قاحلة، لأنّ الزمن القادم قد يختزن في داخله بعض الفرص، ولكنها لن ترقى إلى فرصة هذا الشهر المبارك، الذي جعله الله شهره الذي يُدخل فيه عباده إلى ضيافته الروحيّة في ما يسبغه عليهم من الألطاف، ويفيض عليهم من الرحمات، ويمنحهم من البركات، بما يفتح لهم فيه أبواب جنّاته ويقودهم إلى ساحات رضوانه.

شهر رمضان، هو الموسم الذي ينفتح على كلّ قضايا الإنسان وحاجاته في ما يحقّقه الله له منها، ممّا يتناسب مع مواقع صلاحه في دنياه وآخرته، ولذلك كان المحروم المحروم، هو الذي حُرم غفران الله في هذا الشهر العظيم، كما جاء في خطبة رسول الله (ص)، التي استقبل بها شهر رمضان في آخر جمعة من شعبان. ولكنّ الإمام زين العابدين (ع) في أسلوب الدعاء، يتّجه في المسألة اتجاهاً آخر، حيث يفتح وعي الإنسان المؤمن على النتائج الكبيرة التي حصل عليها فيه، ويحرّك المشاعر الحميمة التي تجعل بين شعور الإنسان وبين أيام هذا الشهر رابطةً قوية تؤدّي إلى اختزان المعاني الروحيّة في كيانه فلا تذهب بذهاب هذا الشهر، بل تعمل على التخطيط للإستفادة منها في إغناء الزمن القادم في غيره من الشهور، بكلّ ما يحمله من الخصائص الفريدة

التي يمكن أن يحملهـا الـزمن من خـلال العمق الإنسـاني في معـرفـة الله والشعـور بالمسؤولية.

وفي ضوء ذلك، لا يكون الزمن مجرّد لحظـات طائرة في الفراغ، بل يكون قيمة تمتلىء بـالإنسان في فكـره وشعوره وحـركته في الحيـاة، حيث يأخذ الـزمن من الإنسان معنـاه وروحه، كما يأخذ الإنسان منه حركته وخط سيره، وبذلك يفقد الزمن معناه التجريدي كعنصر مستقل في إعطاء الحيـاة خطّها الطويـل، بل يكون شيئاً في الإنسـان فيما يكون الإنسان شيئاً منه في عملية تداخل وامتداد.

ثم يثير التطلّع الفكـري والـرّوحي في ابتهـال الإنسـان لله أن يمـدَّ في عمـره ليلتقي برمضان جديد في فرصةٍ جديدةٍ للعمل والحياة.

ولعلّ قيمة هـذا الدعـاء، في بعض فقراتـه، من الناحيـة الفنيّة أنّـه يحوّل الشهر إلى كائنٍ حيّ صـديقٍ في مشاعره ومواقفـه، فيخاطبه كما يخاطب صديقـه، ويتحدّث إليه بالجانب الشعوري الذي يتفجّر في الوجدان حبّاً وحزناً وتطلّعاً إلى اللقاء الجديد.

وهو في الـوقت نفسه، يـأخذ من العناويـن الكبيرة لإيحاءات هذا الشهر، عنـاوين متحـركة للحيـاة التي يستمـر في مواجهتهـا بمنطق المسـؤوليـة، لتبقى معه في النتـائج الحاسمـة لقضية المصير الأبـدي في مـوقفـه أمام الله في مـا يـريده الله منـه من مـواقف وأعمال.

* * *

أَللَّهُمَّ يَا مَنْ لاَ يَرْغَبُ فِي الْجَزَاءِ،

وَيَا مَنْ لاَ يَنْدَمُ عَلَى الْعَطَاءِ،

وَيَا مَنْ لاَ يُكَافِئُ عَبْدَهُ عَلَى السَّوَاءِ،

مِنَّتُكَ ابْتِدَاءٌ، وَعَفْوُكَ تَفَضُّلٌ،

وَعُقُوبَتُكَ عَدْلٌ وَقَضَاؤُكَ خِيَرَةٌ،

إِنْ أَعْطَيْتَ لَمْ تَشُبْ عَطَاءَكَ بِمِنٍّ،

وَإِنْ مَنَعْتَ لَمْ يَكُنْ مَنْعُكَ تَعَدِّياً،

تَشْكُرُ مَنْ شَكَرَكَ وَأَنْتَ أَلْهَمْتَهُ شُكْرَكَ،

وَتُكَافِئُ مَنْ حَمَدَكَ وَأَنْتَ عَلَّمْتَهُ حَمْدَكَ.

العطاء سر الذات الإلهية

إنّها البداية التي يُراد لها أن تطوف بالإنسان المؤمن في آفاق التصوّر الإيماني لله في صفاته الإلهية، التي تطلّ على شؤون المخلوقين في علاقة الخالق بهم ليتعرّف، من خلال ذلك، موقعه من ربّه من خلال موقع الله من عباده في رعايته لهم، ولطفه بهم، ليكون الدعاء حالة وعي في العقيدة من حيث هو حالة ابتهال في الحاجة في خط المعرفة العميقة الواسعة.

فالله هو سرّ العطاء الذي لا يقف عند حدّ، ولا يجتذب أيّ شيء في مقابله، وذلك من خلال انفتاح رحمته على عباده في ما يحتاجون إليه في شؤون حياتهم وحركة وجودهم، لأنّه خالقهم ورازقهم، فكما أعطاهم الوجود من دون مقابل، فإنّه يعطيهم حاجات الوجود بالطريقة نفسها.

ثم ما هي حاجته إلى الجزاء، وهو الغنيّ عن خلقه يمثّل عمق معنى الأُلوهيّة في ذاته، وما هي قدرة عباده على تقديم العوض لألطاف الله ورحماته، وماذا يملكون من كلّ ما بأيديهم وما حولهم ما دام ذلك كلّه من الله.

وهو المعطي الذي لا يندم على العطاء، لأنّ العطاء ينطلق من حكمته بالمعنى نفسه الذي ينطلق فيه من كرمه، من خلال تدبيره للوجود، على أساس أنّه أهل العطاء الذي ينطلق من فيض الرحمة في ذاته ليشمل من يستحقّ ذلك من خلال العمل، ومن لا يستحقّه، وذلك هو الإيحاء في الفقرة المأثورة في بعض الأدعية:

«فإنْ لم أكنْ أهلاً أنْ أبلغ رحمتك فرحمتك أهل أن تبلغني وتسعني لأنّها وسعت كل شيء».

ولذلك فلا معنى للندم، ما دامت المسألة خاضعة لخطّة الرحمة، وما دامت القضية منطلقة من سعة الكرم، فإنّ الذين يندمون هم البخلاء، أو الذين يخافون الفقر من خلال العطاء.

وإذا كان العطاء سرّ ذاته، فإنّه لا يخضع للحسابات الدقيقة على أساس أفعال العبد الحسنة والقبيحة، ليزيده في جانب أو لينقصه في جانب آخر. . . ولذلك فإنّه لا يكافي عبده على السواء، بل يضاعف له الأجر إن كان العمل خيراً، وقد يغفر له إن كان شرّاً، وذلك هو قوله تعالى في مضاعفة الحسنة ﴿**من جاء الحسنة فله عشر أمثالها**﴾[1]. وفي المغفرة قوله تعالى: ﴿**وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم**﴾[2]. أما الذي يبقى في دائرة المسؤولية والعذاب، فإنّه لا يستعجله بل يمهله ويترك له فرصة التراجع والتوبة، وذلك ممّا لا تفرضه طبيعة المعصية.

«**ومنّتك ابتداء**»: والمراد بها النعمة التي يتفضّل الله بها على الإنسان من دون استحقاق، لأنّ الإنسان لم يبدأ عملاً يجتذب النعمة، بل الله هو البادىء في ذلك على كلّ عباده.

«**وعفوك تفضّل**»: لأنّ المذنب لا يستحقّه في موقع ذنبه، بل يستحق ـ بدلاً من ذلك ـ العذاب، ولكنّ الله ينفتح عليه من موقع الرحمة من خلال ألطافه في ما يعرفه من نقاط ضعفه، ليفسح له في المجال للثقة بالله والإنفتاح عليه من أبواب الحِلم الكبير.

«**وعقوبتك عدل**»: لأنّ الله أقام الحجّة على عباده في ما ألزمهم به من أوامره ونواهيه، وفي ما أغدقه عليهم من نعمه، فإذا أخطأوا أو انحرفوا فإنّهم يواجهون المسؤولية في خط التوازن بين العمل والجزاء، والمقدّمات والنتائج.

ثمّ انّ الظلم ينطلق من عقدة ضعف يختزن الخوف والحاجة في نفس الظالم ـ والله هو القوي القادر الذي لا يحتاج إلى عباده ولا يخاف قوّتهم لأنه القاهر فوقهم، والمهيمن عليهم من موقع أنّهم المخلوقون له الخاضعون لتدبيره، فكيف يكون ضعف الخالق أمام

(١) الأنعام؛ ١٦٠.
(٢) الرعد؛ ٦.

المخلوقين، وما هو سرّ الحاجة إلى الظلم، وهـذا ما عبّرت عنه الآية الكريمة ﴿**فاليوم لا تظلم نفس شيئاً ولا تجزون إلاّ ما كنتم تعملون**﴾[1].

«**وقضاؤك خيرة**»: والقضاء هـو حكم الله الذي يحتـوي حياة الإنسـان في ما يتّصل بكلّ أوضاعـه، من حيث هو أحد الموجودات في حـركة النظام الكونيّ الـذي يدبّره الله على أسـاس المصلحة الكـامنـة في عمق الـوجود لكلّ المخلـوقـات في الـدوائر العامـة والخاصة، حتى في مـا قد يبدو مثيراً لـلآلام والمشاكل، فإنّ النتائج السلبيّـة الخاصّة في وعي الإنسان وشعوره، لا تعني السلبية المطلقـة في طبيعة القضايا المتّصلة بها، لأنّ من الممكن أن يكون مـا هو سلبيّ من جهـةٍ إيجابياً من جهةٍ أخـرى، وهذا ما نـلاحظه في اختلاف النظرة إلى الأمـور على مستوى النظرة العامـة أو الخاصة، حيث يختلف جانب التقويم للمسألـة على أساس اختلاف طبيعة النتـائج هنا وهناك.. وهو مـا أشار إليه القرآن الكريم في قـوله تعالى: ﴿**وعسى أن تكرهـوا شيئاً وهـو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شرّ لكم**﴾[2] في حديث الله عن القتال الذي إذا نظرنا إليه في الدائرة الضيّقة في حياة الفرد كان شرّاً، لأنّه يهدّد سـلامته، بينما يكون خيراً في دائرة المجتمع الواسعة، في ما يحقّقه من نتائج كبيرة على مستوى العزّة والكرامة والحريّة والعدالة.

وفي قوله تعالى في عـلاقة الأزواج بزوجاتهم: ﴿**وعاشروهنّ بالمعروف فإن كرهتموهنّ فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً**﴾[3]. فإنّ الفكرة هي أن لا يحكم الناس على الأشياء من خلال النظـرة السطحيّة التي تنظر إلى الجانب الظاهـر منها، بعيداً عمّا تستبطنه من الخصائص العميقة في الجذور، وهذا هـو الذي يجب أن يدرسه الإنسان في كلّ القضايا المتعلّقة بحياته على مستوى المصير، الـذي يمثّل عاقبة الأمور، فيما قد تبدو فيـه النهايـة على عكس البـدايات، كما انّ مـن الضروري له أن لا يحدّق بها من زاويـة واحدة، فإنّ الإستغـراق في جانبٍ واحدٍ، قد يبعـده عن النظرة الحقيقيّة الـواقعيّة التي تحتاج إلى دراسة الأمور من جميع الزوايا لتجمع كلّ عناصرها الذاتيّة.

---

(١) يس؛ ٥٤.

(٢) البقرة؛ ٢١٦.

(٣) النساء؛ ١٩.

وربما يحتاج الإنسان ـ في هذا المجال ـ إلى أن يدرس موقعه من حيث هو فرد مستقل في حاجاته الشخصيّة وتطلّعاته الذاتيّة، ومن حيث هو جزء من المجتمع الصغير أو الكبير في ارتباط قضاياه بقضايا الناس، في المنافع والمضارّ، فقد تتعارض الصفة الفردية مع الصفة الإجتماعية في طبيعة الأوضاع العامة والخاصة ممّا يجعل المسألة إيجابية من الناحية العامة، وسلبية من الناحية الخاصة، فلا بدّ له من أن يتحمّل السلبيات الذاتيّة لمصلحة الإيجابيات الكبيرة. . وبذلك تستقيم النظرة إلى الواقع الإنساني في دائرة النظام الكوني، الذي هو جزء منه في خط التوازن في النظرة والحكم على أساس المقدّمات والنتائج.

وقد نلاحظ في بعض الأدعية الخط التربوي الذي يوحي للإنسان بأنْ يشكر الله على الحرمان كما يشكره على العطاء، من موقع الثقة المطلقة بالخير في قضاء الله، الذي يعرف من مصلحة الإنسان ما لا يعرفه الإنسان من نفسه، وذلك هو قول الإمام علي بن الحسين زين العابدين (ع) في دعائه في الرضى إذا نظر إلى أصحاب الدنيا:

«اللّهمّ وطيّب بقضائكَ نفسي ووسّع بمواقع حكمك صدري وهبْ لي الثقة لأقرّ معها بأنّ قضاءَكَ لم يجر إلاّ بالخيرة، واجعل شكري إياك على ما زويت عنّي أوفر من شكري إياك على ما خوّلتني».

فإنّ الإيمان بالله الحكيم العادل الرحيم اللطيف بعباده يوحي للمؤمن بهذا الشعور الذي لا ينطلق من حالة انسحاقٍ في القبول بالنتائج السلبيّة، بل في حالة اقتناع روحي ينطلق من القناعة الفكرية بالعمق الذي يتحرّك فيه القضاء من موقع الرحمة والحكمة والعدالة واللطف الإلهي الكبير.

«إن أعطيت لم تشب عطاءك بمنٍّ وإن منعت لم يكن منعك تعدّياً».

إنّك تعطي ـ يا ربِّ ـ كل عبادك لأنّ العطاء سرّ ذاتك في ما هو سرّ كرمك وعمق رحمتك، فليس هو شيئاً يُراد به اجتذاب اعترافٍ بالجميل منهم، في ما يتطلّبه أهل

العطاء من ذلك ممن يُعطونه، لتغذية الفراغ الذاتي الذي يبحث عمّا يملؤه من مدح الناس وحمدهم، كما يبحث الصوت عن الصدى، والله هو الغني عن عباده في كلّ شيء من خلال غناه الذاتي، فلا معنى للمنّ في معنى عطاء الله لعباده، لأنّهم ليسوا شيئاً منفصلاً عنه، فهم خلقه وملكه وموقع تدبيره، وهم بعض عطائه في وجوده، كما انّ نعمه التي يفيضها عليهم من توابع ذلك ومن شؤونه، فكيف يمنّ المعطي على عطائه مع غناه المطلق.

إنّك تمنع يا رب، فقد لا تمنحني المال، وأنا في حاجةٍ إليه، وقد لا تُسبغ علي العافية، وأنا أتطلع إليها، وقد لا تعطيني الكثير ممّا أطلب وأرغب فيه... ولكن هل يكون منعك لوناً من ألوان التعدّي عليّ، كما هو شأن المخلوقين عندما يمنع بعضهم بعضاً ما يحتاجون إليه ممّا يملكونه، في ما هو حقّ المخلوق على المخلوق في تبادل الحاجات، وتقابل الحقوق؟

إنّ التعدّي في التصرّف السلبيّ، في ما هو المنع والحرمان يفرض حقاً للمحروم لدى الحارم، ودِيناً للممنوع لدى المانع.. وهنا نتساءل ــ يا رب ـ أيّ حقّ لنا عليك، وكلّ وجودنا هبة منك، وملك لك، فأنت صاحب الحق في المنع، كما أنت صاحب الحق في العطاء، وأنت تفرض لعبادك الحق في ما تجعله من الحق لهم عليك، فهو مستمد منك، وليس شيئاً من الذات في علاقاتها الطبيعية بغيرها، ولذلك فإنّ المتعدّي لا معنى له، فأنت المحسن إن أعطيت وأنت الحكيم إن منعت، وقد جاء في الحديث عن الإمام علي بن موسى الرضا (ع) ما يشير إلى ذلك، فقد سأله بعض الناس فقال: أخبرني عن الجواد، فقال: إنّ لكلامك وجهين، فإن كنت تسأل عن المخلوق فإنّ الجواد الذي يؤدّي ما افترض الله عليه، وإن كنت تسأل عن الخالق فهو الجواد إن أعطى، وهو الجواد إن منع لأنّه إن أعطاك أعطاك ما ليس لك، وإن منعك، منعك ما ليس لك. وهذا ما جاء في كلام أمير المؤمنين (ع): **«وكل مانع مذموم ما خلاه»**.

«تشكر من شكرك وأنت ألهمته شكرك وتكافىء من حمدك وأنت علمته حمدك».

يا ربِّ . . . إنّه لطفك وحنانك وكرمك . . إنّك تفتح لي في قلبي المنفتح عليك وعلى نعمك، نافذةً على الإحساس بكلّ جميلك الذي لا يُحدّ، فينطلق عقلي وقلبي وشعوري ولساني بالشكر لك على ما أوليتني من نعمك التي احتضنت وجودي كلّه بالخير والفرح والسعادة الروحيّة والجسديّة . . . ويفاجئني ـ يا رب ـ وأنا المثقل بكل هذا اللطف الإلهي الذي يفيض عليّ بالحنان والرحمة، أنّك تشكرني على أن شكرتك، فأذوب وأذوب حتى أشعر بكلّ كياني يذوب أمامك لأنّي أفكّر وأشعر بأن هذا الشكر من إلهامك، فأنت الذي أعطيتني العقل الذي أكتشف فيه عمق نعمتك في وجودي، ومنحتني الحواس التي أشعر فيها بكلّ مواقع النعم في حياتي، ليكون الشكر نتيجة عقل يفكّر وحسّ يبصر ويسمع ويشم ويذوق ويلمس، فأيّ ربّ عظيم لطيف، أنت، عندما تشكر من شكرك وأنت ألهمته شكرك.

وتحمدك نفسي على كلّ مواقع الحمد في الكون، وفي كياني الداخليّ في ما تمثّله آفاق عظمتك وامتداد نعمك، وفي ما تنفتح عليه روحي عن ذلك كلّه في ما علّمتني من أسرار الحمد ومن أساليبه ووسائله؛ فمنك المعرفة التي انطلقت من حقائق الجمال والجلال والكمال في ذاتك لتدخل في مواضع الفكر من عقلي ومواقع الإحساس من شعوري . . وإذا بي أطلّ من جديد على كرمك الواسع في فيض العطاء، فأجد منك ـ يا ربِّ ـ لطف المكافأة على هذا الحمد الذي هو هبة منك، لأنّ إحساسي بالحمد ليس شيئاً أمنحك إيّاه فيزيد في عظمتك، ولكنّه شيء يرتفع بروحي إليك في آفاق المعرفة العليا الرحبة التي تجعلني كبيراً في القرب منك.

* * *

تَسْتُرُ عَلَى مَنْ لَوْ شِئْتَ فَضَحْتَه، وَتَجُودُ عَلَى مَنْ لَوْ شِئْتَ مَنَعْتَه، وَكِلاَهُما أَهْلٌ مِنْكَ لِلْفَضِيحَةِ والْمَنْعِ، غَيْرَ أَنَّكَ بَنَيْتَ أَفْعَالَكَ عَلَى التَّفَضُّلِ، وَأَجْرَيْتَ قُدْرَتَكَ عَلَى التَّجَاوُزِ، وَتَلَقَّيْتَ مَنْ عَصَاكَ بِالحِلْمِ، وَأَمْهَلْتَ مَنْ قَصَدَ لِنَفْسِهِ بِالظُّلْمِ، تَسْتَنْظِرُهُمْ بِأَنَاتِكَ إِلَى الإِنَابَةِ، وَتَتْرُكُ مُعَاجَلَتَهُمْ إِلَى التَوْبَةِ لِكَيْلاَ يَهْلِكَ هَالِكُهُم، وَلاَ يَشْقَى بِنِعْمَتِكَ شَقِيُّهُم، إِلاَّ عَنْ طولِ الإِعْذَارِ إِلَيْهِ وبَعْدَ

تَـرَادُفِ الْحُجَّة عَلَيْـهِ، كَـرَماً مِنْ عَفْـوِكَ يَـا كَرِيـم، وَعَائِدَةً مِنْ عَطْفِكَ يَـا حَلِيم.

***

فعل الله مبني على التفضل

يا ربِّ، إنّني عندما أتطلّع إليك في آفاق الألوهية الرحبة التي لا تضيق على أحد بل تتسع ألطافها لكل النـاس، فماذا أرى؟ إنّني أرى السموّ يـرتفع ويعلو في كلّ مـدارج الرفعة والعلوّ فينظر إلى خلقه بعين الرحمة لا بعين الإنتقام، فيتفضّل عليهم بما يفتح لهم أبواب الإنفتـاح عليه بـالإطمئنان إلى الأمل الكبير في العـودة إلى مواقع رضـاه في مواقع طاعته، لأنّه لم يغلق عليهم أبواب رحمته ومغفرته في ما فتح لهم من أبواب التوبة إليه.

إنّك ـ يـا ربِّ ـ تعلـم ما يقوم بـه عبادك الخاطئـون من فضائح وخطـايا في سرّهم وعلانيّتهم، وتطّلع على مـا يكنّونه في وجدانهم من أسرار عميقة تتصـل بموقع النيّة في أفعالهم، وبموطن الإحساس في مشاعرهم ممّا لا يريدون ظهوره واطلاع الآخرين عليه، وأنت القادر على أن تفضحهم أمـام الناس بما تملكه من وسـائل ذلك، وهم يستحقّون الفضيحة لسـوء نيّتهم وفعلهم، ولكنّك ـ برحمتك ـ لم تفضحهم حتى تترك لهم الفـرصة للتراجع ولـلإحسـاس بـرحمة الله في ستره عليهم، فيدفعهم ذلـك إلى الحياء منـه في مـا يتمرّدون، وفي ما يستر عليهم.

وهناك البعض من الذين تعقّدت أفكارهم ومشاعرهم وأفعالهم فابتعدت عن مواقع رضاك في خطـوط طاعتك، وابتعدوا ـ بـذلك ـ عن آفاق رحمتك، فـاستحقّوا المنع من جودك وعطائك، ولكنّك تبادرهم بالعطاء السخيّ من رزقك لينفتحوا عليك من عمق أفضالك وألطـافك. وهكذا كان الخط الـرحيم الحليم الكريم الغفور في مـا تتصرّفُ به في واقع عبادك الخاطئين، فقد بنيت أفعالك على التفضـل فأعطيتهم ما لا يستحقّونه، وأجريت قدرتك على التجاوز فلم تؤاخذهم بسوء أعمالهم، وتلقيت من عصاك بالحلم ففتحتَ له أبـواب التوبة، وأمهلتَ مَن قصـد لنفسه بـالظلم فتركت له الفرصـة ليعدل

معها بالإستقامة في الطريق، والرجوع عن الإنحراف، لأنّك الواسع في كرمك، والعظيم في رحمتك، فلا يضيق عليك عفو ولا رحمة، ولا يرهقك انتظار الخاطئين ليرجعوا إليك من قاعدة التوبة لأنّك خلقت عبادك بيدك، وعرفت نقاط ضعفهم ونقاط قوّتهم فأردت لهم أن يمتدوا في ساحات الفكر الذي يهديهم إلى سواء السبيل عندما تترادف الحجج عليهم، ويكثر الإعذار إليهم، فيكتشفون ما ينتظرهم في آفاق رحمتك فيرجعون إليك ويستريحون إلى عفوك ويهرعون إلى وعدك بقبول التائبين والغفران للخاطئين المذنبين. . وذلك هو الذي يقودهم إلى التوازن في وعي المسؤولية في ما يملكونه من طاقات، وفي ما يحركونه من خطوات، وفي ما يركّزونه من علاقات ببعضهم ببعض، ممّا يجعلهم في موقف الطاعة لله وإسلام الأمر كلّه لله.

وذلك هو الذي يعطي الإنسان الصورة الحيّة عن لطف الله بعباده في ما يقودهم إلى مواقع العودة إليه بكلّ الوسائل التي تختزن الرحمة، وتحرّك الأفكار والمشاعر في خط الواقعيّة الرساليّة في ما يأخذون به أو يتركونه، فلا يهلك هالكهم ـ في حال اختيارهم الهلاك ـ إلاّ بعد استنفاد كلّ الحجج، ولا يشقى شقيّهم إلا بعد ابتعاده عن كلّ ما وفّره الله له من أسباب السعادة، وذلك في نطاق عنوان واحد يتّسع لكلّ أفعال الإنسان وأقواله وعلاقاته؛ وهو التوبة.

* * *

أَنْتَ الَّذي فَتَحْتَ لِعِبَادِكَ بَاباً إِلَى عَفْوِكَ سَمَّيْتَهُ التَّوْبَةَ وَجَعَلْتَ عَلَى ذَلِكَ الْبَابِ دَلِيلاً عَنْ وَحْيِكَ لِئَلاَّ يَضلوا عَنْه، فَقُلْتَ، تَبَارَكَ اسْمُكَ، ﴿تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحاً عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يَوْمَ لاَ يُخْزِي اللهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1]، فَمَا عُذْرُ مَنْ أَغْفَلَ دُخُولَ ذلِكَ الْمَنْزِلِ بَعْدَ فَتْحِ الْبَابِ وَإِقَامَةِ الدَّلِيلِ.

(١) التحريم؛ ٨.

نداء المحبة الدائم

يـا ربِّ، كيف لا ينفتح عليك عبـادُك بكـل الأمل والـرجـاء في القـرب إليك مهما ابتعدت بهم الذنـوب عن ساحة قدسك، وأنت الـذي لا تترك مجالاً لانفتاحهم عليك إلاّ لتفسح لهم أكثر من فرصة لذلك، لأنّك تعـرف سرّهم وعلانيّتهم في ما ينحرفون فيه عن الطريق، أو في ما يمارسونه من الخطيئة، انطـلاقاً من مواقع الإهتزاز في مشاعرهم، وعنـاصر الإثارة في غـرائزهم وإيحاءات الإنحراف في أوضـاعهم، ممّا يحتـاجون فيـه إلى الكثير من الرحمة التي تجتذبهم إلى الخير وتبعـدهم عن الشرّ، في ما تهيّىء لهم من ظروف التراجع عن ذلك كلّه، عندما يـواجهون ألطاف الخير في شخصيّاتهم من خلال الإيحاء الروحي بأن الله يدعـوهم إلى العودة إليه وإلى الثبات في مـواقع رضاه، وإلى الإتجاه نحو الهدوء في العقل، والإستقـامة في الخطوات إلى الطـريق المستقيم، ليكـون الإنحراف في حركتهم مجرّد حـالةٍ طـارئة لا تستقر في الإتجاه، وليكـون الإهتزاز في منـاطق الإثارة مجرّد وضعٍ سريع لا يلبث أن يزول بفعل عناصر الثبات في الإيمان وفي التقوى.

وهكذا دعوتَ عبادك إلى عفوك، ولكن لا ليحصلوا عليه بدون إرادة أو معاناة... بل أردت لهم أن يحصلوا عليه من خلال الباب الروحي الذي يمتزج فيه الوعي للمسألة الإلَهية في المسألة الإنسانية في ما هو حـق الله على عباده من الإحساس بالعبودية المطلقة التي لا يملكون معها أيّ شيء من حرية الإختيار خارج نطاق الطاعة، كما يتداخل فيه الشعور بـالندم على الخطيئة بـالعزم على تصحيح خط السير في اتجاه التقـوى العملية، ويتحرك فيـه العنصر الروحي في دائرة العنصر العملي وهو التـوبة التي تختصر في حـركة الإنسان كل معاني الإنفتاح على الله، والإنغلاق عن كل مواقع الشيطان في عملية إرادةٍ قوية وتصميم حاسم..

ثم أكدّت ذلك في الخط الـذي رسمته لهم بكلّ وضوح في وحيك في مـا أظهرت لهم من خصائصـه، وبيّنتَ لهم من ملامحه حتى يتعرَّفـوا عليه بطريقةٍ دقيقـة.. وذلك هو التوبة النصوح التي تعبّر عن توافق ظـواهرهم وبواطنهم في عملية التغيير، وعن صدق النيّة وقوّة العزم، وإرادة الثبات بحيث لا مجال فيه لأيّ تراجع أو اهتزاز.

وهذا هو ما تحدّثت به إليهم في كتابك الـذي أطلقتَ فيه نداء الدعوة إلى التوبة ﴿**يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً**﴾[1].

إنّك تدعـوهم إلى العودة إليك من مـوقع الصدق الذي يعبّر عن الإستقـامة في خط طـاعتك، من خلال إرادة التغيير الـذي ينتقلـون به من خط الشيطـان إلى خط الله . . فهـذا هو الطـريق الوحيـد الذي يـربطهم بك من جـديد، إنّك تـوحي إليهم بأنّك لا تـرفضهم لمجـرد أنّهم عصـوك وتمرّدوا عليك، بل تعلن لهم أنّك تتقبلهم في أيّـة لحظـة يريـدون فيها العـودة، وتدعوهم إلى أن ينفتحـوا على ذلك في نداء محبّـة ولطف وحنان ورحمة.

ثمّ تابعت النـداء بالإيحاء إليهم بأن عليهم أن يعيشـوا روحيّة الرجـاء بمغفرة الله من خـلال التوبـة . . . وإذا كـانت المسألة عنـدهم رجـاءً يحمل في داخله بعض عنـاصر الخوف، في ما تريـد أن توحي إليهم بالتحرك نحوك في شعـور تمتزج فيه الرغبة بـالرهبة كوسيلـةٍ من وسائل التربيـة الروحيّة التـي يتحرّك فيها الإنسـان في روحيّة العبـوديّة بين الخوف والـرجاء ليتأكـد موقعـه في إخلاصـه لله، في قلق الإنسـان الباحث عن مـواقع رضاه، إذا كانت المسألـة عندهم رجاءً في الخط التربوي، فإنّها عنـدك ـ يـا رب ـ قـراراً بالعفو عمّن يعيش في أعماقه الرغبة الحقيقية في التطلّع نحو رضاك وهذا هو قولك:

﴿**عسى ربكم أن يكفِّـر عنكـم سيئـاتكم ويـدخلكم جنـات تجري من تحتهـا الأنهار**﴾[2].

فذلك هـو الأفق الجديد للتوبـة، أن يتحول الماضي في نتائج مسؤوليتـه إلى صحيفة بيضاء لا أثر فيها للخطيئة السوداء، ولا للإنحراف الأعمى، لأنّ الحاضر التائب يهيّىء جـو الغفران للماضي الخاطىء، وأن يكـون المستقبل البعيـد هو مستقبل النعيم الـذي يلقـاه النـاس التـائبـون في لجنّـات التـي تجري من تحتهـا الأنهار، حيث يعيشـون فيهـا الإحساس بالجمال والشعور بالطمأنينة . . هناك في ذلك اليوم الذي يؤكّد الله فيه رعايته لعباده الصالحين.

---

(١) و (٢) التحريم؛ ٨.

﴿يوم لا يخزي الله النبيَّ والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنّك على كلّ شيء قدير﴾[1].

فأنت ـ يا رب ـ لا تُدخل الخزي والعار على عبادك الصالحين الذي عاشوا في مجتمع الإيمان بالله، والسير في خط شريعته بقيادة النبي الذي حمل الرسالة ودعا إلى الله وإلى طاعته، لأنّك اطلعت على قلوبهم فرأيت فيها النور الذي يشعّ بالإيمان فيتفايض على ساحاتهم في طريقهم الطويل، وينطلق في أيمانهم التي يحركونها في خط الجهاد وفي سبيل الله . . . فإذا شعروا بأن هناك نقصاً في هذا النور الذي أرادوه أن يتكامل، توجهوا إليك بكل إشراقة الحقيقة الإلهية في كيانهم ليطلبوا منك أن تكمل لهم هذا النور الذي ضاع منهم بعضه بفعل ظلام الخطيئة، وتغفر لهم حتى تكون الحياة لديهم نوراً في حركة الإيمان والطاعة ونوراً في حركة العفو والمغفرة، وهكذا يبتهل إليك عبادك لأنّك القادر على كلّ شيء، والمهيمن على الوجود كلّه وعلى الجزاء كلّه، فأيّ ربّ عظيم، أنت يا رب، وأيّ خالق رحيم أنت يا رب . . وكيف يبتعد عبادك عن الدخول إلى عفوك من باب التوبة المفتوح على مصراعيه وما هو عذرهم في ذلك كلّه؟.

***

«وَأَنْتَ الَّذِي زِدْتَ فِي السَّوْمِ عَلَى نَفْسِكَ لِعِبَادِكَ تُرِيدُ رِبْحَهُمْ فِي مُتَاجَرَتِهِمْ لَكَ وَفَوْزَهُمْ بِالْوَفَادَةِ عَلَيْكَ وَالزِّيَادَةِ مِنْك، فَقُلْتَ، تَبَارَكَ اسْمُكَ وَتَعَالَيْتَ، ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا﴾[2] وَقُلْتَ: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ الله كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ والله يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءَ﴾[3] وَقُلْتَ: ﴿مَنْ

---

(١) التحريم؛ ٨.

(٢) الأنعام؛ ١٦٠.

(٣) البقرة؛ ٢٦١.

ذَا الَّذِي يُقرِضُ الله قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفه لَهُ أَضْعافاً كَثيرةً﴾[1] وَمَا أَنْزَلْتَ مِنْ نَظَائرهُنَّ فِي الْقُرآنِ مِنْ تَضَاعيفِ الْحَسنَات».

* * *

التجارة مع الله

لقد كان وجودنا بعض عطائك وكرمك، كما كانت نعمك الوافرة في حركة هذا الوجود شاهداً على لطفك ورحمتك، وهذا ما يعيشه عبادك المؤمنون بك المبتهلون إليك في وجدانهم الإيمانيّ، عندما يرون الفيض الإلهي يَنهَمر عليهم من كل جانب من دون أن يكون لديهم أيّ عمل يقدمونه بين أيديهم ليستحقوا به ذلك. ولقد دعوتنا للعمل في كلّ مواقع طاعتك، في ما يتصل بحياتنا الخاصة في ما يتحرك به وجودنا الذاتي من رغبات وحاجات، وفي ما يتصل بحياتنا مع الناس في ما تفيضه علينا من مسؤوليات وأوضاع. فأردتنا أن نعيش العطاء في طاقاتنا في ما نقدمه من خير لأنفسنا وللناس وللحياة في نطاق أوامرك ونواهيك، ليكون وجودنا فاعلاً منتجاً على مستوى الوجود كلّه، ولم تجعل عملنا هذا مجرد مسؤولية عباديّة نتعبّد فيها إليك على أساس ما يجب علينا لك من أنواع الطاعة، من دون أن نحصل من ذلك على شيء في ربح الذات لنفسها في ما تريده من خير، بل جعلته نوعاً من التجارة معك في ما تجتذبه من الربح المخزون عندك واعتبرته قرضاً يحمل لنا فرص الزيادة المضاعفة، وهكذا دعوتهم إلى التجارة معك، وأنت الذي رزقتهم ما يتاجرون به وزدتهم في الربح لتزيدهم رغبةً في التسامي إلى درجات القرب إليك وحركةً في خط المسؤولية في تحريك الحياة نحو الإنطلاق إلى مواقع الخير للإنسان كلّه في جميع مجالاته، ليكون الإنسان إنسانَ العمل الصالح الخيّر في ما تحتاجه الحياة من طاقاته، وليكون إنسان الله في ما يفرضه عليه من كلّ مواقع الطاعة، وملامح العبودية له في وجوده.

وهكذا كانت الحسنة ـ أية حسنةٍ ـ عشر أمثالها، وكان الإنفاق ﴿**في سبيل الله كمثل**

---

(١) البقرة؛ ٢٤٥.

حبة أنبتت سبع سنابل في كلّ سنبلة مائة حبة، والله يضاعف لمن يشاء﴾ وكأن الذي يقرض الله قرضاً حسناً في ما يقدّمه للآخرين من طاقته وماله، يستحقّ الأضعاف الكثيرة من الربح والأجر الكريم وذلك في عمليةٍ تربوية إيحائية بأن قضية العمل الصالح ليست مجرد قضيةٍ ترتبط بالمبدأ في ما يخطط له من مواقع ومواقف، ولكنّها قضية الذات في ما تتطلع إليه من أرباحٍ ومنافع . . وأن الذاتية في حساب العمل تمثّل قيمةً كبيرة في ميزان الله عندما يكون العمل لله في ما يتقرب به الإنسان إليه في خدمة الإنسان والحياة قربة إلى الله . لأنّ الله أراد للإنسان أن يطيعه ويتعبّد إليه طمعاً في جنته وخوفاً من ناره ورغبة في الأجر العظيم، ولم يفرض عليه أن يفعل ذلك من دون ثمن على أساس استحقاق الله للعبادة في ذاته، وذلك على أساس أن الله لا يريد للإنسان أن يبتعد عن خصائص إنسانيته في نطاق بشريّته، فيكون مَلَكاً يفكر في العمل من ناحية التجريد، بل أراد له أن يكون بشراً في نطاق حاجاته الحاضرة والمستقبلة على مستوى الدنيا والآخرة .

ولهذا أعطى السعي نحو المسؤوليات العامة والخاصة معنى التجارة والبيع في ما يجتذبانه من قضايا الربح والتعويض في الطموحات الذاتية ليعيش الإنسان هاجس ذلك في دنياه وآخرته على أساس الخط المستقيم .

* * *

«وَأَنْتَ الَّذي دلَلْتَهُمْ بِقَوْلِكَ مِنْ غَيْبِكَ وَتَرْغِيبِكَ الَّذِي فِيهِ حَظُّهُمْ عَلَى مَا لَوْ سَتَرَتْهُ عَنْهُمْ لَمْ تُدْرِكْهُ أَبْصَارُهُمْ وَلَمْ تَعِهِ أَسْمَاعُهُمْ وَلَمْ تَلْحَقْهُ أَوْهَامُهُمْ، فَقُلْتَ : ﴿اذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ واشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾[1] وَقُلْتَ : ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُم وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيد﴾[2] وَقُلْتَ : ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُم إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[3] فَسَمَّيْتَ

(١) البقرة؛ ١٥٢ .
(٢) إبراهيم؛ ٧ .
(٣) غافر؛ ٦٠ .

دُعَاءَكَ عِبَادَةً، وَتَرْكَهُ اسْتِكْبَاراً، وَتَوَعَّدْتَ عَلَى تَرْكِهِ دُخُولَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ، فَذِكْرُكَ بِمَنِّكَ، وَشُكْرُكَ بِفَضْلِكَ، وَدُعَاؤُكَ بِأَمْرِكَ، وَتَصَدَّقُوا لَكَ طَلَباً لِمَزِيدِكَ، وَفِيهَا كَانَتْ نَجَاتُهُمْ مِنْ غَضَبِكَ، وَفَوْزُهُمْ بِرِضَاكَ، وَلَوْ دَلَّ مَخْلُوقٌ مَخْلُوقاً مِنْ نَفْسِهِ عَلَى مِثْلِ الَّذِي دَلَلْتَ عَلَيْهِ عِبَادَكَ مِنْكَ كَانَ مَوْصُوفاً بِالإِحْسَانِ وَمَنْعُوتاً بِالإِمْتِنَانِ وَمَحْمُوداً بِكُلِّ لِسَانٍ».

* * *

ذكر الله حاجة إنسانية

ويبقى لطفك بعبادك يغمر حياتهم ويرعى مصيرهم عندما تدلهم على الطريق الذي يُؤدّي إليك فيرفع درجتهم عندك، ويحقّق لهم السعادة لديك، في ما يوحي به ذلك كلّه من علاقة العبد بربّه وعلاقة الرب بعبده، فهناك مبادرة من الإنسان تتحرك في طريقته في التعبير عن شعوره بحضور الله في وجدانه وفي الوجود كلّه بحيث يجده في أجواء الغيب السابح في المطلق، كما لو كان في أجواء الشهود الغارق في الحسّ، فيذكره في آفاق ألوهيّته بكلّ مواقع عظمته وموارد نعمه بأسمائه الحسنى وصفاته العليا، ويتحوّل الذِكر عنده إلى حقيقةٍ حيّةٍ في العقل والإحساس وحركته في الحياة. . وهنا تلتقي المبادرة الإنسانية في خط العبودية الخالصة المخلصة بالرحمة الإلهية فيذكر الله عبده بالرحمة واللطف والحنان والمغفرة، كما ذكره عبده بالإخلاص والإعتراف والتوسل والعبادة.

وهكذا أراد الله لعباده أن يذكروه ليذكرهم في ما يريد الله أن يثيره في تفكيرهم من أن نسيانهم لله في كل مواقع الحياة عندهم سيكون تأثيره لديه أن ينساهم فيهملهم في عمق مسألة المصير، وهذا ما عبّر عنه الله بقوله في حديثه عن أمثال هؤلاء في موقفهم يوم القيامة في ساعة الحساب في حوارهم مع الله ﴿**ومن أعرض عن ذكري فإنّ له معيشةً ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى* قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنتُ بصيراً* قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تُنسى**﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿**نسوا الله فنسيهم**﴾[2].

---

(١) طه؛ ١٢٤، ١٢٥، ١٢٦.

(٢) التوبة؛ ٦٧.

وليست المسألة مسألة حاجة إلهية في ذكر الإنسان لربه، بل هي حاجة إنسانية في انفتاح الإنسان على مصالحه في الحياة وفي المصير من خلال ذلك، حيث يكون نسيانه لله نسياناً لنفسه عندما يستولي عليه الشيطان في كل مصادره وموارده وذلك هو قوله تعالى:

﴿ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون﴾[1].

وبذلك يكون ذكر الله في وعي الإنسان وسيلة من وسائل ذكر الإنسان لنفسه. وإذا كان الذكر حركةً في وعي الإنسان لربّه، فإنّه يجتذب الشكر الذي يمثّل وعي الإنسان لنعم الله في حياته في كل مواقع وجوده في تفاصيلها الصغيرة والكبيرة، بحيث لا معنى له بدونها، ولا قيمة لأية سعادةٍ بعيداً عنها.. وهذا هو الذي يعمّق في الإنسان إحساسه بإنسانيّته في ما يعنيه الإعتراف بالجميل من المعنى الإنساني، وذلك هو الذي يجسّد انفعاله بألطاف الله عليه. وكما هو الذكر في علاقته بمصلحة الإنسان في الداخل، كذلك الشكر في علاقته بالله في امتداد النعم عليه وزيادة فُرصِها في حياته، وهذا في مقابل الكفران والجحود ونكران الجميل في زوال النعمة عنه وتحوّلها إلى عذاب شديد، وهذا ما عبّر عنه الله سبحانه بقوله في دعوته الإنسان للشكر وتحذيره من الكفر بالنعمة:

﴿واشكروا لي ولا تكفرون﴾[2].

وقوله تعالى:

﴿لئن شكرتم لأزيدنّكم ولئن كفرتم إنّ عذابي لشديد﴾[3].

وهكذا كانت دعوة الله للإنسان إلى الذكر، ودعوته إلى الشكر وسيلةً من وسائل انفتاحه على ربّه، ليبقى ذكره في وجدانه حيث يشرق الله في كلّ فكره وشعوره ليمتد

---

(١) الحشر؛ ١٩.
(٢) آل عمران؛ ١٥٣.
(٣) إبراهيم؛ ٧.

حضوره عنده في مواقع المسؤولية في حيـاته، ولينطلق شكره له ليعمّق في ذاته الإحساس بارتباط كلّ حياتـه بربّه، من خلال علاقة النعم الإلهية بحيـاته في وعيٍ لحاجته المطلقة إلى الله، وشعور بتلبية الله له في ذلك كلّه.

* * *

مميزات الدعاء

ثم كان الدعاء الذي دعوتنا إليه يـا ربّ الذي هو المظهر الحيّ للتواصل الدائم بيننـا ـ نحن عبادك ـ وبينك، فهو الذي يمثّل النجوى التي تنطلق من عمق الشعور الحيّ في قلوبنـا لتتحدث معك من موقع الحاجة إليـك والرغبة في الحصول على لفتـةٍ من كرمك ونظرةٍ من رحمتك، لأنّك سرّ وجودنا ومعنى الإمتداد في مسيرة هذا الوجود، وهو الذي يعبّر عن الإعتراف بألوهيتك في خط عبوديّتنـا لك، على أساس المضمون الإيماني الذي تتحـرّك فيه كل مفـردات العقيـدة والحياة في تعـدادٍ متنـوّع الأبعاد والأسـاليب في روح عباديّةٍ تعبيريّةٍ عن كلّ ما يفكّر بـه الإنسان ويحُسّه ليعرضه أمام الله، حيث يمثّل ذلك اعترافاً وإقـراراً وإخلاصاً بما يعتقد أنّـه الحقيقة الخاضعة لكلمات الله ورسـالاته، حيث تتميز عبـادة الدعاء عن أيّ عبـادةٍ أخرى في تنـويع الأفكار والأوضاع، فـلا تجد هناك تشريعاً محدّداً في الكيفيّة والكميّة، فللإنسان أن يدعو ربّه وهو قائم أو قاعد أو مستلقٍ على ظهـره أو راكع أو ساجـد أو واقف أو سـائر، ولا توجـد كلمات محدّدة لما يقولـه في الدعاء، ولا لغات معينة، بل يمكنه الدعـاء بأية لغةٍ وأيّة كلمة في أيّ مضمونٍ روحيّ أو شعوري أو فكري مما يريد أن يقدّمه الإنسان بين يدي الله. . وبهذا كان الدعاء عبادةً متحـركة على أكثـر من صعيد، ومنفتحـة على كلّ إنسـان بحيث ينطلق فيها الإنسـان بشكل عفويّ عند حدوث أيّة مشكلةٍ أو طروء أيّـة حاجةٍ لا يرى فيها لقدرته مجالاً لحلّ المشكلة أو لقضاء الحاجة فيلجأ إلى أن يَرفعها لله.

وهو الذي ينمّي في روح الإنسان الصلة الروحيـة بالله حيث يشعر بأن الله قريب منه ومن آلامه وآماله ومشاكله وحاجاته، ليفتح عليه أبواب رحمته فيخفف عنه ما ثقل عليه

من ذلك، وليقضي له ما صَعُب منها فيجد حاجته عند ربّه بما لا يجدها عند غيره، وهذا هو ما عبّرت عنه الآية الكريمة:

﴿فإنّي قريب أجيبُ دعوة الدّاع إذا دعانِ فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلّهم يرشدون﴾[1].

ويتصاعد الإهتمام بهذه العبادة الدعائيّة حيث تمثّل الدعوة الحاسمة التي تجعل من الإقبال عليها مظهراً للعبادة الخالصة المنفتحة على معنى عبوديّة الإنسان لله، كما تجعل من الإبتعاد عنها مظهراً من مظاهر الإستكبار عن عبادة الله الذي يؤدي إلى دخول جهنّم، وهذا هو قوله تعالى: ﴿ادعوني أستجب لكم إنّ الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنّم داخرين﴾[2].

وهكذا عاش الناس الذِكر والشكر والعبادة من خلال الإحساس بِمَنِّك، والإنفتاح على فضلك، والخضوع لأمرك، فكان ذلك سبباً للوصول إلى مواقع رضاك من خلال مواقع طاعتك.. في ما يقودهم ذلك إلى رحاب جنّتك.. وهذا هو الغاية كل الغاية في حركة السعادة الإنسانية التي يتطلّع إليها المؤمنون، وينطلق نحوها المخلصون.

***

«فَلَكَ الْحَمْدُ مَا وُجِدَ فِي حَمْدِكَ مَذْهَبٌ وَمَا بَقِيَ لِلْحَمْدِ لَفْظٌ تُحْمَدُ بِهِ وَمَعْنىً يَنْصَرِفُ إِلَيْهِ، يَا مَنْ تَحَمَّدَ إِلَى عِبَادِهِ بِالإِحْسَانِ وَالْفَضْلِ وَغَمَرَهُمْ بِالْمَنِّ وَالْطَوْلِ مَا أَفْشَى فِينَا نِعْمَتَكَ وَأَسْبَغَ عَلَيْنَا مِنَّتَكَ وَأَخَصَّنَا بِبِرِّكَ، هديتنا لدينك الَّذِي اصْطَفَيْتَ وملَّتِكَ الَّتِي ارْتَضَيْتَ وَسَبِيلكَ الَّذي سَهَّلْتَ، وَبَصَّرْتَنَا الزُّلْفَةَ لَدَيْكَ وَالْوُصُولَ إِلى كَرَامَتِكَ».

***

---

(١) البقرة؛ ١٨٦.

(٢) غافر؛ ٦٠.

العجز عن بلوغ الحمد

كيف أبلغ ـ يا رب ـ آفاق حمدك، وأنا الإنسان الذي أعيش في زاوية ضيّقة من زوايا الجهل وحدود المادّة.

وهل أنـا إلاّ عينٌ تبصر بعض مظـاهـر عظمتـك، وأذنٌ تسمع بعض أصـوات مخلوقاتك، ويدٌ تشعـر مواقع النعم في ما تلمسه من مجالات نعمك. . . فكيف انطلق إلى مـا لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خَطَـرَ على قلـب بشر، ولا تلمسـه حسّ في مـا ينفتح عليه غيب العظمة في قدسك وسر الإبداع في ألوهيّتك، فكيف أبلغ ما أريده في عمق إخلاصي من التعبير عن حمدك، وأنا لا أعرف إلاّ القليل القليل منه.

لذلك فلن أدخل في التفاصيل، لأنّي لا أعـرف كنه تلك التفاصيل، ولكنّي أحمدك ما وجد في حمدك مـذهب ممّا أستطيع الوصول إليـه وممّا لا أستطيع، كما أني أستغرق في كلّ كلمات الحمـد حتى لا تبقى هناك كلمـة لا يتحرك بها عقلي وقلبي ممـا قد لا يبلغـه لسـاني، وانطلق مع كل معـانيـه حتى لا يبقى هنـاك معنىً يطلّ على حمدك إلاّ عشت فيه، وانطلقت معه ممّا أدركه وممّا لا أدركه.

لقد تحمّـدتَ إلينا ـ يـا رب ـ بإحسانك وفضلـك الذي شمل كلّ حياتنـا في كلّ ما نحتـاجه ومـا تنعم بـه، وغمـرتنا بمنّك وكـرمك حتى أغـرقتنـا بالسعـادة من خـلال ذلك. إنّنـا نلتفت إلى كل جوانب وجـودنا المتحـرك في إرادتك، فنجد نعمتك شـاملةً لكل شيء من أمورنا، فليس هناك أمر لا أثر فيه لنعمتك الماديّة أو الروحيّة، ونكتشف منّتك علينا سـابغةً في كل أوضاعنا، فما من وضع لا ينطق بمنّتك في عمليـة امتنانٍ تهزّ الكيان كلّـه، ونلتقي ببرّك الذي اختصصتنا به، ففي كل زاويـة من زوايا حياتنا غـرسة للبرّ الإلهي الذي يمتد حتى يشمل المواقع كلّها.

أيّ إحسانٍ وفضلٍ ـ يـا رب ـ أعظم من إحسانك وتفضّلـك علينـا بهدايتنا لدينـك الذي اخترته لعبادك نهجـاً للسعادة في الدنيا والآخرة، وأفقاً رحبـاً نطلّ من خلاله على آفاق إرادتك في مـا تريد لعبـادك أن يطيعوك فيه ممّـا فيه الحصول على مصـالحهم في ما يفعلـونـه، والإبتعاد عن مفـاسـدهم في مـا يتركونـه. . وذلك هـو عنـوان ملّتك التي

ارتضيتها من خلال تجسيدها لمواقع رضاك وسبيلك الذي خَططت لنا لنصل من خلاله إلى كرامتك في القرب إليك والوصول إلى رحمتك ومغفرتك.

* * *

هذا هو الجوّ الـذي انطلق فيه الإمام علي بن الحسين زين العابـدين (ع) ليقف أمام وداع شهر رمضان، من خـلال وعي الإنسان لموقعه من ربّه وموقع ربّه منـه، في ألطافه ونعمه وإحسـانه وعظمته ورحمته ومغفـرته وهدايتـه، ممّا يجعل شهر رمضان مـوقعاً من مواقع اللطف في رعاية الله للإنسان، وحركةً في اتجاه الوصول إليه من أجل الحصول على الدرجة العليا في محبته ورضوانه.

وهذا هو الذي يخرج به شهر رمضـان وغيره من مواقيت العبادة والدعاء، عن الخط التقليدي الـذي قد يتحـوّل فيه الموعـد الزمني العبـادي إلى تقليد ميـت يمرّ بـه الناس بشكلٍ عاديّ لا يوحي بأيّ اهتمام، ولا يحمل أيّة حـرارة في منطقة الفكر والشعور، لأنّ امتداد التشريع في مدى الـزمن قد يجعل المسألة في دائرة الجمود التـاريخي الذي يتجمد كل شيء في داخله. إنّ القضية المطروحة في التربية الـروحية الإسلامية هي أن يكون الله هو العمق في كل شيء في الحسّ الشعـوري للإنسان بحيث يراه في كل قـولٍ من أقواله وفي كل فعلٍ من أفعاله، وفي كل موقع من مواقع الزمن في حركة حياته سواءٌ كان يحمل عنواناً للفكـرة أو موقعاً للعبادة أو كان لا يحمل شيئاً من ذلك، وهـذا هو الذي يعطي الزمن حيويّته وحرارته، وللعبادة معناها وحركتها في الفكر وفي الحياة.

* * *

«اللَّهُمَّ وَأَنْتَ جَعَلْتَ مِنْ صَفَايَا تِلْكَ الْوَظَائِفِ وَخَصَائِصِ تِلْكَ الْفُرُوضِ شَهْرَ رَمَضَـانَ الَّذِي اختصصتـه مِنْ سَائِرِ الشُّهُـور، وَتَخَيَّرْتَهُ مِنْ جَمِيـعِ الأَزْمِنَةِ والـدُّهُور، وَآثَـرتَـهُ عَلَى كُلِّ أَوْقَاتِ السَّنَـةِ بِمَا أَنْـزَلْتَ فِيـهِ مِنَ الْقُرْآنِ وَالنُّـور، وَضَـاعَفْتَ فِيهِ مِنَ الإيمان وَفَـرَضْتَ فِيهِ مِنَ الصِّيَـام وَرَغَّبْتَ فِيهِ مِنَ الْقِيَـام، وَأَحْلَلْتَ فِيهِ مِنْ لَيْلَةِ الْقَدْرِ الَّتِي هِيَ خَيرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْر».

خصوصية الزمن في شهر رمضان

يا ربّ، إنّك خلقتَ الزمن كله، فَليس زمن أولى بك من زمن، تماماً كما خلقت كل شيء في الوجود، فليس هناك شيء ـ في ذاته ـ أقرب إليك من شيء . . . ولكنك جعلتَ لشهر رمضان خصوصيةً من بين الشهور، انطلاقاً من إرادتك وحكمتك عندما أعطيتَ معناه شيئاً من معنى وحيك، عندما أنزلت فيه القرآن الذي هو النور المعنوي الذي يدخل إلى عروق الزمن فيمنحه نوراً وحياةً وخيراً وبركةً، وفتحت فيه أكثر من نافذةٍ للإيمان، وحشدت فيه الكثير الكثير من مواقع رضاك في ما أردت لعبادك أن يطيعوك فيه، وذلك من خلال فريضة الصيام الذي يفتح في الجسد أكثر من موقع للروح، ومن خلال القيام الذي يطلّ بالروح على أكثر من معنى للحياة المنفتحة على الله . . ثم كانت الكرامة الكبرى لهذا الشهر عندما اختصرت الألف شهر فجعلتها في ليلة وجعلت حجم هذه الليلة ـ ليلة القدر ـ أكبر من حجم ذلك الزمن الطويل في فضلها وثوابها ونتائجها الروحيّة على مستوى ما يحصل عليه الإنسان من مضمونها العبادي من خير وثواب وسعادة، قد ترفعه إلى الدرجات العليا في جنتك . . وبهذا كان الإيحاء الإلهي بأن القيمة في معنى الزمن في روحه في سرّ الله، ليست في الكميّة، بل هي في النوعية، فقد لا تكون الألف شهر الفارغة من عمق الحركة الروحية في مستواها العبادي ذات قيمةٍ عند الله، وقد تكون الليلة الواحدة في جهدها وسرّها ذات قيمةٍ كبيرةٍ في حركة الفكر والروح في ما تنتج من أفكار ومشاعر وفي ما تنفتح عليه من آفاق الخير، أو تقترب به من ألطاف الله في الإنسان وفي عمق شعوره بالحياة، وفي معنى الكرامة التي يكرم فيها عباده بالمغفرة والرحمة والرضوان.

وهذا هو الفضل الكبير الذي تفضلتَ به على عبادك عندما فتحتَ لهم في هذا الشهر كلّ الأبواب التي تطلّ عليك، ودعوتهم إلى كلّ الأعمال التي تقترب من مواقع رضاك، وهيّأت لهم كلّ مواسم الخير والبركة واللطف والحياة الروحية التي تتفايض بالحنان.

* * *

«ثُمَّ آثَرْتَنَا بِهِ عَلَى سَائِرِ الأُمَمِ وَاصْطَفَيْتَنَا بِفَضْلِكَ دُونَ أَهْلِ الْمِلَلِ، فَصُمْنَا بِأَمْرِكَ نَهَارَهُ وَقُمْنَا بِعَوْنِكَ لَيْلَهُ، مُتَعَرِّضِينَ بِصِيَامِهِ وَقِيَامِهِ لِمَا عَرَّضْتَنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِكَ وَتَسَبَّبْنَا إِلَيْهِ مِنْ مَثُوبَتِك، أَنْتَ الْمَلِيءُ بِمَا رُغِبَ فِيهِ إِلَيْكَ الْجَوَادُ بِمَا سُئِلْتَ مِنْ فَضْلِكَ، الْقَرِيبُ إِلَى مَنْ حَاوَلَ قُرْبَك».

***

الإصطفاء الخاص

وهكذا كان شهر رمضان في تقديرك وتشريعك وكرمك ولطفك، ثم جعلته عطيّةً وميزةً لهذه الأمة المرحومة في ما أعطيت رسولك من كرامة بكرامة أمته، وفي ما فتحت له من نوافذ الحق على مواقع الخير. وهكذا انفتحنا عليك من خلاله، بما هيّأت لنا من موارد الطاعة في ما كلفتنا به من صيام النهار وفي ما ندبتنا إليه من قيام الليل، مما يرتفع بوعينا الروحي، وقوّتنا الإراديّة وحركتنا العملية إلى آفاق جديدة من رحمتك، وفُرَص متنوعةٍ من مثوبتك، عندما نتطلّع إليك في رحاب كرمك، فنراك مليئاً بما يرغب الناس فيه إليك من رضوانك، فأنت الذي لا تضيق خزانتك عن طلبات خلقك، كما نتطلّع إليك في عليائك وفي مواقع السموّ التي لا يبلغها أحد ولا يدركها مخلوق، فنراك قريباً إلى خلقك فتدعوهم إلى مواقع قربك، ليقربوا إليك بأرواحهم وأفكارهم وأعمالهم عندما لا يستطيعون القرب إليك بأجسادهم. . وهذا هو الذي يفتح للناس كل السبل ليصلوا إليك في أكثر من موقع وفي أكثر من حركة.

وقد يسأل سائل: كيف يكون شهر رمضان من خصائص هذه الأمة في ما آثرنا الله به من هذا الحشد من الأعمال والفيوضات الإلهية، وفي ما شرّعه الله فيه من الصيام، في الوقت الذي نلاحظ فيه أن الله سبحانه وتعالى يقول:

﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون* أيّاماً معدودات﴾[1].

---

(١) البقرة؛ ١٨٣ ـ ١٨٤.

حيث تدلّ الآية على أن تشريع الصيام ليس شيئاً جديداً في شريعة الإسلام بل هو تشريع كلّف الله به الأمم السابقة، وقد نستوحي من الآية وما بعدها، أن الخصوصيّة في الماضي هي الخصوصية في الحاضر الإسلامي، ولكن هذه الإستفادة غير واضحة، لأن من الممكن أن يكون التشبيه بلحاظ تشريع الصوم، لا بلحاظ خصوصيّة الزمان الذي شرّع فيه الصوم ممّا لا يتنافى مع الفكرة التي يوحي بها الدعاء من اختصاص الأمة بهذا الشهر فإنّ الحديث عن شهر رمضان في الآية التالية ليس تابعاً لمجموع المضمون الذي جاءت به الآية المذكورة، بل هو بيان للزمان الذي يحتوي الأيام المعدودات في شريعة الأمة الإسلامية، والله العالم.

* * *

«وَقَدْ أَقَامَ فينا هَذَا الشَهْر مَقَامَ حَمْدٍ وَصَحبنَا صُحْبَةَ مَبْرُورٍ وَأَرْبَحَنَا أَفْضَلَ أَرْبَاحِ الْعَالَمِين، ثُمَّ قَدْ فَارَقَنَا عِنْدَ تَمَامِ وَقْتِهِ وَانْقِطَاعِ مُدَّتِه وَوَفَاءِ عَدَدِه، فَنَحْنُ مُوَدِّعُوهُ وَدَاعَ مَنْ عَزَّ فِرَاقُهُ عَلَيْنَا وَغَمَّنَا وَأَوْحَشَنَا انْصِرَافُهُ عَنَّا وَلَزِمَنَا لَهُ الذِّمَامُ الْمَحْفُوظُ وَالْحُرْمَةُ الْمَرْعِيَّةُ وَالْحَقُّ الْمَقْضِيّ».

صحبة الشهر

عاش هذا الشهر في حياتنا كأفضل ما يعيشه زمنٌ مباركٌ في ما يمنحه من البركة لكلّ الناس الذين يعيشون فيه من خلال الفرص التي يوفرها لهم في طاعة الله والحصول على مغفرته ورضوانه، ومن خلال الأجواء الروحيّة التي يثيرها في أجواء الناس الذين يتحركون فيه.. وعشنا معه في حمد وخير وسرور، وحصلنا على أفضل الأرباح على مستوى النتائج الدنيويّة والأخرويّة على أساس ما حصلنا عليه من عمق في الروح، وسموّ في الأخلاق، واستقامة في الخطى، وامتدادٍ في الإلتزام بأوامر الله ونواهيه، وصوم عن كلّ ما يفسد الروح ويسيء إلى طهارة الإنسان في نواياه وأقواله وأفعاله.

ثم مضى وفارقنا، كمرحلةٍ زمنيّةٍ من أفضل مراحلنا، كما يمضي الزمن في النظام الكوني الذي يطوي الحياة في حدودها المعيّنة.. وكانت لنا معه صحبة وعلاقة ومحبّة

وصداقة وحرمة وحق، تماماً كما لو كان كائناً حيّاً يفتح معنا أفضل العلاقات، وتبقى لنا ـ بعد فراقه ـ أفضل الذكريات لنودّعه بأعذب الكلمات، وأحرّ المشاعر، ليكون التفاعل بيننا وبين شهر الله هذا في المستوى الذي ينطلق فيه من الله ليتّصل بكلّ شيء ينتسب إليه ويرتبط به، أكان زماناً أم مكاناً أم إنساناً أم كتاباً من كتب الله أم شرعةً من شرائعه أم خطاً من خطوطه التي أراد لعباده أن يسيروا فيها.

***

«فَنَحْنُ قَائِلُونَ: السَّلامُ عَلَيْكَ يَا شَهْرَ اللهِ الأَكْبَرْ، وَيَا عِيدَ أَوْلِيَائِهِ الأَعْظَمْ، السَّلامُ عَلَيْكَ يَا أَكْرَمَ مَصْحُوبٍ مِنَ الأَوْقَات، وَيَا خَيْرَ شَهْرٍ فِي الأَيَّام والسَّاعَات، السَّلامُ عَلَيْكَ مِنْ شَهْرٍ قَرُبَتْ فِيهِ الآمَال، وَنُشِرَتْ فِيهِ الأَعْمَال، السَّلامُ عَلَيْكَ مِنْ قَرِين جَلَّ قَدْرُهُ مَوْجُوداً وَأَفْجَعَ فَقْدُهُ مَفْقُوداً وَمَرْجُوّاً أَلَمَ فِرَاقُه، السَّلامُ عَلَيْكَ مِنْ أَلِيفٍ آنسَ مُقْبِلاً فَسَرَّ وَأَوْحَشَ مُنْقَضِياً فَمَضَّ، السَّلامُ عَلَيْكَ مِنْ مُجَاوِرٍ رَقَّتْ فِيهِ الْقُلُوبُ وَقَلَّتْ فيهِ الذُّنُوب».

وتتلاحق اوصاف هذا الشهر ـ في أجواء السلام عليه وهي التحية له ـ انطلاقاً من تنوّع مواقعه في شأنه عند الله بالمقارنة مع الشهور الأخرى، وفي مركزه لدى أولياء الله، وفي علاقته بالإنسان في علاقة الصحبة وفي امتداده في الزمن، عندما يتوزع عنوانه بين الأيام والساعات.. وفي الآمال التي تطلّ فيه على حياة الإنسان.. وفي الدائرة التي تمثّل حدود الزمن فيه فتتحرَّك فيها الأعمال، وفي السرور بوجوده واللّوعة بفقده تماماً كأي قرينٍ حيّ، أو أليف ينطلق في الشعور في طبيعة معنى الألفة في النفس ثم يأتي ليقترب من الإنسان، كما يقترب أيّ جار من جاره، ليترك تأثيره في عمق القلوب وليطرد عن ساحته كلّ الذنوب.

فهو شهر الله الأكبر، فكلّ الشهور تصغر في خصائصها أمامه في ما منحه الله من الإمتيازات، وهو عيد أوليائه الأعظم الذي يرتفع بهم إلى أعلى الدّرجات، عندما

يتحركّون فيه في أفضل الأعمال، وأقدس الأيام والساعات بما لا يحصل لهم في غيره في هذه الدرجة، وهو الوقت الذي يصحبه الإنسان كأكرم مصحوب في الخير الذي يقدّمه لصاحبه، وخير شهر في الأيام والساعات في نتائجه الكبيرة في حركة الحياة في الإنسان.

وهو الشهر الذي أعطى الآمال فرصةً كبيرة لتقرب من الواقع في ما يأمله الإنسان من السموّ الروحي، والإرتفاع المعنوي، والدرجات العليا عند الله. وهو الذي نشرت فيه الأعمال فانطلقت في عملية إيحاء منفتح على طاعة الله في التعبير عن إخلاص عبده المؤمن له.

وهو القرين الحبيب الذي يشعر الإنسان بالرابطة الوثيقة التي تربطه به حيث يشعر بجلالة قدره عند وجوده لمعرفته بمواقع الجلال في خصائصه ومعانيه، كما يفجع بفقده عند زواله، لما يشعر به من فداحة الخسائر التي تترتب على افتقاده، وهكذا تتلاحق صفة المرجو الذي آلم فراقه، والأليف الذي فتح للقلب نافذةً على الفرح الروحي عند إقباله، كما أغلق عنه أبواب الإنفتاح عند إدباره وتحرّك مع عناصر الشخصيّة الإسلاميّة في إيحاءاته ومواقعه وأفكاره، حتى بعث الرقّة في القلوب، وخفف فيه ثقل الذنوب على النفس.

***

«السَّلامُ عَلَيْكَ مِنْ نَاصِرٍ أَعَانَ عَلَى الشَّيْطَانِ، وَصَاحِبٍ سَهَّلَ سُبُلَ الإِحْسَانِ، السَّلامُ عَلَيْكَ مَا أَكْثَرَ عُتَقَاءَ اللهِ فِيكَ وَمَا أَسْعَدَ مَنْ رَعَى حُرْمَتَكَ بِكَ، السَّلامُ عَلَيْكَ مَا كَانَ أَطْوَلَكَ عَلَى الْمُجْرِمِينَ وَأَهْيَبَكَ فِي صُدُورِ الْمُؤْمِنِينَ، السَّلامُ عَلَيْكَ مِنْ شَهْرٍ لاَ تُنَافِسُهُ الأَيَّامُ، السلام عَلَيْكَ مِنْ شَهْرٍ هُوَ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ سلام، السَّلامُ عَلَيْكَ غَيْرَ كَرِيهِ الْمُصَاحَبَةِ وَلاَ ذَمِيمِ الْمُلابَسَةِ».

***

ألطاف الله

للتشريع الإلهي دوره الكبير في إعطاء الزمن معنىً روحياً إيحائياً، حيث يتحوّل إلى عنصر من عناصر التأثير الإيجابي على النفس التي تعيش في ساحة الصراع بين خَط الله وخط الشيطان، لمصلحة الإلتزام بالإيمان والتقوى في خط طاعة الله والإخلاص له، لأنّ الخصوصيّة المعنويّة التي يحصل عليها الشهر المبارك في مفردات التشريع الواجبة والمستحبة، تخلق جواً من الإهتمام والقداسة التي تنفذ إلى مشاعر الإنسان الذي يتحرّك في داخله بشكل لا شعوري، بحيث يتأثّر به حتى الذين لا يلتزمون بالتزاماته في نطاق الجوّ العام، ومن هنا نفهم كيف يتحوّل هذا الشهر إلى ناصر أعان على الشيطان، وصاحبٍ سَهَّل سبل الإحسان، لأنّ الضغوط الروحيّة على نوازع الشرّ تساهم في منع الإنسان من الإستسلام لخطوات الشيطان وحبائله بطريقةٍ بالغة التأثير، كما تدفع النفس إلى السير في خط الإحسان الفكري والعملي في ما يحبه الله ويرضاه.

وقد ورد في الحديث عن النبي (ص): **«انّ الله وكّل بكلّ شيطان سبعة أملاك في شهر رمضان فليس بمحول حتى ينقضي»**...

ثم كان من ألطاف الله في هذا الشهر، أنّ الله يعتق الكثير من المذنبين من النار، فقد ورد عن الإمام جعفر الصادق (ع)، إذا كان أوّل ليلةٍ من شهر رمضان، غفر الله لمن شاء من الخلق، فإذا كان الليلة التي تليها ضاعف كلما أعتق، وهكذا، حتى إذا كان آخر ليلةٍ ضاعف فيها كلما أعتق.

وهذا هو الذي يفتح للمذنبين باب الأمل الكبير في المغفرة، حتى في الحالات الشديدة التي أسرفوا فيها على أنفسهم وتوغّلوا كثيراً في دروب المعصية، فيرجعون إلى الله ليؤكّدوا رعايتهم لحرمة الله في هذا الشهر بذهنية روحية جديدة، يتخلصون فيها من كلّ أثقال الذنوب وأغلالها، ليعيشوا السعادة الداخلية في كيانهم، في عملية تجدد روحي وعملي، ليكونوا من أسعد الناس في ذلك على مستوى النتائج الكبيرة في انطلاق الذات وحركة المصير.

وهكذا يساهم هذا الشهر في إيحاءاته وأجوائه في محو الذنوب بالتوبة، وستر العيوب بالتمرد على الإنحراف في خط التغيير.

ومن خلال طبيعة الدور الذي أريد لهذا الشهر أن يحققه في التزاماته التي تتجاوز العنصر المادي في الصوم الجسدي إلى الصوم الروحي والأخلاقي، فإنّ المؤمنين يشعرون بسهولة الحركة فيه من خلال القرار المنطلق من الإرادة الإيمانية بالإلتزام بأوامر الله ونواهيه، كما انّ المجرمين يشعرون بثقله وطوله، لأنّه يخلق في داخلهم شعوراً بالعقدة المستعصية لابتعادهم عن الأجواء العامة فيه في مجتمع الإيمان، فيعيشون فيه الإحساس بالعيون التي تحدّق بهم بالإستنكار، وبالمشاعر التي يتصاعد فيها التوتّر على أساس ما يقومون به من انحرافات في هذا الشهر، ممّا يجعلهم يفكّرون في أوضاعهم كما يفكّر السجين في شعوره بطول مدّة السجن حتى لو كانت قصيرة.

وفي هذا الجو الروحي، يقف هذا الشهر في الموقع الذي لا تستطيع الأيام الأخرى أن تدخل معه في منافسة في القيمة والنتائج، لأنها لا تحمل الكثير ممّا يحمله من خصائص وامتيازات، ولا سيّما في روحيّة السلام الذي يسري إلى كلّ أمر فيه، ممّا يخلق في الحياة جوّاً رائعاً من الإنفتاح على كلّ معاني الخير والإبتعاد عن كلّ معاني الشرّ. وهكذا تكون صحبته لكلّ الذين يصاحبونه طيبةً محبَّبة، كما يكون الإندماج فيه مفتوحاً على كلّ أوضاع السرور.

***

«السَّلامُ عَلَيْكَ كَمَا وَفَدْتَ عَلَيْنَا بِالْبَرَكَاتِ وَغَسَلْتَ عَنّا دَنَسَ الْخَطِيئَاتِ، السَّلامُ عَلَيْكَ غَيْرَ مُوَدَّعٍ بَرَماً وَلاَ مَتْرُوكٍ صِيَامُهُ سَأَماً، السَّلامُ عَلَيْكَ مِنْ مَطْلُوبٍ قَبْلَ وَقْتِهِ وَمَحْزُونٍ عَلَيْهِ قَبْلَ فَوْتِهِ، السَّلامُ عَلَيْكَ كَمْ مِنْ سُوءٍ صُرِفَ بِكَ عَنَّا وَكَمْ مِنْ خَيْرٍ أُفِيضَ بِكَ عَلَيْنَا، السَّلامُ عَلَيْكَ وَعَلَى لَيْلَةِ الْقَدْرِ الَّتِي هِيَ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ، السَّلامُ عَلَيْكَ مَا كَانَ أَحْرَصَنَا بِالأَمْسِ عَلَيْكَ وَأَشَدَّ شَوْقَنَا غَداً إِلَيْكَ، السَّلامُ عَلَيْكَ وَعَلَى فَضْلِكَ الَّذِي حُرِمْنَاهُ وَعَلَى مَاضٍ مِنْ بَرَكَاتِكَ سُلِبْنَاهُ».

الشعور بالحرمان من الفضل

وهنا تأتي كلمات الوداع في المشاعر الحزينة في اللحظات الحاسمة التي يبتعد فيها الإنسان المؤمن عن أجواء هذا الشهر بالإنفصال عن أيامه . . وبذلك يتحرّك الشعور ليتحدّث مع هذا الشهر في كلّ ما كان يعيشه المؤمنون معه، أو يحصلون فيه من نتائج السعادة في الدنيا والآخرة .

فقد جاءنا بالبركات التي ملأت حياتنا، وغسل عنا قذارة الخطايا حتى طهرت أرواحنا، لذلك فنحن نشعر ببركته وطهارته فلا يكون وداعنا له وداع الضجر الذي يشعر به الناس في حالة الجو الثقيل الذي يطبق عليهم، كما اننا لن نترك صيامه من خلال الملل، لأننا كنا نحبه وننفتح عليه في مواقع القرب من الله، ممّا يجعلنا نطلبه قبل وقته، ونحزن عليه قبل فوته ليصرف عنّا الكثير من السوء، ويفيض علينا الكثير من الخير، ولننفتح فيه على الله في ليلة القدر التي تختصر الزمن في ساعاتها حتى تكون في حجم ألف شهر في نتائجها الكبيرة . . وهذا هو الذي جعلنا نحرص عليه في داخله، ونشتاق إليه في المستقبل، ونشعر بالحرمان من فضله ومن بركاته، لنفكّر في تعويض ذلك الحرمان في شهر جديد وعمل جديد .

***

«أللَّهُمَّ إنَّا أهلُ هذا الشَهْر الذي شرَّفْتَنَا بِهِ وَوَفَّقْتَنَا بِمنِّكَ لَهُ حِينَ جَهلَ الأَشْقِيَاءُ وَقْتَهُ وَحُرِمُوا لِشَقَائِهِمْ فَضْلَه، أَنْتَ وَلِيُّ مَا آثَرْتَنَا بِهِ مِنْ مَعْرِفَتِهِ وَهَدَيْتَنَا لَهُ مِنْ سُنَّتِه، وَقَدْ تَوَلَّيْنَا بِتَوْفِيقِكَ صِيَامَهُ وَقِيَامَهُ عَلَى تَقْصِيرٍ وَأَدَّيْنَا فِيهِ قَلِيلاً مِنْ كَثِيرٍ، أَللَّهُمَّ فَلَكَ الْحَمْدُ إقْرَاراً بِالإِسَاءَةِ وَاعْتِرَافاً بِالإِضَاعَةِ وَلَكَ مِنْ قُلُوبِنَا عَقْدُ النَّدَمِ وَمِنْ أَلْسِنَتِنَا صِدْقُ الإعْتِذَارِ، فَأْجِرْنَا عَلَى مَا أَصَبْنَا فِيهِ مِنَ التَّفْرِيطِ أَجْراً نَسْتَدْرِكُ بِهِ الْفَضْلَ الْمَرْغُوبَ فِيهِ وَنَعْتَاضُ بِهِ مِنْ أَنْوَاعِ الذُّخْرِ الْمَحْرُوصِ عَلَيْهِ، وَأَوْجِبْ لَنَا عُذْرَكَ عَلَى مَا قَصَّرْنَا فِيهِ مِنْ حَقِّكَ وَأَبْلِغْ بِأَعْمَارِنَا مَا بَيْنَ أَيْدِينَا مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ الْمُقْبِلِ فَإذَا بَلَّغْتَنَاهُ فَأَعِنَّا عَلَى تَنَاوُلِ مَا أَنْتَ أَهْلُهُ مِنَ الْعِبَادَةِ وَأَدِّنَا إلَى الْقِيَامِ بِمَا يَسْتَحِقُّهُ مِنَ الطَّاعَةِ وَأَجْرِ لَنَا مِنَ

صَالِحِ الْعَمَلِ مَا يَكُونُ دَرْكاً لِحَقِّكَ فِي الشَّهْرَينِ مِنْ شُهُورِ الدُّهُور» .

التقصير لا يجبره إلا غفران الله

وعاد الحديث مع الله في صورة تقرير عمّا قام به المؤمنون في هذا الشهر من واجباته ومستحبّاته واستغفار عمّا قصروا فيه من ذلك، وتطلّع إلى شهر رمضان جديد في استعداد لطاعات جديدة، وقيام كامل شامل بحقّ الله فيه.

إنّا أهل هذا الشهر ـ يا رب ـ فقد عشنا حياتنا في داخله ووعينا كلّ عناوين فضله، وكلّ مواقع الخير فيه، وكلّ عناصر الشرف فيه في ما يكتسبه الذين يعيشون فيه من ذلك، وكلّ حظوظ التوفيق فيه. وقد التزمناه بكلّ قوّةٍ وإخلاص ووعي، في الوقت الذي كان هناك فريق من الناس الذين جهلوا معناه فلم يعيشوا روحه، ولم يلتزموا بمسؤوليته ولم يأخذوا من فضله بما دعوتهم إليه من ذلك، وقد كان صيامنا له فرصةً للتطهّر، كما كان قيامنا فيه فرصة للسموّ إلى درجات القرب إليك، ولكنّنا لم نبلغ مستوى الكمال في ذلك، فقصرنا عن الوصول إلى الدرجة العليا من معناه، ولم نبلغ الحجم الذي أردتنا أن نحصل عليه من الأعمال الكثيرة التي حشدتها في مسؤوليات هذا الشهر.

وها نحن ـ في نهاية المطاف ـ نقف في مواقع حمدك لنؤكّد معنى العبوديّة لك في وجودنا، لنعترف لك بالإساءة في ما أذنبناه فيه، وبالإضاعة في ما قصرنا فيه، ولن نستطيع التخلّص من واقع التقصير لأنّك لا تعبد حقّ عبادتك، مهما بلغ العباد من ذلك.

فلك منّا الإرادة القويّة والتأكيد الشديد من عمق قلوبنا في ما نستشعره من الندم العميق على ما قصّرنا فيه، ومن حركة ألسنتنا في الإعتذار الصادق الذي ينطلق من صدق القرار في التغيير.

وإذا كان ذلك تعبيراً عن موقف الإيمان الحق في ما أردت به عبادك أن يتحسسوا الندم في قلوبهم والإستغفار في ألسنتهم، فإنّنا نطلب منك الأجر الجزيل من عطائك

وكرمك، لنحصل على التعويض عمّا فاتنا من الأجر في طاعتك، وعلى المغفرة في ما أذنبنا فيه من أعمالنا.

وإذا غاب شهر رمضان عنّا، في هذه الفرصة من العمر، فهيّىء لنا فرصة جديدة في امتداد أعمارنا إلى رمضان جديد الذي نريده شهراً تتضاعف فيه طاقاتنا في حركة الطاعة في حياتنا، وتشتدّ فيه الإرادة للوصول إلى مستوى القيام بحقّك بعونك، وتنفتح فيه خطواتنا على الدّرب الذي يؤدّي بنا إلى مواقع القرب منك حتى نحصل من ذلك على ما تدارك ما فاتنا من الأعمال في الشهر الماضي وما نبلغه من الأعمال الصالحة في الشهر المقبل.

***

«أللَّهُمَّ وَمَا أَلْمَمْنَا بِهِ مِنْ شَهْرِنَا هذَا مِنْ لَمَم اوْ إثْم أَوْ وَاقَعْنَا فِيهِ مِنْ ذَنْب وَاكْتَسَبْنَا فِيهِ مِنْ خَطِيئَةٍ عَلَى تَعَمُّدٍ مِنَّا أَوْ عَلَى نِسْيَانٍ ظَلَمْنَا فِيهِ أَنْفُسَنَا أَوْ انْتَهَكْنَا فِيهِ حُرْمَةً مِنْ غَيْرِنَا، فَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَاسْتُرْنَا بِسِتْرِكَ وَاعْفُ عَنَّا بِعَفْوِكَ وَلاَ تَنْصِبْنَا فِيهِ لأَعْيُنِ الشَّامِتِينَ وَلاَ تَبْسُطْ عَلَيْنَا فِيهِ أَلْسُنَ الطَّاعِنِينَ وَاسْتَعْمِلْنَا بِمَا يَكُونُ حِطَّةً أَوْ كَفَّارَةً لِمَا أنكَرْتَ مِنَّا فِيهِ بِرَأْفَتِكَ الَّتِي لاَ تَنْفَدُ وَفَضْلِكَ الَّذِي لاَ يَنْقُص».

وإذا كنّا نعتذر إليك من التقصير في ما سلف منّا في هذا الشهر، فإنّنا نستذكر الآن ما ألممنا به من الآثام والذنوب والخطايا ممّا تعمّدناه أو أخطأنا فيه أو نسينا معه، مسؤوليتنا أمامك في ما يتّصل بنا أو بالآخرين من حرماتهم التي انتهكناها في أنفسهم وفي أموالهم وأهاليهم وأعراضهم.. لنشعر أمام ذلك كله بالحاجة إلى التخفّف من تلك الأثقال الروحيّة التي تثقل ضمائرنا ومشاعرنا، وذلك بالإبتهال إليك لتغفر لنا ولتعفو عنّا وتستر علينا بسترك.. حتى نحصل على السعادة الروحيّة من فضلك فلا يشمت بنا الآخرون ممن يكيدون لنا من أعداء دينك، ولا يطعن علينا الطاعنون في ما يستغلونه من أخطائنا تجاهك للتحدّث عنا بألسنتهم بما لا يرضيك، ووفقنا ـ بعد ذلك ـ للثبات

على خطّ الخروج من معصيتك، والإستقامة في الخط الذي يؤدّي إلى مواقع رضاك في ما تسبغه علينا من فضلك وتحنو به على مشاعرنا من لطف رأفتك.

* * *

«أَللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ واجْبُرْ مُصِيبَتَنَا بِشَهْرِنَا، وَبَارِكْ لَنَا فِي يَوْمِ عِيدِنَا وَفِطْرِنَا وَاجْعَلْهُ مِنْ خَيرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْنَا وأَجْلَبَهُ لِعَفْوٍ وَأَمْحَاهُ لِذَنْبٍ وَاغْفِرْ لَنَا مَا خَفِيَ مِنْ ذُنُوبِنَا وَمَا عَلَن.

أَللَّهُمَّ اسْلَخْنَا بِانْسِلاَخِ هذَا الشَهْرِ مِنْ خَطَايَانَا، وَأَخْرِجْنَا بِخُرُوجِهِ مِنْ سَيِّئَاتِنَا، وَاجْعَلنَا مِنْ أَسْعَدِ أَهْلِهِ بِهِ وَأَجْزَلِهِمْ قِسْماً فِيهِ وَأَوْفرِهِمْ حَظّاً منه».

* * *

العيد احتفال القيام بالواجب

وإذا كان فراق الشهر مصيبةً على المؤمنين في ما يفقدونه ـ بغيابه ـ من بركات وألطافٍ ربانية، فإنّ العيد الذي يأتي بعده يمثل معنى الإحتفال بالقيام بالواجب وبركاته في معنى الرضوان، وصفاء الفرح الروحي، وانفتاح الإنسان على ساحة المسؤولية الواسعة في مدى الزمن، بعد فترة التدريب على تحمّل الحرمان من موقع الإرادة.. وبهذا كانت تطلّعاتنا ـ يا رب ـ إليك أن تجبر مصيبتنا بشهرنا هذا بما تمنحنا من ألطافك، وأن تبارك لنا في يوم عيدنا وفطرنا، بالكثير من فيوضات كرمك وأن تجعل هذا اليوم أكثر الأيام مجلبةً للعفو، ومحواً للذنب، وأن نعيش فيه روح المغفرة لذنوبنا كلّها الظاهرة والخفية، حتى نعيش السعادة الإيمانية في الدنيا، والطمأنينة الروحية في الآخرة، فلا يبقى لنا ذنب نخشاه.. ولا نجد في نفوسنا أثراً للشقاء، فهناك الربح كلّ الربح، والنعيم كلّ النعيم في ظلال عفوك وغمائم رحمتك.

«أَللَّهُمَّ وَمَنْ رَعَى هذَا الشَّهْرَ حَقَّ رِعَايَتِه وَحَفَظَ حُرْمَتَهُ وَقَامَ بِحُدُودِهِ حَقَّ قِيَامِهَا وَاتَّقَى ذُنُوبَهُ حَقَّ تُقَاتِهَا أَوْ تَقَرَّبَ إِلَيْكَ بِقُرْبَةٍ أَوْجَبَتْ رِضَاكَ لَهُ،

وَعَطَفَتْ رَحْمَتَكَ عَلَيْه، فَهَبْ لَنَا مِثْلَهُ مِنْ جُودِكَ وَأَعْطِنَا أَضْعَافَهُ مِنْ فَضْلِك، فإنَّ فَضْلَكَ لاَ يَغِيضُ وَإنَّ خَزَائِنَكَ لاَ تَنْقُص بَلْ تَفِيضُ وإنَّ مَعَادِنَ إحْسَانِكَ لاَ تَفْنَى وإنَّ عَطَاءَكَ لَلْعَطَاءُ الْمُهَنَّا.

أَللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِه، وَاكْتُبْ لَنَا مِثْلَ أُجُورِ مَنْ صَامَهُ أَوْ تَعَبَّدَ لَكَ فِيهِ إلَى يَوْمِ القِيَامَةِ».

***

عطاء الله لا يخضع لحسابات الزيادة والنقصان

وهناك ـ يا رب ـ نموذج من الناس عاشوا الإيمان في قلوبهم وعقولهم، وحفظوا حرمات الله في التزاماتهم، ووقفوا عند حدود الله في مسيرتهم.. ولذلك رعوا هذا الشهر في ما يتميّز من الحق الإلهي في رعايته، وحفظوا حرمته في ما جعله الله له من حرماتٍ في صيامه وقيامه، ووقفوا عند حدوده في حدود الحلال والحرام فيه، واتقوا الذنوب فلم يقتربوا منها من خلال وعيهم لنتائجها السيّئة على مستوى المصير، وتقرّبوا إليك بكل الأقوال والأفعال والعلاقات التي تقرب العباد إليك في ما تختزنه من مواقع محبّتك، وآفاق رضاك.. فرضيت عنهم وأعطيتهم من رحمتك كلّ الحنان والإشفاق، وأجزلت ثوابهم من عطائك الذي جعلته للمتّقين المخلصين.

وإذا كان كلّ عطائك لهم من موقع الفضل لا من موقع الإستحقاق، لأنّ عبادك لا يستحقّون عليك شيئاً، فإنّنا نسألك يا رب أن تهب لنا من خزائنك مثله وأن تضاعف لنا ذلك، لأن مسألة العطاء لديك لا تخضع لحسابات الزيادة والنقصان، لتخشى من نقصان خزائنك إذا زاد عطاؤك لأنّك تخلق ما تعطي منها كما تخلق ما يبقى فيها، فلا تفنى خزائنك بل تبقى ولا ينقص فضلك بل يزيد.. وتستمر يا رب في عطائك الذي يعيش عبادك في هنائه ورخائه وخيره، ومعنى السعادة الممتدّ في كلّ مواقع الإحسان لديك.

فهل نملك يـا رب كلمات الشكـر التي تـوفي حقّـك، وهل نستطيع أن نبلغ معنى الحمد الذي يتميّز به فضلك.

وهل نخشى ـ أمام كل كرمك الذي لا ينتهي عطاؤه ـ أن نطلب منك أن تمنحنا أجر من تعبّد لك في صيامه وقيامه إلى يوم القيامة.

إنّنا لا نجد مـا يسوّغ لنا ذلك من أعمالنا في ما تثيب بـه عبادك على أعمالهم الصالحة التي يتقربون بها إليك لينالوا ثوابك... ولكنّنا ـ في طلباتنا ـ لا ننظر إلى استحقاقنا بل ننظر إلى فضلك العظيم ومنّك الجسيم ورحمتك التي لا يبلغ مداها شيء.

فاستجب لنا ذلك، يا أكرم الأكرمين.

***

«أَللَّهُمَّ إِنَّا نَتُوبُ إِلَيْكَ فِي يَـوْمِ فِطْرِنَا الَّذِي جَعَلْتَـهُ لِلْمُؤْمِنِينَ عِيداً وَسُرُوراً وَلأَهْلِ مِلَّتِكَ مَجْمَعاً وَمُحْتَشَداً، مِنْ كُلِّ ذِنْبٍ أَذْنَبْنَاهُ أَوْ سُـوءٍ أَسْلَفْنَاهُ أَوْ خَاطِرِ شَرّ أَضْمَرْنَـاه، تَوْبَـةَ مَنْ لاَ يَنْطَوِي عَلَى رُجُـوعٍ إِلَى ذَنْبٍ وَلاَ يَعُودُ بَعْـدَهَا فِي خطيئَةٍ، تَوْبَةً نَصُوحاً خَلُصَتْ مِنَ الشَّكِ وَالإِرْتِيَاب، فَتَقَبَّلْهَا مِنَّا وَارْضَ عَنَّا وَثَبِّتْنَا عَلَيْهَا».

وهذا يـوم الفطر الذي بدأنـا به زمناً جديـداً نتخفّف فيه من مسؤولية الصيـام الذي فرضته علينا في هـذا الشهر، وانطلقنا من خلاله إلى أجواء العيـد في معناه العميق الذي يوحي إلينـا، كمؤمنين ملتزمين، بأنّ طـاعة الله في أيّ مـوقع من مواقع حركـة الإنسان المؤمن، تمثّل عيداً يحمل في معناه كلّ أسرار الحيويّـة الروحيّة للعيد، لأنّه يحقّق في عمق الروح كلّ معاني الفرح الرّوحي بالإنفتاح على الله في آفاق الثواب الإلهي.

وأردت ـ يا رب ـ أن يعيش المؤمنون السرور كلّه من خلال اجتماعهم على أساس فرح الطـاعة في عيـدهم، ومعنى الأخوّة في إسـلامهم، وحركـة القوّة القـائمة على الشعـور بالوحدة في خط ملّتهم التي هي ملّتك التي شرّعت لهم في وحيك.

ونحن نريد ـ يا رب ـ أن نعيش معنى العيد في حياتنا في ما نريد أن نعيشه من معنى الطهارة في أفكارنا ومشاعرنا وأعمالنا لنقترب قليلاً قليلاً من طهر المواقع الإلهية التي نقترب من خلالها إليك، وذلك بما فتحته أمامنا من أبواب التوبة التي تؤدّي بنا إلى ساحة رحمتك وآفاق رضاك.

ولذلك، فإنّنا نتوب إليك ـ في يوم فطرنا هذا ـ توبةً خالصةً مستقرّةً في الأعماق، خالدة في العمر، نصوحاً في معناها، من دون شكّ ولا ارتياب، لأنّها تنطلق من إيمان راسخ، وقناعةٍ مطمئنة، بأن علينا أن نحصل على الإستقامة في دربك المستقيم فلا ينحرف بنا الشيطان عنه إلى مواقع الشرّ في ضلاله وطغيانه، وأن نقوم بتصحيح الخطأ الذي يوقعنا فيه الهوى الذي يتحرّك في خط الشيطان، فلا نرجع فيه بعد خلاصنا منه.

وها نحن نتوب إليك، لتكون توبتنا هدية العيد إليك ـ يا رب ـ عندما نقدّم نفوسنا المؤمنة في مواقع الطهر الروحي المنفتح على طهر القداسة في علياء مجدك.

إنّنا نتوب إليك من كلّ ذنب أذنبناه، أو سوء أسلفناه في ما مضى من أيام عمرنا من أقوالنا وأعمالنا، أو خاطر من خواطر السوء في فكرٍ منحرف يتحرّك في طريق الشرّ، أو نيّةٍ سيّئةٍ من نوايا السوء التي تتصل بالفساد في حركة الحياة وفي واقع الناس، حتى تخلص أفكارنا من قذارة الشرّ، وتطهر أجسادنا من رجس الخطيئة، لنقف بين يديك في إيمان خالص وتقوى منفتحة على طاعتك، فتقبّل منّا ذلك، وأعطنا من واسع رحمتك، وثبتنا عليه لنمتدّ في مواقع رضاك.

* * *

«أَللَّهُمَّ ارْزُقْنَا خَوْفَ عِقَابِ الْوَعِيدِ وَشَوْقَ ثَوَابِ الْمَوْعُودِ حَتَّى نَجِدَ لَذَّةَ مَا نَدْعُوكَ بِهِ وَكَآبَةَ مَا نَسْتَجِيرِ بِكَ مِنْهُ، وَاجْعَلْنَا عِنْدَكَ مِنَ التَّوَّابِينَ الَّذِينَ أَوْجَبْتَ لَهُمْ مَحَبَّتَكَ وَقَبِلْتَ مِنْهُمْ مُرَاجَعَةَ طَاعَتِكَ، يَا أَعْدَلَ الْعَادِلِينَ».

التوبة في العقل والوجدان

إنّ التوبة النصوح التي نعمل لها ليست مجرّد فكرة تعيش في عقولنا، ومشروع يتحرّك في قرارنا . . بل نريدها شعوراً يفرض نفسه على مواقع الإحساس في شخصياتنا حتى ينطلق الفكر بحرارةٍ تهزّ الكيان كلّه لتفرض الموقف على الواقع كلهّ وتدفعه إلى الثبات في إيحاءات الشعور، إضافةً إلى القوّة في معادلات العقل، والتوازن في حسابات المستقبل على مستوى النتائج الإيجابية المتّصلة بقضايا المصير.

ولكننا لا نستطيع بلوغ المنطقة الشعورية المنفتحة على ذلك الجوّ الروحي الداخلي، إلاّ بإعانتك لنا على الإستغراق في معاني العبودية الإنسانية الخالصة الخاضعة للأُلوهية الخالقة الرحيمة.

ومن خلال ذلك، فإنّنا نسألك أن تغرس في أعماقنا الخوف العميق من العقوبة التي تنتظر العاصين من عبادك في ما توعّدتهم به، حتى نشعر به كأية حالة من الحالات التي نواجه بها الحاضر والمستقبل في ما يحمله من عناصر الخوف في الواقع، ليكون خوف ما في الآخرة حالةً شعوريةً متحركةً في الروح تماماً كما هو خوف ما في الدنيا. كما نسألك أن تثير في مشاعرنا الشوق الروحي إلى الثواب الذي وعدت به عبادك المتّقين في ما جعلته لهم من ثوابك . . ليتحوّل ذلك الإحساس، في حالة الخوف من عقاب الوعيد والشوق إلى ثواب الموعود، إلى إحساس باللّذة في الدعاء في ما نطلبه منك من المغفرة والرضوان وشعورٍ بالكآبة في ما يطوف بأفكارنا ممّا نستجيرك منه من العقوبة والخسران.

ونتوسّل إليك أن تجعلنا من التّوابين في التوفيق للتوبة وفي قبولها لنحصل على محبّتك من خلال ذلك في ما أوجبته للتائبين من المحبة، ولنسعد بقبولك منّا العودة إلى طاعتك من جديد في ما تفتحه لنا من طريق السير إليك . . فإنّك أعدل العادلين في كلّ موازين العدل القائم على أن تعطي عبادك كلّ جزاء المحسنين.

***

«أَللَّهُمَّ تَجَاوَزْ عَنْ آبَائِنَا وَأُمَّهَاتِنَا وَأَهْلِ دِيننا جَمِيعاً مَنْ سَلَفَ مِنْهُمْ وَمَنْ غَبَرَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَة».

الجميع بحاجة إلى رضاك

وإذا كنّا ـ يا رب ـ نطلب إليك أن تتجاوز عنّا وتغفر لنا ذنوبنا بفضلك، فإنّنا لا نريد ذلك لنا ـ وحدنا ـ ولكنّنا نتذكّر آباءنا وأمهاتنا الذين أردتنا أن نشكرهم على ما أحسنوا به إلينا، كما أردتنا أن نشكرك على إحسانك العميم وفضلك الجسيم، كما نتذكّر كلّ أهل ديننا الذين نرتبط بهم بعلاقة الإيمان بك، والإلتزام بدينك الذي أرسلت به رسولك من كلّ هؤلاء الذين طواهم الزمن في غياهب الموت، ووفدوا إلى جوارك ليواجهوا حسابهم بين يديك، ولينتظروا مصيرهم في حكمك العادل ورحمتك الواسعة.

إنّنا نتذكرهم، ونتذكّر حاجتهم إلى مغفرتك ورضاك بعد أن فقدوا الفرصة في العمل الذي يمكّنهم من تصحيح أوضاعهم في ما اكتسبوه من الذنوب، أو واقعوه من الخطيئة.. فنطلب إليك أن تتجاوز عنهم وتغفر لهم كما تتجاوز عنّا وتغفر لنا.. لنجتمع ـ غداً ـ عندك في ظلال الإيمان الذي هو سرّ الوحدة التي تجمعنا في ساحة دينك، ونلتقي في جنّتك في دار النعيم فنسعد برضاك.

* * *

«أَللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّد وَآلِهِ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى مَلاَئِكَتِكَ الْمُقَرَّبين، وَصَلِّ عَلَيْهِ وَآلِهِ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى أَنْبِيَائِكَ الْمُرْسَلِين، وَصَلِّ عَلَيْهِ وَآلِهِ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى عِبَادِكَ الصَّالِحِين، وَأَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ يَا رَبَّ الْعَالمين، تُبَلِّغُنَا بَرَكَتَهَا وَيَنَالُنَا نَفْعُهَا وَيُسْتَجَابُ بِهَا دُعَاؤنَا، إِنَّكَ أَكْرَمُ مَنْ رُغِبَ إِلَيْهِ وَأَكْفَى مَنْ تُوُكِّلَ عَلَيْهِ وَأَعْطَى مَنْ سُئِلَ مِنْ فَضْلِهِ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِير».

الإلتزام بخط الرسول وآله

ويبقى للصلاة على محمد وآله الذين حملوا رسالته وساروا على منهاجه وانفتحوا على كل أهدافه، معنى الوفاء والإلتزام، فيبقى الإرتباط بالرسول وآله في خط الرسالة، تماماً كما أراد الله لنا أن ننفتح على ملائكته المقرّبين في ما أوكل الله إليهم من القيام بتنفيذ أوامره الكونيّة، وبالإستغراق في عبادته، وعلى أنبيائه المرسلين الذين تحرّكوا في مسيرة الرسالة الإلهية بكلّ إخلاص ومعاناة.

وللصلاة بركتها التي تنتفح على حياة الإنسان في ما توحي به من معاني الذكرى للروح الإيماني والرسالي الذي تثيره أسماء كلّ هؤلاء، فتبعث فينا الإحساس بالإخلاص لله ولرسالته كما أخلصوا له.. وتتحرّك البركة الروحيّة ليستجاب بها الدعاء ويعود إلى حياتنا نفعها..

إنّنا نطلب منك ذلك كلّه وأكثر من ذلك، لأنّك أكرم مَن رغب إليه الراغبون، وأعطى من سأله السائلون، وأرحم من استرحمه المسترحمون، ولا يضيق عنك شيء من ذلك كلّه لأنّك على كلّ شيء قدير.

والحمد لله ربّ العالمين.

الفهـــرس

تقديم ٥

*** شهر رمضان في حركة الشخصية الإسلامية** ٧

دور الصوم ٨

دور قراءة القرآن ١٠

دور الدعاء ١١

الانفتاح على القضايا الكبرى ١٢

إستحضار الآلام الإنسانية ١٤

الدعاء انفتاح على الحياة ١٨

*** دعاء الإمام زين العابدين (ع) في دخول شهر رمضان المبارك** ٢٣

حمد دائم ٣١

شهر رمضان سبيل الله ٣٢

شهر الصيام ٣٤

شهر الإسلام ٣٤

شهر الطَّهور ٣٥

شهر التمحيص ٣٦

شهر القيام ٣٦

ميزة شهر رمضان ٣٧

بين المعنى المادي للصوم والمعنى الروحي ٤٠

أداء الواجبات بشروطها ٤٤
مضامين إنسانية ٤٥
صلة الرحم ٤٥
تعهد الجيران ٤٦
تزكية الأموال ٤٧
الدفع بالتي هي أحسن ٤٨
الموقف الصلب ٤٩
العمل دليل الصدق ٥٠
الابتهال لمواجهة الانحرافات ٥١
قلق المصير ٥٣
الزمن شاهد حي ٥٣
الشوق إلى الجنة ٥٤
الوفاء للنبي (ص) ٥٥

*** دعاء الافتتاح** ٥٧
إفتتاح العمل بحمد الله ٦٧
الله المسدِّد ٦٧
الله الرحيم ٦٨
الله شديد العقاب ٦٨
الله الجبار ٦٨
الله مقيل العثرات ٧٠
لا شريك لله في خلقه ٧٢
صفات الله لا تطلق على أحد ٧٩
إطلاق لفظ الإمام على غير المعصوم ٨٠

كما هو أهله ٨١
عظمة الله مطلقة ٨٤
كل شيء يدل على وجود الله ٨٥
كرم الله المطلق ٩٠
ضآلة الطلب أمام كرم الله ٩٢
أنت أطعمتني فيك ٩٤
إنفتاح العبد على ربه ٩٥
شروط الدعاء ٩٦
طهارة اللسان ٩٧
همزة الدعاء ٩٧
طهارة القلب ٩٨
تأخير الإجابة لمصلحة الداعي ٩٨
صبر السيد على عبده ١٠١
الحمد لله الذي بيده كل شيء ١٠٥
يُمهل ولا يُهمل ١٠٧
الله مُسبِّب الأسباب ١٠٨
الله قريب بعيد ١١٤
الله غني عن الخلق ١١٧
الله قوي عزيز ١١٩
نعم الله على عباده ١٢٠
ذنوب العبد واستجابة الدعاء ١٢١
الله نصير المستضعفين ١٢٥
لا ملجأ منه إلا إليه ١٢٩
سطوة الله على كل شيء ١٣١

الحمد لله على هدايته ١٣٢
الله مصدر كل شيء ١٣٣
علاقتنا بالرسل من خلال رسالاتهم ١٣٥
الصلاة على النبي وآله ليست مجرد تقليد ١٣٩
الأنبياء والأئمة (ع) عبيد الله ١٣٩
الرسول أمين الله وصفيه وحبيبه ١٤١
الرسول حافظ سر الله ١٤٢
عظمة أهل البيت في عبوديتهم لله ١٤٣
علي ولي الله وحجته على خلقه ١٤٦
الحسن والحسين (ع) سيدا شباب أهل الجنة ١٤٨
فاطمة الزهراء (ع) سيدة نساء العالمين ١٤٨
الأئمة حجج الله على العباد والأمناء في البلاد ١٤٩
الانتظار الإيجابي هو المطلوب ١٥٠
التطلع إلى دولة الإسلام ١٥٨
الدولة الإسلامية . . هدف نسعى لتحقيقه ١٦٣
عز المسلمين مسؤولية ١٦٨
الدعوة إلى الله في كل مجالات الحياة ١٧٠
صنع القيادة مسؤولية أمة ١٧٣
تقصي الحق في كل مواقع الحياة ١٧٦
شكوى العبد إلى ربه ١٧٩

*** دعاء الإمام زين العابدين في وداع شهر رمضان المبارك** ١٨١
العطاء سر الذات الإلهية ١٩٣
فعل الله مبني على التفضل ١٩٩

نداء المحبة الدائم ٢٠١
التجارة مع الله ٢٠٤
ذكر الله حاجة إنسانية ٢٠٦
مميزات الدعاء ٢٠٨
العجز عن بلوغ الحمد ٢١٠
خصوصية الزمن في شهر رمضان ٢١٢
الاصطفاء الخاص ٢١٣
صحبة الشهر ٢١٤
ألطاف الله ٢١٧
الشعور بالحرمان من الفضل ٢١٩
التقصير لا يجبره إلا غفران الله ٢٢٠
العيد احتفال القيام بالواجب ٢٢٢
عطاء الله لا يخضع لحسابات الزيادة والنقصان ٢٢٣
التوبة في العقل والوجدان ٢٢٦
الجميع بحاجة إلى هناك ٢٢٧
الالتزام بخط الرسول وآله ٢٢٨